وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب
The Syrian General Organization of Books

المدينة في ألف ليلة وليلة

ملامحها الثقافية والاجتماعية والسياسية

د. محمد عبد الرحمن يونس

الدكتور محمد عبد الرحمن يونس

- باحث وقاص وروائي وأستاذ جامعي من سورية.
- حاصل على شهادة دكتوراه الدولة في النقد الأدبي.
- درس وتخرّج في الجامعات الآتية:
الجامعة الجزائرية بالجزائر، وجامعة محمد الخامس بالرباط، والجامعة اللبنانية - الفرع الأول بيروت .
- له عشرة كتب مطبوعة في القصة والرواية والنقد الأدبي.
- عمل مدرساً في عدة جامعات عربية وأجنبية منها: جامعة صنعاء باليمن، وجامعة الدراسات الأجنبية في بكين - الصين، وجامعة الباحة - السعودية.
- له مائة وخمسة وتسعون مقالاً وبحثاً ودراسة أكاديمية ونقدية منشورة في خمس وتسعين مجلة ودورية وصحيفة عربية تصدر في الوطن العربي، وأوروبا وأمريكا وأستراليا والصين.
- عضو في عدّة منظمات عربية وعالمية تهتم بالكتابة والثقافة والنشر.
- عضو محكّم في عدة جوائز عربية تعنى بالإبداع والتأليف والبحث العلمي.
- عضو هيئة تحرير في عدة مجلات أكاديمية جامعية محكّمة.

المدينة في ألف ليلة وليلة

ملامحها الثقافية والاجتماعية والسياسية

د. محمد عبد الرحمن يونس

المدينة في ألف ليلة وليلة

ملامحها الثقافية والاجتماعية والسياسية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٠٨

المدينة في ألف ليلة وليلة: ملامحها الثقافية والاجتماعية والسياسية / تأليف محمد عبد الرحمن يونس .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٨.- ٢٤٨ ص: مص ؛ ٢٤ سم.

١- ٣٩٨,٢ ي و ن م ٢- العنوان ٣- يونس

مكتبة الأسد

المقدمة

ما من عمل أدبي شعبي نال شهرة واسعة في آداب المجتمعات الإنسانية أكثر من ألف ليلة وليلة. وكثيرة هي الدراسات التي تناولت هذا العمل في جوانبه المتعددة، بوصفه نتاجاً معرفياً وحضارياً لكثير من الأمم والشعوب. ويمكن القول: إن حكايات ألف ليلة وليلة تعبّر عن مخزون الذاكرة المعرفية الجمعية للمجموع الإنساني عبر رحلته التاريخية والحضارية، هذه الذاكرة التي عايشت تاريخ المجتمعات، وعاداتها وأحوالها، والتحولات الفكرية والسياسية لهذه المجتمعات في تطورها الحضاري. ومن هنا فإن السرد الحكائي في ليالي ألف ليلة وليلة ليس سرداً بعيداً عن الإيديولوجيا التي تشكل خلفية معرفية، يؤسس عليها الرواة مقولات أبطالهم الفكرية، وحركة هؤلاء الأبطال، وما يقومون به من أفعال، وليس هذا السرد بعيداً عن التاريخ والسياسة. وكل محاولة لدراسة حكايات ألف ليلة وليلة بعيداً عن بنية المجتمعات التي تتحدث عنها الليالي ستفرض علينا اعتبارها عملاً تخييليّ صرفاً، وبالتالي ستفقدنا المتعة الكامنة في السرد الحكائي المرتحل في مدن هذه المجتمعات، وفضاءاتها المتعددة، وعلاقاتها الإنسانية والطبقية التي يمكن أن تكون علاقات قد قامت فعلاً، في زمان تاريخي معين، وفي فضاء مكاني معروف.

وإذا كانت حكايات ألف ليلة وليلة تنهل من كثير من الأبعاد الأسطورية والخرافية، والأحلام البشرية الجمعية الجامحة للطبقات الوسطى والفقيرة، فإن ذلك لا ينفي أن تكون هذه الحكايات قد نهلت من بنية الواقع بعلاقاته وعاداته،

ومكوناته الفكرية والرؤيوية، ولا ينفي أن تكون هذه الحكايات رصداً أنثروبولوجيا لحضارة الجماعات البشرية بأزمنتها وأمكنتها، لأن هذه الأزمنة والأمكنة- وإن كان من المحتمل أن تكون تخيلية متشكلة بفعل الخبرات المعرفية للرواة الذين قرأوا كثيراً من معارف عصورهم والعصور التي سبقتهم أو حفظوها بعد أن سمعوها شفاهياً- قد تكون حقيقية، بل هي أقرب إلى الحقيقة منها إلى التخيل.

إن وضع اللمسات على الحدود الفاصلة بين ما هو واقعي وبين ما هو تخيلي وحلمي في ألف ليلة وليلة من الصعوبة بمكان. إذ لا يمكننا أن نحدد بدقة متى ينتهي الواقعي ومتى يبدأ التخيلي، لأن الواقعي في مدن ألف ليلة وليلة يبدو أحياناً أغرب من التخيلي نفسه، من حيث سحريته وعجائبيته، فالباحث في الأدب الشعبي- وبطبيعة الحال تشكل ألف ليلة وليلة جزءاً مهماً منه - «يواجه (...) مشكلة الحدود الفاصلة بين الأحداث الواقعية وبين إبداعات الخيال، ونوع التفاعل القائم بينهما، وتداخلهما معاً في بناء الإبداع أو الحكاية أو الملحمة، بما يفضي إلى مشكلة أكثر تعقداً، هي العلاقة بين التاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة، وبين القص الخيالي بوجه عام»(١). فالسرد التاريخي في حكايات ألف ليلة وليلة، وفي بعض الأحيان، لا يعني مجرد ذكر الحادثة التاريخية بشخوصها وأفعال هذه الشخوص، وعلاقاتهم في الزمان والمكان، بل هو يخرج عن إطار الحدث ومحدوديته ومصداقيته، ليصبح سرداً مؤسطراً يتجاوز ما هو تاريخي إلى ما هو تخيلي وحلمي. فعلى سبيل المثال يُلاحظ-أحياناً-أن السرد الذي يذكر الخليفة العباسي هارون الرشيد يتخطى حدود التاريخ، ليُدخل هذا الخليفة في دائرة العجائبي الأسطورية. إذ يبدو مستهتراً ماجناً، وعاشقاً مغتلماً، لا همّ له إلا إشباع لذائذه الجنسية، وباطشاً مستبداً بأقرب المقربين إليه، وزيره جعفر البرمكي، وقادراً على إخضاع الجان لمشيئته.

---

(١) الجوراني، وداد: «حكايات ما قبل الألف ليلة وليلة»، مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات، دار الشروق، عمّان، العدد

ويبدو أن الراوي سبق له وأن رأى كثيراً من أخطاء الدولة العباسية، وتجاوزات خلفائها وسلطاتها لما هو شرعي وديني وأخلاقي، فعمد إلى تبني إيديولوجيا مضادة لإيديولوجيا هذه الدولة، ومن خلال هذه الإيديولوجيا المضادة أضفى على تاريخ خلفاء هذه الدولة - ومنهم الخليفة هارون الرشيد- سرداً نأى عن الحدث التاريخي بواقعيته، وحقيقة أبطاله، ومسيرتهم التاريخية، على أن إيديولوجيا الراوي في نهاية المطاف ليست فردية، ولا يمكن أن تكون كذلك، لأنها تمثل رغبة الجماعات المستضعَفَة- بفتح العين- والفقيرة، والمحرومة، في الدولة العباسية وتطلعاتها. ومن هنا يبدو طبيعياً أن تشكل نصوص ألف ليلة وليلة حقلاً مرجعياً، ووثيقة تاريخية واجتماعية، يمكننا من خلالهما أن نفهم طبيعة الإنسان والمجتمع، والحضارات الإنسانية، وقيمها وأعرافها، وأنظمتها الفكرية والسياسية، إذ لا يمنع التخيلي الخارق في ألف ليلة وليلة هذه الليالي من أن تكون هذا الحقل المرجعي، لأن التخيلي - ومهما كان خارقاً وعجائبياً- فإنه في نهاية المطاف يستمد كثيراً من عناصره التخيلية من الواقع وإشكالياته، وحركته، وقبحه وجماله، وأحلام جماعاته، وهو بهذا يعمل على تخطي هذا الواقع، ليؤسس مكوناته التخيلية الجمالية المتجاوزة لهذا الواقع، والقادرة على الدخول بالذات الإنسانية إلى عوالم سحرية أخاذة مليئة بالدهشة والغرابة.

وتحاول دراستي هذه - المدينة في ألف ليلة وليلة- أن تتبين الملامح الرئيسة لمدن ألف ليلة وليلة الواقعية، منطلقة من بنية نصوص الليالي، باعتبارها نصوصاً منفتحة على التاريخ والسياسة، والعلاقات بين الحاكم والمحكوم، في المدن العربية الإسلامية، وغير العربية، إلا أن هذه الدراسة لا تركز على نصو ص الليالي باعتبارها عملاً تخيلياً صرفاً، بل تعدها عملاً يمكن أن يكون معبراً - في كثير من جوانبه- عن الواقع الحقيقي المعيش للطبقات الاجتماعية والسياسية في أزمنتها وأمكنتها، فاعتبار مدن ألف ليلة وليلة مدناً متخيلة لن يساعدنا على فهم العلاقات

القائمة، سياسياً واجتماعياً، بين سكان المدينة في ما بينهم من جهة، وبين السلطات القائمة فيها، وبين أفراد الشعب من جهة أخرى.

وإذا كانت بعض العلاقات الاجتماعية والسياسية التي ظهرت في مدن ألف ليلة وليلة علاقات عجائبية سحرية لا تتحقق إلا في الحلم والتخيل، وأوهام الذاكرة، ووفقاً لنسق ميثولوجي وسحري، فإن كثيراً من مدن ألف ليلة وليلة كانت مدناً واقعية معروفة بتاريخها وحكامها، وطبيعة الحياة فيها بمختلف أشكالها، فلقد قامت هذه المدن منذ القديم، وعُرِفت، ولا تزال معروفة حتى الآن، ومن هذه المدن: بغداد والبصرة والكوفة، ودمشق، وحلب، وصنعاء، والقاهرة والإسكندرية، وفاس ومكناس، وغيرها من المدن الكثيرة التي ذكرتها نصوص الليالي[١]، في حين أن مدناً وجزراً أخرى ذكرتها الليالي، كانت غاية في العمران والهندسة المعمارية الفائقة فناً، وإبداعاً، وتخطيطاً جمالياً مدهشاً، غير أن هذه المدن، إذا حاولنا أن نتتبع معالمها على الخريطة الجغرافية الحديثة- بعد أن تشكل العالم الحديث تشكلاً جغرافياً جديداً ومعروفاً من حيث معالمه وحدوده وبحاره ومحيطاته، وعواصمه دولة- فإننا لن نجد أسماء لهذه المدن. فإما أن تكون قد اندثرت بفعل عوامل، الطبيعة من زلازل وبراكين، وسيول وأنهار، وإما أن (١)تكون قد تغيرت (٢)أسماؤها، بفعل التحولات التاريخية والجغرافية التي تعرّضت لها قارات العالم وفق تشكلاتها الجديدة، وإما أن تكون مدناً قد تشكلت مورفولوجياً وجمالياً وفق رؤية الرواة الجمالية الخاصة، ومن خلال عمليات التخيل والحلم، أو من خلال المثاقفة الفكرية والحضارية بين ثقافة رواة ألف ليلة وليلة وبقية الثقافات الأخرى، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هؤلاء الرواة، كانوا على قدر كبير من العلم والمعرفة، إذا اطلعوا على ثقافات الشعوب وعاداتها وتاريخها وأدبها، وعادات مدنها. وإما أن تكون هذه المدن قد خرُبت وتهدّمت بفعل صيرورة

(١) سأثبت في نهاية الفصل الثاني جدولاً بأسماء جميع المدن الواقعية التي ذكرتها ألف ليلة ولية.

التاريخ نفسه، وحركات الاضطراب والفتن والثورات المعارضة والحروب، وبالتالي تأسست مدن جديدة بدلاً منها، وبأسماء جديدة، وإما أنها انتهت بزوال سلطتها السياسية وقوة ملكها، لأن «الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها (...)، [و] الدولة إذا اختلت وانتقضت فإن المصر الذي يكون كرسياً لسلطانها ينتقض عمرانه وربما ينتهي في انتقاضه إلى الخراب..»[1].

ومن هذه المدن التي ذكرتها حكايات ألف ليلة وليلة، والتي تبدو مجهولة، أو التي لم تعد محتفظة بأسمائها في خارطة التسميات الجغرافية المعاصرة: مدينة النحاس [2]، ومدينة اختيان الختن[3]، والطيران[4]، وجوهر تكني[5]، وواق الواق[6]، والمدن والجزر الكثيرة التي كان يصل إليها السندباد البحري كمدينة الملك المهرجان[7]، ومدينة القرود[8]، وإقليم الملوك[9]، وجزيرة السلاهطة[10]، وتلك التي لا تأخذ اسماً، وهي معظم الجزر التي وصل إليها في رحلاته السبع، ومدينة أخرى، يبدو أن الراوي لا يعرف اسماً لها، إذ يقول عنها:

---

(١) سأثبت في نهاية الفصل الثاني جدولاً بأسماء جميع المدن الواقعية التي ذكرتها ألف ليلة ولية.

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: مقدمة ابن خلدون «كتاب العبَر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، تحقيق وشرح د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة الطبعة الثالثة، محرم ١٤٠١ هـ، الجزء الثاني، ص٨٩٣.

(٢) مجهول المؤلف: ألف ليلة وليلة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ، د. ت، الجزء الرابع، ص٣٢.

(٣) ألف ليلة وليلة. ٤/ ٣٧٦.

(٤) م ن، ٢/ ٢٥٣.

(٥) م ن، ٣/ ٣٥٥

(٦) م ن، ٤/ ٢٩٩.

(٧) م ن، ٣/ ٤٠٤.

(٨) م ن، ٣/ ٤٤٣.

(٩) م ن، ٤/ ١٥.

(١٠) م ن، ٣/ ٤٢٢.

«والله لا أعرف للمدينة (...) اسماً ولا طريقاً»[1]. يُضاف إلى ذلك مجموعة كبيرة أخرى من المدن المتخيلة التي تتوزع على حكايات ألف ليلة وليلة، والتي شكلها الرواة من خلال قراءاتهم الكثيرة في الأساطير والخرافات والحكايات الشعبية، ويبدو أن جميع مدن ألف ليلة وليلة الواقعية والمتخيلة غير المعروفة، باختلاف تشكيلاتها الاجتماعية وتوجهاتها الدينية، هي مدن موشاة بالسحر والأسطورة والغرابة، وقلما نجد مدينة في ألف ليلة وليلة إلا ولها سحرتها الخاصون، ومنجموها الذين يستشعرون الخطر قبل قدومه، ونساؤها الخبيرات في جميع فنون المكايد والحيل والمكر، ورجالها السلطويون الذين أفنوا أعمارهم في مجالس الشراب والطرب، والتمتع بأجساد الجواري، والحروب الطاحنة، رغبة في تعزيز بطشهم وسلطاتهم، بعيداً عن أية قوانين أو شرائع إنسانية أو أخلاقية، من شأنها أن تحمي مواطنيهم البسطاء من شرورهم واستبدادهم.

إن قسماً من مدن ألف ليلة وليلة مدن واقعية معروفة عبر منها رجال التاريخ السلطويون فارضين رؤيتهم وقسوتهم، واستبدادهم المطلق بشعوبهم، والقسم الآخر مدن متخيلية شكلها عدة رواة متشعبو الثقافات، وينتمون إلى حضارات متعددة، متعاقبة، ومتجاورة زمنياً وتاريخياً.

وسأحاول في هذه الدراسة التركيز على أهم ملامح بعض البلدان والمدن الواقعية في ألف ليلة وليلة، وهي: خراسان وبغدادوالبصرة والقاهرة ودمشق، معتمداً بالدرجة الأولى ما تُقدمه نصوص ألف ليلة وليلة الحكائية من خطابات فكرية وإيديولوجية، وعلاقات متناقضة ومتداخلة ومعقدة ومنسجمة في آن، ومستفيداً أيضاً، إلى حد بعيد، من ملامح المدينة الإسلامية في العهدين: الأموي والعباسي، كما تشير إليها المصادر والأبيات التاريخية.

---

(١) م ن، ٤/١٣.

وتعدّ حكايات ألف ليلة وليلة من بين أكثر النصوص الأدبية الإسلامية والعربية تأثراً بالمجتمعات العربية والإسلامية، وبخاصة في عهد الدولتين الأموية والعباسية، بعلاقاتها السياسية والاجتماعية، فقد صوّرت هذه الحكايات عادات المجتمعات العربية الإسلامية وأنماط معيشتها، وعرّجت على تركيبتها الطبقية والسياسية، ووقفت طويلاً عند مظاهر الترف واللهو والفجور التي انغمس بها كبار رجال السلطة ونساؤهم وأبناوهم، وعرّجت على هموم الفقراء والمهمشين ومآسيهم في هذه المجتمعات، وأشارت بشكل جريء إلى فساد الرجال والنساء في هذه المجتمعات المنفتحة حضارياً ومعرفياً على ثقافات الحضارات الأخرى المجاورة.

إذا كانت القراءة الإيديولوجية للنصوص الأدبية، بما فيها الحكائية، تعتمد كثيراً مفاهيم وقناعات مسبقة يؤمن بها الباحث، وبالتالي تجعل من النص المقروء «خطاب أطروحة»، قبل أن يكون خطاباً جمالياً وإبداعياً، وتعمد إلى قسر هامة النص أمام هذه المفاهيم، بدلاً من أن تضيء مكوناته، فإن نصوص ألف ليلة وليلة هي نصوص لا تستطيع أن تتخلى عن إيديولوجيتها، لأننا أمام رواة مؤدلجين مع مدنهم وحكامهم أحياناً، وضد هذه المدن، وهؤلاء الحكام أحياناً أخرى، ومن هنا فإن قراءتي لهذه النصوص قد تحمل بعض معطيات المنهج الإيديولوجي. وإن بدت بعض هذه المعطيات على هذه القراءة، فإنها ليست مقصودة بذاتها، أو مدروسة بشكل مسبق، بل هي قد تظهر لأن لها قدرة على إضاءة كثير من جوانب ألف ليلة الهندية والفارسية والعربية وقد تظهر انطلاقاً من نصوص ألف ليلة وليلة، التي تحمل في فضاءاتها السردية مزيداً من المقولات، والأطروحات الإيديولوجية.

وقد قسمت بحثي هذا فصلين، يبتدئ كل فصل منها بمدخل، وقد جاءا علي الشكل الآتي:

الفصل الأول وعنوانه: خراسان ومدن العراق المركزية في ألف ليلة وليلة.

وقد تحدثت في هذا الفصل عن أهمّ ملامح المدن التي بدا لي أنها مدن مركزية، على المستوى الاجتماعي والسياسي والتجاري، ومن حيث عدد الحكايات التي حدثت فيها، ومن حيث كونها فضاءات مهمة وأليفة يعشقها الأبطال، وينمو فيها السرد محتضناً هؤلاء الأبطال من الملوك والخلفاء ورجال السلطة، والتجار والنساء، وهذه المدن والبلدان هي: خراسان وبغداد والبصرة وقد انطلقت من نصوص الحكايات نفسها. واعتمدت في الوقت نفسه كثيراً من المرجعيات المعرفية التي أرّخت لهذه المدن عبر مسيرتها الحضارية والتاريخية.

الفصل الثاني وعنوانه: القاهرة ودمشق ومدن ثانوية أخرى في ألف ليلة وليلة.

ودراستي لهذا الفصل لا تختلف كثيراً عن الفصل السابق، إذ اتبعت الخطوات التي اتبعتها في الفصل السابق، وقد عرضت لملامح القاهرة التي يسميها الرواة مدينة مصر، ولملامح دمشق في عهدها الأموي، وكما أرخت لها نصوص ألف ليلة وليلة. وهاتان المدينتان هما أهم مدن مصر وبلاد الشام في حكايات ألف ليلة وليلة. ويمكن اعتبارعما مدينتبن مركزيتين، إلاأنهما أقل مركزية من بغداد والبصرة، غير أن مدينة القاهرة تفوق مدينة دمشق، من حيث عدد الحكايات، ومن حيث ارتحال السرد وحركة الأبطال، على الرغم من أن دمشق كانت عاصمة للدولة العربية الإسلامية في العهد الأموي. وقد حاولت في هذا الفصل أن أشير إلى معظم الملامح السياسية الاجتماعية ،والتجارية، التي بدت على وجوه هذه المدن سواء أكانت جميلة أم قبيحة، وتأسيساً على وصف الرواة لهذه المدن.

وأخيراً آمل أن يكون هذا البحث قد شكل لبنة مساندة لمجموعة الأبحاث التي سبقته، وأضاف إليها بعض الآراء الجديدة، وأن يكون قادراً على إثارة مزيد

من القضايا التي طرحتها حكايات ألف ليلة وليلة، ومحرضاً على كتابة مزيد من الأبحاث عن هذا العمل الخالد، الذي يعدّ من أهم الأعمال التي أبدعها العقل الإنساني في تاريخ الحضارات الإنسانية، والذي هو بحاجة إلى مزيد من الأبحاث والدراسات الجادة، ولا سيما أن هناك قضايا وجوانب كثيرة فيه لم تتناولها هذه الدراسات بعد على الرغم من كثرتها. وآمل مستقبلاً أن أستطيع إنجاز المزيد منها.

والله ولي التوفق

بيروت في ١٨/٢/٢٠٠٠م

الفصل الأول

خراسان ومدن العراق المركزيّة
في ألف ليلة وليلة

- مدخل

١ - خراسان

آ - لمحة تاريخية عن خراسان

ب -خراسان وبعض مدنها في ألف ليلة وليلة

٢ - بغداد

آ - لمحة تاريخية عن بغداد

ب - بغداد في ألف ليلة وليلة

٣ - البصرة.

آ - لمحة تاريخية عن البصرة

ب - البصرة في ألف ليلة وليلة

مدخل

تشكل حكايات ألف ليلة وليلة من المدينة محوراً أساساً لوصفها وسردها، ومن خلال هذه الحكايات يقدم الرواة مدنهم تقديماً جمالياً ومثيراً، وبمزيد من الاحترام والإكبار لتخطيط هذه المدن، ومظاهرها الخارجية والزخرفية وبساتينها المنظمة وأسواقها التجارية ومعاملاتها، وقصورها الشامخة ولذة العيش فيها، وما يدور فيها من علاقات وتقاليد ودسائس ومؤامرات.

وتتعدد المدن والبلدان في ألف ليلة وليلة لتشمل معظم مدن العالم التي عرفها الرواة معرفة شخصية، عن طريق معايشتهم لها شكناً أو سفراً إليها، أو سماعاً عنها، أو قراءةً من خلال المصادر التاريخية التي تتحدث عن أوصافها وأعرافها وقيمها وتشكيلاتها الجغرافية، ببحارها وجزرها، وقلاعها، وأسوارها، سواء أكانت مدناً عربية إسلامية أم فارسية أم أوروبية، أم شرق آسيوية. فمن المدن والبلدان العربية يذكر الرواة صنعاء واليمن، والشام (دمشق)، وحلب، والقدس وعكا وغزة وعسقلان، والقاهرة ودمياط والإسكندرية وبلبيس، وبغداد والبصرة والكوفة والموصل، ويذكرون من مدن المغرب الأقصى فاس ومكناس وذلك في حكاية «**جودر ابن التاجر عمر وأخويه**». ويذكرون بعض البلدان الأوروبية التي يسميها الرواة «بلاد الإفرنجة» بمدنها وأقاليمها، ويذكرون منها فرنسا والنمسا. وعندما يذكر الرواة بلاد الإفرنجة، فإنهم يعممونها على كثير من المدن الأوروبية، من دون أن يذكروا اسماً لهذه المدن، وذلك في حكاية «**عمر النعمان وولديه**

شركان وضوء المكان». ومن مدن تركيا يذكرون «القسطنطينية»، ويصلون إلى إيطاليا ليذكروا مدينة «جنوى» و«البندقية»، في حكاية «**عمر النعمان وولديه**»، ويعرجون على بلاد السند والهند وعجائبها.

ومن البلدان الشرق آسيوية يذكرون الصين، وهناد[1]، وأحياناً تطلق الصين على كل المدن الصينية التي يذكرها الرواة من دون تحديد اسم أية مدينة. ومن الحكايات التي تذكر الصين حكاية «**الأحدب وملك الصين**»، وحكاية «**الملك قمر الزمان والملكة بدور**».

ومن البلدان المتاخمة للبلاد العربية الإسلامية، يذكر الرواة بلاد فارس «بلاد العجم»، ومن أهم الأقاليم الفارسية التي ترد في الحكايات إقليم «خراسان»، إذ يشير الراوي بهذا الإقليم إلى بلاد فارس كلها، وعندما يصل بقصصه إلى فضاءات فارسية بعيدة لا يعرف اسماً لها، فإنه يسميّها بالمدينة الخضراء[2]، والأرض البيضاء[3].

ونلاحظ أن الرواة عندما يذكرون المدن العربية الإسلامية، فإنهم يذكرونها مقرونة بأسماء خلفائها وحكامها، إذ تُذكر بغداد مقرونة باسم الخليفة هارون الرشيد: «وسافر بها إلى بغداد وكان ذلك في زمن هرون الرشيد»[4]، وتُذكر مقرونةً أيضاً باسم ولده المأمون[5]. وهناك إشاراتٌ طفيفة إلى محمد الأمين (ابن هرون الرشيد)، وذلك في «حكاية الحمال والبنات»: «ثم إن الخليفة أحضر ولده الأمين بين يديه»[6].

---

(١) سأثبت جدولاً يبين بالتفصيل مواضع هذه المدن في مجلدات ألف ليلة وليلة، وذلك في نهاية الفصل الثاني من هذه الدراسة.
(٢) ألف ليلة وليلة، ١/ ٤١٠.
(٣) م ن، ١/ ٤١١.
(٤) م ن، ١/ ٢١٧.
(٥) م ن، ٣/ ٧١.
(٦) م ن، ١/ ٨٨.

وتُذكر البصرة مقرونة باسم سلطانها محمد سليمان الزيني[١]. ويتزامن ورود الكوفة مقروناً باسم واليها الظالم -كما يرى أحد الرواة- الحجاج بن يوسف الثقفي[٢]، وذلك في حكاية «نعمة ونعم».

وتُذكر دمشق مقرونةً باسم الخلفاء الأمويين، كالخليفة عبد الملك بن مروان[٣]. وفي حكاية أخرى يذكر أحد الرواة أن ملك دمشق هو الملك عمر النعمان. يقول في حكاية «عمر النعمان وولديه»: «كان بمدينة دمشق، قبل خلافة عبد الملك بن مروان، ملك يقال له عمر النعمان وكان من الجبابرة الكبار»[٤].

ومن هنا يمكن القول إن راوي هذه الحكاية لا يعرف تماماً وبدقة تاريخ الخلافة الأموية، وأسماء الخلفاء الذين تعاقبوا على الدولة الأموية، فلا يوجد بين الخلفاء الأمويين خليفة يُدعى «عمر النعمان». وتذكر المصادر التاريخية أن الخليفة السابق لعبد الملك بن مروان هو والده مروان بن الحكم (ت ٦٥هـ/ ٦٨٥م)[٥]. ويبدو أن الراوي شكل هذه الشخصية من تخيلاته ليتخلص من الحرج الذي يصيبه، وهو يتحدث عن مفاسد هذا الملك وجبروته، وانهماكه في نكاح النساء[٦]، هو وولده شركان، وبالتالي عن المفاسد والملاهي التي رافقت حياة بعض خلفاء الدولة الأموية.

والغريب أن رواة ألف ليلة وليلة لا يحتفون بالجزيرة العربية، ولا بمدنها، على الرغم من مركزيتها الإسلامية، إلا أن أحد الرواة يذكر الحجاز[٧]، ومكة

---

(١) م ن، ١/ ١٨٣.
(٢) م ن، ١/ ٣٢٥.
(٣) م ن، ٣/ ٣٢٨.
(٤) م ن، ١/ ٢٤٢.
(٥) الذّهبي، شمس الدين أبو عبد الله: دول الإسلام، دون محقق، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، طبعة ١٩٨٥م، ص ٣٩.
(٦) ألف ليلة وليلة، ٢/ ٢٤٣.
(٧) م ن، ١/ ٢٤٢؛ ٤/ ١٤١، ٤٤٥.

وجدة[1]. وتبقى فضاءات الجزيرة العربية فضاءات غير مركزية وغير مهمة في ليالي ألف ليلة وليلة، إذ لا يتوقف السرد عندها طويلاً، ولا يسجل ملامح حياة شعوبها، وإن ذُكِرت فإنها تُذكر لمجرد كونها طريقاً يمرّ فيه الأبطال من دون توقف.

ولا نستطيع أن نعرف الأسباب الرئيسة لتجاهل مدن الجزيرة العربية، إلا أنه يمكن القول: إن رواة ألف ليلة وليلة يحتقرون البادية والبدو كثيراً، ويرون أن البدو هم مجرمون وأشرار ولصوص وخاطفون وقطّاع طرق[2]. وأنهم يشكلون الخطر الأكبر على حضارة المدينة العربية الإسلامية في أوج ازدهارها، وبالتالي فرنهم أهملوا ذكر مدن الجزيرة العربية، باعتبار أن القسم الأكبر من أراضي هذه الجزيرة تحكمه علاقات وقيم بدوية، وأراضيه صحراوية تفتقر إلى روح المكان الحضاري، وعلاقاته، ودوره في تشكيل أحداث الحكايات، وبالتالي تفتقر إلى العلاقات المدينية سلوكاً وقيماً وعاداتٍ وأعرافاً، لكن أحد الرواة يذكر فضاءً مهماً من فضاءات الجزيرة العربية، وهو فضاء الكعبة، باعتباره فضاءً مركزياً دينياً مقدساً يؤمّه الزوار من الدول الإسلامية كافة، وذلك في حكاية «**الحشاش مع حريم أحد الأكابر**»[3].

---

(١) م ن، ٤/ ٢٨١، ٧٩.

(٢) يقول أحد الرواة واصفاً بدوياً مجرماً: «فأخرج البدوي الجبار من حزامه سكيناً عريضة لو نزلت على رقبة جمل لقطعتها من الوريد إلى الوريد، وأخذها في يده اليمنى وتقدم إلى أخي المسكين وقطع بها شفتيه». [م ن، ١/ ١٨٠].

– ويصف راوٍ آخر أحد البدو بأنه قليل العقل وجلف يابس الرأس ومجنون. [م، ن ١/ ٢٩٤].

– وها هو أحدُ الرواة يدفع بدوياً ليصف نفسه: «اعلموا أني رجل بدوي أقف في الطريق لأخطف الصغار والبنات الأبكار وأبيعهم للتجار (...) وأغراني الشيطان (...) فاتفقت على جمع أوباش العرب من البدو، لأجل نهب الأموال وقطع الطريق على التجار». [م ن، ٢/ ١٢١].

– وها هو التاجر شمس الدين يُحذّر ولده علاد الدين من البدو قطّاع الطرق قائلاً: «ولكن يا ولدي أخاف عليك من غابة في طريقك تُسمّى غابة الأسد، وواد هناك يقال له وادي الكلاب، فإنهما تروح فيهما الأرواح بغير سماع. فقال له: لماذا يا والدي؟ فقال: من بدوي قاطع الطريق يقال له عجلان». [م ن، ٢/ ٣٥٥]. إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة التي تدين البدو.

(٣) م ن، ٢/ ٤٢١.

إن هذه المدن الآنف ذكرها، هي من أهم المدن المتشكلة جغرافياً على خارطة العالم المعروفة قديماً وحديثاً، والتي عايشها رواة ألف ليلة وليلة، أو سمعوا عنها، أو قرأوا عنها في المصادر التاريخية. ونظراً لأنّ هذه المدن كثيرة جداً ومعروفة، وقد احتلت مكانةً متميزة مرموقةً في عصور التاريخ ولا تزال، فإني سأكتفي بعرض وصفٍ لبلاد خراسان، وللمدن الآتية: **بغداد، البصرة، دمشق، القاهرة،** لأنها أهم المدن العربية الإسلامية التي ذكرتها الليالي، منطلقاً من نص الليالي نفسه، ومعتمداً أحياناً بعض الأدبيات التاريخية التي ذكرت هذه المدن وأرخت لها.

١ - خراسان

آ- لمحة تاريخية عن خراسان.

تشكل بلاد خراسان التي يذكرها رواة ألف ليلة وليلة مجموعة أقاليم شاسعة، تضمّ مدناً عديدة تقع «أول حدودها ممايلي العراق أزاذوار قصبة جوين وبيهق، وآخر حدودها ممايلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان»(١).

ودخلت خراسان تحت جناح الدولة الإسلامية بعد أن سار جيشان عربيان نحوها في وقت واحد، «ففي سنة ٢٩هـ/ ٦٤٩م سارت قوة من الكوفة بقيادة واليها سعد بن العاص متخذة طريق همذان والري قاصدة جرجان وخراسان كما خرجت في الوقت نفسه قوة من البصرة بقيادة أميرها عبد الله بن عامر (...) وعلى يد هذين القائدين تم الاستيلاء على نيسابور وسرخس وطوس وهراة ومرو (...) ولمّا ولي زياد بن أبي سفيان البصرة قسم خراسان إلى أربعة أرباع سمي كل منها باسم المدينة الرئيسة فيه وهي نيسابور وبلخ ومرو وهراة»(٢).

وتذكر المصادر القديمة أن أهل خراسان كانوا في إسلامهم أنقياء السريرة، بعيدين عن الفساد، فعندما أراد محمد بن علي بن عبد الله بن العباس توجيه دعاته إلى أمصار الدولة البعيدة، قال لهم: «عليكم بأهل خراسان فإن هناك العدد الكثير

---

(١) ياقوت، الحموي: معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة ١٩٧٩م/ ١٣٩٩هـ، الجزء الثاني، ص ٣٥٠.

(٢) زيادة، د. نقولا: مشرقيات في صلات التجارة والفكر، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت/ لندن، الطبعة الأولى أيلول/ سبتمبر، ١٩٩٨م، ص ١٩٣.

والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم يقدم عليهم فساد»[1].

ويصف أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة[2] (ت ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م) أهل خراسان بأنهم أنصار الدولة ويلح على ذكائهم. أما ابن الفقيه[3] (أحمد بن محمد ابن إسحق بن إبراهيم الهمذاني (ت ٣٤٠هـ/ ٩٥١م) فإنه يجعل خراسان حامية الحق ودين الله.

ولخراسان أهمية علمية ومعرفية كبيرة عبر التاريخ، فالخراسانيون هم فرسان العلم وساداته وأعيانه[4]. ويرى المقدسي[5] (محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء، ت ٣٨٠هـ/ ٩٤٦م) أن مدن خراسان: مرو ونيسابور وبلخ وبخارى وسمرقند، كانت عبر تاريخها منابر للثقافة والأخلاق.

وقد أسهم الخراسانيون إلى حد كبير في القضاء على الدولة الأموية، لأن الدعوة العباسية اتخذت من خراسان مسرحاً لها، وحضت الخراسانيين على الأمويين، واتهمت الأمويين بالخروج عن طريق الحق والعدل التي أوصى بها الإسلام، وأشارت إلى تفريق الأمويين بين المسلمين عرباً وموالي، وإلي إحسانهم للعرب وإساءتهم للموالي، وقالت بأن الأمويين اعتدو على أصحاب الحق الشرعي في الخلافة، وهذه الأمور لاقت قبولاً لدى الخراسانيين، فما كان منهم إلا أن أعدو العدة، ونظموا الجيوش، وقادو الحملات ضد الأمويين[6].

وشهدت خراسان، عبر تاريخها، ثراءً واسعاً ورفاهية في العيش، فهي بلاد

---

(١) ياقوت، الحموي: معجم البلدان، ٢/ ٣٥٢.

(٢) عن / ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام حتى نتصف القرن الحادي عشر -الأعمال والأيام، ترجمة إبراهيم خوري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة ١٩٩٥م، الجزء الرابع، القسم الأول والثاني، ص٩٦.

(٣) عن / م ن، ص ١٩٧.

(٤) ياقوت، الحموي: معجم البلدان، ٢/ ٢٥٣.

(٥) عن / ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام البشرية -الأعمال والأيام، الجزء الرابع، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث ص ٤٦٩.

(٦) زيادة، د. نقولا: مشرقيات في صلات التجارة والفكر، ص ١٤٨-١٤٩.

الحجارة الكريمة كالفيروز واللازورد، والسَبَج (الخرز الأسود)، والياقوت، والخزف الأبيض المصنوع من مادة سهلة المعالجة إلى حد جعلها تنافس الزجاج(١). وهي بلاد المعادن، كالملح والنحاوالحديد والذهب(٢).

وقد شكّلت خراسان في التاريخ محطّة تجارية مهمّة، كانت تعجّ بالمسافرين والقوافل، وأكثر مدن خراسان التي كانت تعجّ بهؤلاء، هي مدينة نيسابور في أقصى الشمال باعتبارها عقدة طرق خراسان الكبرى(٣).

وقد وعى الشعراء قديماً أهميّة خراسان، فها هو أحدهم يقول فيها:

والناس فارس والإقليم بابل والـ إسلام مكّة والدنيا خراسان(٤)

ويذكر رواة ألف ليلة وليلة- بالإضافة إلى بلاد خراسان- أهمّ مدينة من مدنها، وهي مدينة سمرقند. وسمرقند هي من مدن الإقليم الرابع من أقاليم بلاد خراسان الشاسعة(٥)، وهي تقع «في بلاد ماوراء النهر حسب التعابير التاريخية، وهي اليوم ثاني مدن جمهورية أوزبكستان (. . .) وكانت من المدن الإسلامية الهامّة في الجناح الشرقي لديار الإسلام. وكانت سمرقند عاصمة بلاد ما وراء النهر لمدة خمسة قرون منذ عهد السامانيين(٦) إلى عهد

---

(١) ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام البشرية -الأعمال والأيام، الجزء الرابع، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص ٤٦٩.

(٢) م ن، ص ٣٢٢.

(٣) ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام حتى منتصف القرن الحادي عشر، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص٣٤٥.

(٤) عن/ معجم البلدان، ٢/ ٣٥٣.

(٥) م ن، ٣/ ٢٤٧.

(٦) السامانيّون: سلالة حكمت ماوراء النهر وبخاري وسمرقند (٢٦١- ٣٩٠هـ/ ٨٧٤- ٩٩٩م). أسسها سامان خُداه وأصبح حفدته الأربعة عمالاً للمأمون العباسي على سمرقند وفرغانة وهراة وشاش. اشتهر بينهم نصر الثاني ونوح الأول. ازدهرت الحضارة في عهدهم فنبغ فيهم الفردوسي والرازي وابن سينا. قضى عليهم الغزنيّون.

===

التيموريين [1] . وقد أطلق عليها الرّحالة العرب اسم «الياقوتة» الراقدة على ضفاف نهر زارافشان . وهي المنافسة التاريخية لبخارى ، وهي العاصمة الرّائدة التي أعدّها تيمور لنك لتحتلّ الصدارة في عهده» [2] .

ويصفها ياقوت الحموي [3] (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨م) قائلاً : «إنّ سمرقند من بناء الاسكندر . واستدارة حائطها اثنا عشر فرسخاً . وفيها بساتين ومزارع وأرحاء . ولها اثنا عشر باباً ، من الباب إلى الباب فرسخ . وعلى أعلى السور آزاج [4] وأبرجة للحرب . والأبواب الاثنا عشر من حديد . وبين كل بابين منزل للنوّاب . » . ويذكر أنّها تُروى من ماء نهرٍ يجري في وسطها ، وعلى هذا النهر تقع البساتين الكثيرة «وليس من سكّة ولا دار إلا وبها ماءٌ جارٍ إلا القليل . وقلّما تخلو دار من بستان حتى إنّك اذا صعدت قهندزها[5] لاترى أبنية المدينة لاستتارها عنك بالبساتين والأشجار»[6] . وتضم هذه المدينة عدة مدن فرعية أخرى ، ومن أهمها : كرمانية ودبوسية وأشروسنة والشاش ونخشب وبناكث[7] .

===- العلايلي ، عبد الله ، وآخرون : المنجد في الأعلام ، دار المشرق ، بيروت ، الطبعة العاشرة ، ٥ نيسان ١٩٨٠م ، ص٣٤٦ .

(١) التيموريّون : هم بنو تيمورلنك ، وفي الخصوص أمراء أسرته الذين تولّوا الحكم في بلاد ايران وآسيا الوسطى في القرن الخامس عشر الميلادي . انقسمت دولتهم إلى فرعين رئيسين : ميرانشاه في الغرب وشاهرخ في الشرق (خراسان وماوراء النهر) .
- م ن ، ص٢٠٠ .

(٢) حلاق ، د. حسان : مدن وشعوب إسلامية ، دار الراتب الجامعية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، آذار/ مارس ، ١٩٩٢م ، الجزء الرابع ، ص٣٤٥ .

(٣) معجم البلدان ، ٣/ ٢٤٧ .

(٤) الآزاج : مفردها الأزج ، وهو البيت الذي يبني طولاً .
: - معلوف ، لويس : المنجد في اللغة ، مادة : ازج ، ص٩ .

(٥) القهندز : القلعة .

(٦) معجم البلدان ، ٣/ ٢٤٨ .

(٧) م ن ، ٣/ ٢٤٨ .

ويذكر المؤرخون هذه المدينة بالثناء عليها، ويبرزون الوجه الجمالي لطبيعتها وسكانها، فابن حوقل[1] (محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، ت٣٦٧هـ / ٩٧٧م)، أثنى على جنانها. «واعتبرها بستان متعة». وقال آخرون عنها: «ليس في الأرض مدينة أنزه ولا أطيب ولا أحسن (...) من سمرقند[2].

أما الاصطخري[3] (إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي، ت٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، فقد وصف أهلها قائلاً: «وأهلها يرجعون إلى جمال بارع ورزانة. وهم من الإفراط في إظهار المروة وتكلف القيام على أنفسهم ما يزيدون على سائر بلاد خراسان، حتى يجحف ذلك بأموالهم».

ويذكر ياقوت الحموي[4] أن أنس بن مالك (ت٩٣هـ/ ٧١٢م) ذكر مدينة بخراسان خلف نهر جيحون، تعرف بسمرقند، وسماها المحفوظة، تأسيساً على حديث لرسول الله (ص). وتبدو هذه المدينة، من خلال حديث رسول الله عنها جنة أرضية، مشكلة وفقاً لأحلام المسلمين، وتخيلاتهم الأسطورية. يقول أنس بن مالك ناقلاً ما قاله رسول الله (ص) عن مدينة سمرقند:

«أخبرني حبيبي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن مدينة بخراسان خلف النهر تدعى المحفوظة (...) وخلف المدينة روضة من رياض الجنة، وخارج المدينة ماء حلو عذب من شرب منه شرب من ماء الجنة ومن اغتسل فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وخارج المدينة على ثلاثة فراسخ ملائكة يطوفون يحرسون رساتيقها ويدعون الله بالذكر لهم، وخلف هؤلاء الملائكة وادٍ فيه حيات وحية

---

(١) عن / ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام دار الإسلام البشرية حتى نتصف القرن الحادي عشر، تتمة القسم الثاني والثالث، ص ٥٢٨.
(٢) معجم البلدان، ٣/ ٢٤٨.
(٣) عن / زيادة، د. نقولا: مشرقيات في صلات التجارة والفكر، ص ٢٠٤.
(٤) معجم البلدان، ٣/ ٢٤٩.

تخرج على صفة الآدميين تنادي يا رحمن الدنيا رحيم الآخرة ارحم هذه المدينة المحفوظة، ومن تعبد فيها ليلة تقبل الله منه عبادة سبعين سنة، ومن صام فيها يوماً فكأنما صام الدهر، ومن أطعم فيها مسكيناً لا يدخل منزله فقر أبداً، ومن مات في هذه المدينة فكأنما مات في السماء السابعة ويحشر يوم القيامة مع الملائكة في الجنة».

ب- خراسان وبعض مدنها في ألف ليلة وليلة.

تُبتدئ حكايات ألف ليلة وليلة من مدينة «سمرقند العجم»، وهي إحدى مدن بلاد خراسان الشاسعة. ويحكم هذه المدينة ملك من ملوك ساسان، وتصفه مقدمة الليالي بأنه فارس وبطل، وأنه «ملك البلاد وحكم بالعدل بين العباد، اسمه شهريار (...) وكان ملك سمرقند العجم»[1].

وفي هذه المدينة يكتشف شاه زمان الأخ الأصغرلشهريار، أن زوجة أخيه شهريار -لا يذكر الراوي اسماً لها- تقيم حفلاً عربيداً جنسياً، أبطاله مجموعة من عبيد قصر أخيه وجواريه، ويقوم هؤلاء العبيد والجواري مع سيدتهم زوجة شهريار، وعبدها مسعود، بممارسة فعل الجنس، وبشكل جماعي، يقول الراوي[2]: «فنظر [شاه زمان] وإذا باب القصر قد فتح وخرج منه عشرون جاريةً وعشرون عبداً، وامرأة أخيه تمشي بينهم، وهي في غاية الحسن والجمال حتى وصلوا إلى فسقية وخلعوا ثيابهم وجلسوا مع بعضهم بعضاً. وإذا بامرأة الملك تقول: يا مسعود، فجاءها عبد أسود فعانقها وعانقته وواقعها. وكذلك فعل باقي العبيد بالجواري، ولم يزالوا حتى ولى النهار». عندها ينقل شاه زمان ما شاهده إلى أخيه شهريار، فيوهم شهريار أهل بيته وعبيده وجواريه بأنه مسافر، ثم يختفي

---

(١) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٣.

(٢) م ن، ١/ ١٣-١٤.

متنكراً وراء نافذة مطلة على بستانه، مراقباً ما تفعله زوجته وعبيده وجواريه من انتهاكات جنسية لحرمة قصره، ويكتشف أن كل ما قاله أخوه شاه زمان صحيح، فيطير عقله[١]، ويقرر أن يسافر مبتعداً عن سمرقند، وبصحبته أخاه شاه زمان الذي كان هو الآخر مسافراً من قصره قاصداً أخاه شهريار، وعند «نصف الليل تذكر حاجة نسيها في قصره، فرجع ودخل قصره فوجد زوجته راقدةً في فراشه معانقةً عبداً أسود من العبيد، فاسودت الدنيا في وجهه، وسل سيفه وضرب الاثنين فقتلهما في الفراش»[٢].

ويقرر شهريار وشاه زمان أن يرتحلا عن مدينتهما سمرقند[٣]، لينظرا في أقاليم الأرض، ما إذا كان جرى لأحد من الناس مثلما جرى لهما، وبالمصادفة يعانيان فجور امرأة، كان قد خطفها عفريت، وسجنها في صندوق، وأقفله بسبعة أقفال، ومع ذلك فقد تمرّدت عليه، وضاجعت خمسمائة وسبعين رجلاً، انتقاماً منه، وأخذت خواتمهم، عندها تنكشف لهما الحقيقة واضحةً، على لسان الصبية المخطوفة، التي تؤكد أن المرأة إذا ما أرادت الخيانة، فرنه لا يردعها أي رادعٍ، مهما كان قوياً. تقول المرأة: «إن هذا العفريت قد اختطفني ليلة عرسي ثم إنه وضعني في علبة وجعل العلبة داخل الصندوق ورمى على الصندوق سبعة أقفال وجعلني في قاع البحر العجاج المتلاطم بالأمواج. ولم يعلم أن المرأة منا إذا أردات أمراً لم يغلبها شيء»[٤].

وعند ذلك يرجع شهريار إلى مدينته سمرقند -مع أخيه شاه زمان- محبطاً ويائساً، ومليئاً بالقناعة التي تؤكد أن النساء جميعهن ماكراتٌ لا وفاء لهن، فيقرر أن بقتل زوجته، ويتزوج كل يوم امرأة جميلة من نساء مدينته، ثم يقتلها في الليلة نفسها، حتى لا تستطيع خيانته مع أي رجل آخر: «ثم انصرفا من ساعتهما عنها

---

(١) م ن، ١/ ١٤.

(٢)م ن، ١/ ١٣.

(٣) م ن، ١/ ١٤

(٤) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٥.

[أي المرأة التي خطفها العفريت]، ورجعا إلى مدينة الملك شهريار ودخلا قصره، ثم إنه رمى عنق زوجته وكذلك أعناق الجواري والعبيد وصار الملك شهريار كلما يأخذ بنتاً بكراً يزيل بكارتها ويقتلها من ليلتها(١). وعند ذلك تهرب أبكار سمرقند من دموية شهريار، فتقرر شهرازد، ابنة وزيره - لا يذكر الراوي اسماً لهذا الوزير -أن تذهب إلى شهريار راضية الزواج به، وعندما يتزوجها تطلب أختها دينازاد منها أن تحكي حكايةً فتستأذن شهريار فيسمح لها بذلك(٢)، فتبدأ شهرزاد بقص حكاياتها، ثم تقطعها في ذروة حبكتها، عندما يدركها الصباح، وحتى يتمكن من متابعة حكاياتها، يضطر لأن يؤجل قتلها.

وبين الحكاية والحكاية، تبدو شهرازد راويةً متميزة تفوق نساء زمانها معرفة وأدباً وتاريخاً وقصاً سحرياً، لا يمكن مقاومة إغراءات جمالياته، وفضاءاته العامرة بكل ما هو مثير. وتنتهي الحكايات في المدينة نفسها (سمرقند) وقد عاد إلى شهريار وعيه وثقته بالمرأة التي يمكن أن تكون أماً فاضلةً، وزوجةً مخلصةً. وما بين الليلة الأولى والأخيرة، يشكل السرد لوحات جذابة واقعية وتخيلية، إذ تستحضر المدن الكثيرة التي سمع الرواة عنها، أو عايشوها، أو تخيلوها، أو قرأوا عنها في المصادر.

وسمرقند، أو خراسان، كما يسميها الرواة في ما بعد، انطلاقاً من تسمية الجزء بالكل الذي ينتمي إليه، وباعتبار أن سمرقند (الجزء)، أهم مدن هذا الكل «خراسان»، فإنها لن تغيب بعد الحكاية الأولى، بل ستبقى نامية مع نمو السرد، وإن كانت ستغيب في بعض الحكايات، فإنها ستستحضر. بشكل قصديٍ أو غير قصديٍ، في حكايات أخرى، لأن الراوية الرئيسية «شهرازد» تظل في حالة حنينٍ إلى مدينتها، وإن سافر أبطالها إلى دمشق أو بغداد أو القاهرة، فإنها تجعلهم يرون ثانية خراسان، أو يتذكرونها، أو يشيرون إليها بنوع من التبجيل والاحترام.

---

(١) م ن، ١/١٥.

(٢) م ن، ١/١٦.

إن خراسان تظل حلماً جميلاً يصبو إليه الرواة والأبطال، فهي أول خيط من خيوط السرد، وهي آخر هذه الخيوط، وهي تتموضع على مسار هذا السرد مختفية تارة، ومتداخلة مع مدن أخرى كثيرة، تارة أخرى. وفي اخر حكايات ألف ليلة وليلة، تنعم سمرقند وسكانها بملذات الحياة، بعد أن تكون شهرزاد قد روّضت الوحش المفترس في ذاكرة شهريار التاريخية المطعونة بخيانة نساء مدينته، وأعادت إليه ثقته بهاته النساء، من خلال حكاياتها الطويلة الموغلة بعيداً في أعماق الحضارات الإنسانية التي تعاقبت وتزامنت مع حضارة شهريار، وتحديداً حضارته الساسانية. وعندما يقررشهريار أن يعفو عن شهرزاد، يكون بذلك، قد أعتق سمرقند العجم، من سطوته الدموية، وأعطى لسكانها الأمان والطمأنينة. يقول الراوي (١): «وشاع السرور في سراية الملك حتى انتشر في المدينة. وكانت ليلة لا تعد من الأعمار ولونها أبيض من وجه النهار، وأصبح الملك مسروراً وبالخير مغموراً، فأرسل «إلى» جميع المعسكر فحضروا وخلع على وزيره أبي شهرزاد خلعة سنية جليلة وقال له: سترك الله حيث زوجتني ابنتك الكريمة التي كانت سبباً لتوبتي عن قتل بنات الناس».

ونظراً لأهمية خراسان الكبيرة في رؤية بعض رواة الليالي، المؤدلجين إسلامياً، الطامحين إلى اتساع رقعة الدولة الأموية، فإنه يجب أن تكون تابعة إلى ملك أموي مسلم، وهو الملك عمر النعمان (٢).

إن ليالي ألف ليلة وليلة تُظهر بعض ملوك خراسان في مظهر يتناسب مع صورة هذه البلاد التاريخية المسلمة كما وردت في المصادر، ففي حكاية **«التاجر حسن مع الملك محمد ابن سبائك»** يؤكد الراوي أن الملك الخراساني محمد بن

---

(١) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٤٤٧.

(٢) ألف ليلة وليلة، ١/ ٢٩٣.

سبائك كان يتحلّى بصفات العدل والشجاعة والكرم، وكان مؤمناً برسالة الإسلام، ومدافعاً عنها. يقول الراوي[1]: «كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، ملك من ملوك العجم اسمه محمد بن سبائك، وكان يحكم على بلاد خراسان، وكان في كل عام يغزو بلاد الكفار في الهند والسند والصين، والبلاد التي وراء النهر وغير ذلك من العجم وغيرها، وكان ملكاً عادلاً شجاعاً كريماً جواداً».

وخراسان في حكايات الليالي مركز تجاري مهم، والتجار فيها أثرياء جداً: «حُكي أنّه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، تاجر من التجار في بلاد خراسان اسمه مجد الدين، وله مال كثير وعبيد ومماليك وغلمان»[2].

إن بعض أبطال الحكايات لا يرضون بديلاً من خراسان، على الرغم مما تعطيه لهم المدن التي يصلون إليها، ففي حكاية «**علي شار وزمرد الجارية**»، وعندما يختطف برسوم النصراني زمرد الجارية، نجد أن الراوي يخلصها منه، ويوصلها إلى مدينة بعيدة، لا يذكر الراوي اسماً لها، إلا أنها «طيبة أمينة بالخير مكينة»[3]. وعندما يشاهدها فرسان المدينة يعينونها ملكاً عليهم، وفق عاداتهم التي تعين أول شخص قادم إلى مدينتهم ملكاً عليها، في حال وفاة ملكهم[4]. وتصبح زمرد ملكة على المدينة متوجة بالمجد والسلطة، لكن الراوي يصرّ على إرجاعها إلى خراسان بلاد زوجها علي شار، وفاءً من هذه المرأة لهذه البلاد الجميلة، ولزوجها القاطن في هذه البلاد. فكما تبدأ رحلة الليالي من سمرقند العجم (إحدى مدن خراسان)، وتنتهي بها، فإن رحلة علي شار الطويلة صوب بلدان العالم تبدأ من خراسان، وتنتهي هي الأخرى بخراسان، يقول الراوي: «ولم تزل مسافرة [أي زمرد زوجة علي شار] إلى أن وصلت إلى بلد علي شار، ودخل [علي شار] منزله وأعطى

---

(١) م ن، ٤/١٧٨.

(٢) ألف ليلة وليلة، ٣/٢٣. (حكاية علي شار وزمرد الجارية).

(٣) م ن، ٣/٤٢.

وتصدق ووهب، ورزِق منها الأولاد وعاشا في أحسن المسرات إلى أن أتاهما هادم اللذات ومفرق الجماعات»[1].

إن خراسان في بعض الحكايات محطة، يعبر بها أبطال القصة الرئيسيون صوب أهدافهم. وهم مضطرون بأن يمروا بهذه البلاد المركزية قبل أن يصلوا إلى أهدافهم، ففي حكاية «**بلوقيا وجانشاه**»، التي تضمنتها حكاية «**الحكيم دانيال وولده حاسب كريم وملكة الحيّات**». نجد أن الراوي يجبر الملك «جانشاه» على المرور أولاً بـ «خراسان»، قبل أن يصل إلى هدفه الأخير، وهو لقاء محبوبته في قلعة «جوهر تكني»: بلغني أيها الملك السعيد أن جانشاه ما زال مسافراً حتى وصل إلى بلاد خراسان»[2]، وكأن بلوغ الأهداف الكبيرة في حياة الشخوص الرئيسية لا يتحقق إلا بالمرور بالمركز بالبلاد المركز. على أن خراسان لن تظل فضاء مركزياً في الليالي جميعها، لأنها ستفسح المجال لمدن أخرى لأن تكون مركزاً، وبخاصة في الحكايات التي تتزامن مع الدولتين: الأموية والعباسية، وسنجد أن بغداد والقاهرة، وأحياناً دمشق، تصبح مدناً مركزية في حركة الوحدات السردية، وانتقال الشخوص، وتشكل الأحداث.

ونظراً لأهمية خراسان باعتبارها أولى حلقات السرد، وأول الفضاءات المكانية التي تتحرك فيها الشخوص، ونظراً لأهميتها العلمية والمعرفية عبر التاريخ، فقد رأى رواة ألف ليلة وليلة، أن الملوك مهما كانوا عظماء وأقوياء بجيوشهم الجرّارة، فإن هذه العظمة لا تكتمل إلا بالعلاقة مع خراسان المركزية. فالملك طيغموس في حكاية «**بلوقيا وجانشاه**»، هو ملك مليء بالعظمة والأبهة لأنه «كان يحكم على بلاد كابل وعلى بني شهلان، وهم عشرة آلاف بهلوان، كلّ بهلوان منهم يحكم على مائة مدينة ومائة قلعة بأسوارها، وكان يحكم على سبعة سلاطين ويُحمل له المال من المشرق إلى المغرب، وكان عادلاً في حكمه. وقد أعطاه اللّه

(١) م ن، ٣/ ٥٧.
(٢) م ن، ٣/ ٣٦٥.

تعالى كل هذا ومن عليه بذلك الملك العظيم»[١]، لكن عظمة هذا الملك في حياته ومماته، لن تكتمل إلا بولد ذكر «ليخلفه في ملكه بعد موته»[٢].

وهذا الولد لن يكون إلا بعد زواج الملك طيغموس من بنت ملك خراسان، كما يقرّر الراوي الذي يستدعي المنجمين ليؤكدوا أهمية خراسان، وأهمية نسائها. يقول الراوي: «فاتفق أنه طلب العلماء والمنجّمين والحكماء وأرباب المعرفة والتقويم يوماً من الأيام، وقال لهم: انظروا طالعي وهل يرزقني الله في عمري ولداً ذكراً فيخلفني في ملكي، ففتح المنجّمون الكتب وحسبوا طالعه وناظره من الكواكب، ثم قالوا له: اعلم أيها الملك أنك تُرزق ولداً ذكراً ولا يكون ذلك الولد إلا من بنت ملك خراسان»[٣].

إن الانتماء إلى خراسان والزواج بإحدى نسائها - وبخاصة ابنة ملكها- يعني بالنسبة للملك طيغموس، زيادة في السطوة، والمنفعة، لأنها تشكل مركزاً استراتيجياً وحضارياً مرموقاً في إيديولوجيا راوي الحكاية، وبالزواج بإحدى أميرات هذا المركز الحضاري المعرفي، فإن قيمة الشخصية ومكانتها تزداد بين قومها، والأقوام المجاورة لها.

ويشير الراوي في حكاية أخرى إلى أن نساء إحدى مدن أقاليم خراسان، وهي مدينة بخارى[٤] التي تقع في الإقليم الرابع من أقاليم [٥] خراسان، من أجمل

---

(١) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٣٢١.

(٢) م ن، ٣/ ٣٢١.

(٣) م ن، ٣/ ٣٢١.

(٤) تشغل بخارى واحة واسعة في ما وراء النهر. وهي مدينة إيرانية قديمة كان التجار الصينيون يسمونها «بو - هو». وقد كانت على طريق الحرير البري. وكانت بخارى مركزاً بوذياً كبيراً، وبعد الفتح العربي أصبحت واحداً من المراكز العلمية الكبرى في المشرق الإسلامي. ومن علمائها الكبار البخاري أحد كبار جامعي الحديث (صحيح البخاري) وكانت بخارى عاصمة السامانيين. وقد عمل السامانيون على تزيين المدينة بالأبنية الجميلة وعلى تنشيط التجارة. وكان بلاطهم يرعى أهل العلم والأدب.
- زيادة د. نقولا: مشرقيات في صلات التجارة والفكر، ص ٢٣٣-٢٣٤.

(٥) معجم البلدان، ١/ ٣٥٣.

النساء وأكثرهن خلقاً وديناً. يقول [1] «ويُحكى أنه كان بمدينة بخارى رجل سقاء يحمل الماء إلى دار صانع (...) وكان لذلك الصانع زوجة في غاية الحسن والجمال والبهاء والكمال، موصوفة بالديانة والحفظ والصيانة».

وفي بعض المواضع لا يشير الرواة إلى اسم خراسان تحديداً، بل تصبح خراسان عندهم هي بلاد العجم، ويبدو أن هذه التسمية مقبولة، إذا أخذنا بتحديدات ياقوت الحموي[2]، إذ يرى أن خراسان تشتمل «على أمهات من البلاد مثل نيسابور وهراة ومَرْو (...) وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس».

وإذا أخذنا بخارطة ياقوت الحموي[3] التي ترى أن أرض فارس كانت «قديماً قبل الإسلام ما بين نهر بلخ إلى منطقة أذربيجان وأرمينية الفارسبة إلى الفرات»، فإنه يمكن أن نقول إن نهر مدينة بلخ، المدينة التي تنتمي إلى بلاد خراسان، هو أحد حدود الدولة الفارسية، ومن هنا فلا عجب أن تمتد خراسان في الليالي، لتشمل فارس «بلاد العجم»، باعتبار فارس متاخمة لخراسان، هذا إذا أخذنا بمنطق رواة الليالي ورغبتهم في أن تتوسع البلدان والمدن التي يعجبون بها، ويتعاطفون مع أبطالها لتطوي مدناً أخرى تحت جناحها.

ولا يبدو رواة ألف ليلة وليلة عارفين تمام المعرفة بخارطة العالم الجغرافية، ومدنه ومواقعها الصحيحة، فهم قد قرأوا ما بين أيديهم من أخبار المدن وعلاقاتها، أو سمعوا ما نقله الرحالة من أخبار المدن وعجائبها، وشكلوا من هذه الأخبار سرد حكاياتهم، ووضعوا على خارطة السرد هذه المدن التي قرأوا أو سمعوا عنها، أو تخيلوها في ما بعد، ولا يعني أنهم كانوا عارفين تماماً بالمواقع الصحيحة المتوضعة على خارطة العالم الجغرافية، فـ«كلّما بَعُد الوطن عن النفوذ الإسلامي وجدنا عدم

---

(١) ألف ليلة وليلة، ٣/ ١٥٨.

(٢) معجم البلدان، ٢/ ٣٥٠.

(٣) م ن، ٤/ ٢٢٧.

التحديد والغموض والتعميم في ذكر البلدان والمدن. تصبح خيالاً وأسماء مخترعة. فكل أجزاء الهند ومدنها عند القاص الهند ليس غير والصين كذلك. فإذا بعدنا شرقاً كانت جزائر الخالدات وجزائر الكافور وجزيرة واق الواق وإذا بعدنا غرباً عن صعيد مصر فبلاد المغرب ثم مدينة النحاس ومدينة فاس ومكناس»(1).

وتبقى المدن الواقعية نفسها، التي عرفها رواة الليالي، مزيجاً من التخيل والواقع، إذ يضفي هؤلاء الرواة على ملوكها أبهة وعظمة أسطورية، وهذه العظمة هي في الأساس تؤكد عظمة المدينة أو البلاد وعراقتها، فلا يمكن مثلاً أن تكون بلاد العجم المتاخمة لبلاد خراسان العظيمة- والتي تبدو أنها امتداد لبلاد خراسان في مخيلة الراوي أو جزء منها- محكومة إلا بملك قوي، محاط بكل أنواع الهيبة والعظمة. يقول الراوي عن ملك العجم: «وكان يقال له الملك كرزدان ملك العجم، وقد ملك الأقاليم السبعة وكان في خدمته مائة سلطان يجلسون على كراسي من الذهب الأحمر، وعشرة آلاف بهلوان كل بهلوان تحت يده مائة نائب، ومائة جلاد وبأيديهم السيوف»(2).

وهنا لا يمكننا أن نضع تصوراً جغرافياً دقيقاً لهذه الأقاليم السبعة التي يحكمها الملك كرزدان، إلا إذا اعتبرنا أن هذا الملك هو ملك ملوك الدنيا، وأن هذه الأقاليم السبعة التي يحكمها هذا الملك هي الدنيا بأسرها. ولأن الراوي يريد أن يعظم ملك «العجم»، إلى درجة لا يصل إليها أي ملك آخر، فقد أضفى عليه هالة أسطورية، وأحاطه بالمنعة والقوة التي لا تقهر، وجعله حاكماً على الأقاليم السبعة، هي كل المدن المأهولة على سطح الأرض، فالأرض كما يراها ياقوت الحموي(3) «ثلاثة أرباعها مغمورة بالماء، والربع الباقي مكشوف، والمعمورة هي المسكون من

(1) القلماوي، د. سهير: ألف ليلة وليلة، دار المعارف، القاهرة. ، طبعة ١٩٦٦م، ص ٢٦٤.
(2) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٣٨٦.
(3) معجم البلدان، ١/ ٢٥.

هذا الربع المكشوف ثلثه وثلث عُشره، والباقي خراب وهذا المقدار من الربع المسكون مساحته ثلاثة وثلاثون ألف ألف ومئة وخمسون ألف ميل، وهذا العمران هو ما بين خط الاستواء إلى القطب الشمالي، وينقسم إلى سبعة أقاليم». ولا نستغرب أن تكون بلاد العجم في الليالي، هي نفسها سمرقند العجم، وأن الملك كرزدان، ملك العجم هو الصورة الندية الأخرى للملك شهريار ملك سمرقند العجم، وما الاختلافات في التسمية إلا محاولة من الرواة لتشكيل أحداث جديدة، تشمل مدناً وفضاءات متشعبة ونامية.

ونظراً لعظمة البلاد المركزية «خراسان» في ذاكرة الرواة، فقد نقلوها معهم إلى أبعد فضاءات المدن الأسطورية والتخيلية، وتخيلوا أن سكان أبعد مدينة وجدت في الأرض يعرفون خراسان، وقد سمعوا عن عظمة ملوكها وتعميرهم الأرض، وسيادتهم عليها. ويذكر الراوي أن الأمير موسى بن نصير، عندما وصل إلى مدينة النحاس الأسطورية، لجلب قماقمها السليمانية إلى الخليفة عبد الملك بن مروان في دمشق، قرأ على أحد الألواح المنصوبة قرب المدينة: «ألم تعلم أن الدنيا دار بوار؟ ما لأحد فيها قرار، وأنت ناظر إليها ومكبٌ عليها؟ أين الملوك الذين عمروا العراق وملكوا الآفاق؟ أين من عمّروا أصفهان وبلاد خراسان؟ »[1].

إن ما أعطى خراسان هذه الأهمية في نصوص الليالي، كونها البلاد التي تشتمل على مدينة الملك شهريار والملكة شهرزاد، وكونها مركزاً تنتقل منه الوحدات السردية إلى أصقاع العالم، ثم تعود إليه، فخيوط القصة تبتدئ من قصر شهريار، ثم تبتعد بعيداً، لتتشابك، ثم تُفكّ في قصر شهريار، وعبر المساحة السردية التي تُروى فيها الحكاية، نجد أن كثيراً من قسمات ملوك ألف ليلة وليلة وأمرائها وسلاطينها، ونزعاتهم صوب القتل، ونكاح النساء، متجسّدة في حياة شهريار، وسلوكه اليومي.

---

(١) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٣٩.

٢- بغداد

أ- لمحة تاريخية عن بغداد.

بغداد هي «أمُّ الدنيا وسيّدة البلاد»[١]، و«كانت فيما مضى قصبة العباسيين الزّاهرة وعاصمة العالم الإسلامي (...) ويخترقها نهر دجلة، وهي على خط عرض ٣٣° ١٩َ شمالاً وخط طول ٤٤° ٤٤ شرقي كرينوتش»[٢]. وعندما أراد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور[٣] بناءها لجأ إلى المنجّمين لكي يرشدوه إلى تعيين الوقت الملائم لبنائها[٤].

وتذكر المصادر التاريخيّة أنّ المنصور: «استشار دهقان بغداد، وكانت قرية(...) فقال: الذي أراه يا أمير المؤمنين أن تنزل في نفس بغداد، فإنّك تصير بين أربعة طساسيج[٥]: طسوجان في الجانب الغربي، وطسوجان في الجانب الشرقي،

---

(١) معجم البلدان، ١/٤٥٦.

(٢) شترك، م؛ M.Streek: «بغداد» في: «بغداد»، كتب دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، ص ١١.

(٣) أبو جعفر المنصور: (عبد الله بن محمد بن علي بن العباس، ٩٥-١٥٨هـ/ ٧١٤-٧٧٥م): ثاني خلفاء بني العبّاس وأول من عني بالعلوم من ملوك العرب. كان عارفاً بالفقه والأدب، مقدّماً في الفلسفة والفلك، محبّاً للعلماء. ولد في الحميمة من أرض الشراة (قرب معان) وولي الخلافة بعد وفاة أخيه السفّاح سنة ١٣٦هـ.

الزركلي خير الدين: الأعلى، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، شباط فبراير ١٩٩٧، الجزء الرابع، ص١١٧.

(٤) نادر، د. ألبير نصري: في شرح كتاب «أبو نصر الفارابي -كتاب الجمع بين رأيي الحكمين»، دار المشرق، بيروت، الطبعة الرابعة، د.ت، ص ٦٣.

(٥) طاساسيج: مفردها طَسُوج: ناحية.

فاللذان في الغربي قَطْرَبُّل وبادوريا، واللذان في الشرقي نهر بوق وكلواذى، فإنّ تأخّرت عمارة طَسُوج منها كان الآخر عامراً وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة ودجلة، تجيئك بالميرة(...) فأعجب المنصور هذا القول وشرع في البناء»[1].

هذا وقد شرع المنصور في بنائها سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٣م، ونزل إليها سنة ١٤٩هـ / ٧٦٦م[2]. وقد بُنيت هذه المدينة التاريخيّة المهمّة، لتكون عاصمةً رئيسةً للدولة العباسيّة، ومركزاً حضارياً سياسياً مهمّاً، وقد أخذت في تخطيطها المعماري: «شكل دائرة يتوسّطها قصر الخليفة والجامع، وتحيط به قصور القادة ورجال الدولة. وكان لها سور وأربعة أبواب وهي: باب خراسان، وباب الكوفة، وباب الشام، وباب البصرة»[3].

إنّ انفتاح بغداد على بلدان العالم التي حددها دهقان بغداد، كما ورد في معجم البلدان، جعل منها مدينةً حضاريّـةً قابلةً لأن تتفاعل مع حضارات المدن المحيطة بها، وبالتالي لأن تكون مركزاً علمياً ومعرفياً في تاريخ العواصم العربيّة الإسلاميّة في العهد العباسي. وقد خُططت بغداد«لتكون عاصمة عهد إسلامي جديد، ولذا كانت فيها مؤسسات للخلافة إضافة إلى مؤسسات خاصة بالمدينة (...) فبغداد العاصمة، كانت مقرّ المؤسسة السياسيّة الأولى، الخلافة، مع تأكيد جديد على دورها الإسلامي، وفيها كان الإمام -الخليفة، الحامي، وأحياناً الدّاعي إلى آراء دينية سياسيّة (المهدي والزندقة، المأمون والاعتزال، المتوكّل والسنّة)»[4].

وبالإضافة إلى كون بغداد مركزاً سياسياً مهمّاً في تاريخ الدولة العباسيّة، فقد رُوعي في بنائها أن تصدّ المغيرين، لأنّ أهل الكوفة كانوا يفسدون جند أبي جعفر

---

(١) معجم البلدان، ١/ ٤٥٨.

(٢) م.ن، ١/ ٤٥٧.

(٣) حلاّق، د. حسان: مدن وشعوب إسلامية، ١/ ١٦٦.

(٤) الدوري، د. عبد العزيز: «المؤسسات العامة في المدينة الإسلامية- نظرة تاريخية إلى بغداد»، مجلة الأبحاث، الجامعة الأميركية، بيروت، السنة السابعة والعشرون، ١٩٧٨م/ ١٩٧٩م، ص ١٢.

المنصور «فبلغه ذلك من فعلهم، فانتقل عنهم يرتاد موضعاً»[1]. ومن هنا تخطيطها يعتمد على تحصينها تحصيناً متيناً، بحيث يجعلها تصمد أمام هجمات المعتدين، وقد ساعد تخطيطها الدائري على ذلك، هذا التخطيط الذي:

«أوفى بالغرض الحربي بإعطاء رؤية متكاملة وواضحة للجند المدافعين عن أسوار المدينة عمّا لو كانت المدينة مستطيلة أو مربّعة، كما أنّ هذا التخطيط المستدير حقّق غرضاً اقتصادياً من ناحية التوفير في تكاليف البناء. فمحيط قطعة الأرض على شكل دائرة أقلّ من محيط المربّع المساوي لها في المساحة بمقدار ١١,٢٧٪. ولا شكّ أنّ التوفير في تكاليف الإنشاء أمر مرغوب فيه، ويدعم الموقف الحربي بصورة غير مباشرة، بالإضافة إلى أنّ الاقتصاد شرط من الشروط الأساسية التي يجب توافرها في العمارة بمعناها الصحيح»[2]

وقد كلّف هذا التخطيط المعماري لمدينة بغداد خزانة الدولة، في عهد المنصور، ثمانية عشر ألف ألف دينار، وفي رواية الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد ابن علي، ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٢م)، أنّ الخليفة المنصور أنفق على مدينته وجامعها وقصر الذهب فيها والأبواب والأسواق، حتى غاية انتهائه من بنائها أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثمانين ألف درهم[2].

إنّ بغداد أهمّ و«أشهر مدن الشرق، ومركز حضارة عالمية حتى سقوطها عام ١٢٥٨م، على يد هولاكو المغولي. [وهي] وقرطبة في الأندلس، كانتا مهد الحضارة الشرقية»[3]. ومع اتساع رقعة الدولة الإسلاميّة في العهد العبّاسي،

---

(١) معجم البلدان، ١/ ٤٥٧.

(٢) عثمان، د. عبد الستار: المدينة الإسلامية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، «سلسلة عالم المعرفة»، العدد ١٢٨، ذو الحجة ١٤٠٨هـ/ آب (أغسطس)، ١٩٨٨م، ص ١٤١.

(٣) معجم البلدان، ١/ ٤٥٩.

وانفتاحها المعرفي والحضاري على حضارات العالم الأخرى، وتعقُّد الهيكليّة التنظيمية والسياسيّة في الدولة العباسيّة، وحاجة الدولة إلى مؤسسات إدارية جديدة، ستتسع بغداد في عهد الخليفة هرون الرشيد (٧٨-٨٠٩م)، وعهد ولده المأمون (٨١٣-٨٣٣م)، لتصبح «تجمعاً كثيفاً يمتّد على حوالي تسعة أو عشرة كلم. وذلك يعني أنّها أصبحت أهمّ مدن الشرق وأكبر مدينة في العالم، وقيل إنّ بيزنطيّة تمنّت بعض عزّها والطرق البريّة والبحريّة تتلاقى فيها، مما جعلها صرة العالم، يصب فيها الغنى المادي والروحي من مختلف الأقطار. وقد ظلّت مركز العالم الإسلامي طول خمسة قرون»[١].

أخذت بغدادعبر تاريخها أسماءً عديدةً فهي «مدينة السلام»، أو «دار السلام»[٢]. ويبدو أنّها سميّت بدار السلام تيمناً بالنص القرآني الكريم، فدار السلام في النصّ القرآني تعني الجنة[٣]. وقد وردت «دار السلام» في الآية الكريمة: **﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾**[٤]. ووردت أيضاً في الآية: **﴿لهم دار السلام عند ربهم وهو وليّهم بما كانوا يعملون﴾**[٥]. وفيما بعد حدّد المسلمون جنان الأرض بأربعة مواضع وهي: الأبُلّة[٦] وغوطة دمشق ووادي بقران ببلاد فارس وبغداد[٧].

---

(١) الخازن، د. وليم: الحضارة العباسية، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٢م، ص ٤٠-٤١.

(٢) م ن، ص ٤٣. وأخذ الخازن عن/

Lombard, Maurice: L' eslam dans sa premiére grandeur (xle-xllles.) Flammarion, Paris 1971, pp.127-129.

(٣) الكاشاني، المولى محسن الفيض: تفسير الصافي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، الجزء الثاني، ص ٣٩٩.

(٤) سورة يونس، آية ٢٥.

(٥) سورة الأنعام، آية ١٢٧.

(٦) الأبلُهة: بلدة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة وكانت مدينة تابعة لكسرى وفيها مسالح وقائد من قبل كسرى.
- معجم البلدان، ١/ ٧٧.

(٧) شترك، م: «بغداد»، دائرة المعارف الإسلامية، ص ١٣.

ويروي ياقوت الحموي[1] عن موسى بن عبد الحميد النسائي، أنّه قال: «كنت جالساً عند عبد العزيز بن أبي رواد فأتاه رجل فقال له: من أين أنت؟ فقال له: من بغداد، فقال: لا تقل بغداد فإن بغ صنم وداد أعطى، ولكن قل مدينة السلام، فإن الله هو السلام والمدن كلها له». ويطلق ياقوت الحموي[2] على بغداد الأسماء الآتية: بغداد وبغدان، وبغذاذ، ومغذاذ، وبغداذ، ومغدان، ومدينة السلام، والزوراء.

وتنتسب بغداد في بعض التسميات، إلى منشئها أبي جعفر المنصور، فتسمى بـ«المنصورية»[3]. وقيل سميّت بالزوراء قديماً، لأنّ قبلتها غير مستقيمة، إذا يحتاج المصلي في مسجدها الجامع؛ إلى أن ينحرف إلى جهة اليسار قليلاً حتى يقابل الكعبة[4].

لقد اختار المنصور لبغداد موقعاً استراتيجياً مهماً، راعى فيه أن تكون محصنة ضد هجمات الأعداء، يساعدها في ذلك موقعها الطبيعي الجغرافي، حيث نهرا دجلة والفرات، يشكلان ما يماثل الخنادق الطبيعية التي تحمي المدينة، ويسهمان أيضاً في نقل الزاد والمؤونة والبضاعة التي تأتي إلى بغداد من ثغور المدن الأخرى، بالإضافة إلى توسطها مجموعة من المدن الكبيرة والمهمة التي شكلت حواضر الدولة الإسلامية. ويبين ابن طباطبا[5] أهمية موقع بغداد قائلاً:

«ونبهه [أي نبّه المنصور] بعض عقلاء النصارى على فضيلة مكانها فقال: يا أمير المؤمنين تكون على الصراة بين دجلة مع

---

(١) معجم البلدان، ١/ ٤٥٦.

(٢) م ن، ١/ ٤٥٦.

(٣) شترك، م: م س، ١٣.

(٤) ابن طباطبا، محمد بن علي: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دون محقق، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ١٦٣.

(٥) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص ١٦٢.

الفرات فإذا حاربك أحد كانت دجلة والفرات خنادق لمدينتك، ثم إنّ الميرة تأتيك في دجلة من ديار بكر تارة ومن البحر والهند والصين والبصرة، وفي الفرات من الرقة والشأم، وتجيئك الميرة أيضاً من خراسان وبلاد العجم في شطّ تامرّا. وأنت يا أمير المؤمنين بين أنهار لا يصل عدوك إليك إلاعلى جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر أو أخربت القنطرة لم يصل إليك عدوك. وأنت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد. وأنت قريب من البر والبحر والجبل».

ويبدو أنّ هذا الموقع الجغرافي المهم لمدينة بغداد، يحقق الشروط التي يجب أن تتوافر في بناء المدن، حتى لا يصبها الخراب لاحقاً، كما حددها ابن خلدون[1] في مقدمته إذ يجب أن تُبنى المدن في رأيه:

«إمّا على هضبة متوعرة من الجبل، وإمّا باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلاّ بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها. ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض، فإن الهواء إذا كان راكداً خبيثاً، أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو مناقع متعفّفة أو مروج خبيثة أسرع إليه العفن من مجاورتها(...) وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور. منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون عذبة ثرة، فإن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية (...) وممّا يراعى أيضاً المزارع؛ فإن الزروع هي الأقوات؛ فإذا

---

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، «مقدمة ابن خلدون» تحقيق د. علي عبد الراحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الطبعة الثالثة، شهر محرم ١٤٠١هـ، الجزء الثاني، ص ٨٥١-٨٥٢-٨٥٣.

كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتّخاذه وأقرب في تحصيله».

ويبدو أن موقع بغداد كان يحقق جميع هذه الشروط التي وضعها ابن خلدون، فهي قريبة من مناهل الماء، وهواؤها نقيّ، وتربتها صالحة لإنبات الزروع[1]، ومن هنا فقد امتلأت بغداد بالبساتين في العهد العباسي، كما تصورها ألف ليلة وليلة.

لقد غدت بغداد من أهم الحواضر الإسلامية، بل والعالمية في العصر العباسي، وتبوّأت مكانة الصدارة في العلم والثقافة والنشاط التجاري والاجتماعي في العالم[2]. وزادت غنىً وثراءً في عهد الخليفة هارون الرشيد، وبلغ العمران المديني فيها، أوج ازدهاره، وازدحمت شوارعها وأزقّتها بالناس، حتى قيل إنهم بلغوا ما يزيد على مليون نسمة[3].

ب - بغداد في ألف ليلة وليلة.

تُعدّ مدينة بغداد درّة مدن ألف ليلة وليلة، فهي أهم فضاء مكاني مركزي في هذه المدن، إذ يوليها الرّواة أهمية خاصة، ويتوقف السرد في فضاءاتها وأزقتها وقصورها طويلاً، ليعرّج على بنيات المكان والزمان، وتحديداً إبّان الخلافة العباسية (١٣٢هـ/ ٧٥٠م -٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، وحياة خلفائها، إذ تحتفي الحكايات بالخليفة هارون الرشيد، وزوجته زبيدة، وولديه الأمين والمأمون، وقاضيه أبي يوسف ووزيره جعفر البرمكي، وأخته دنيا البرمكيّة، وندمائه ومسامريه كأبي نواس، والخليع الدمشقي.

---

(١) لمزيد من الاطلاع، ينظر: معجم البلدان، ١/ ٤٦٠-٤٦١.

(٢) الموسوي، مصطفى عباس: العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، وزارة الثقافة والإعلام/ دار الرشيد، بغداد، الطبعة الأولى ١٩٨٢م، ص ١٣٩.

(٣) م ن، ص ١٣٩.

لقد كانت بغداد في التاريخ مركزاً للعالم الإسلامي، وقد احتضنت العلماء والمتكلّمين والفقهاء العرب والمسلمين من غير العرب، وانفتحت على حضارات العالم الآخر، وبخاصة الحضارة الفارسية لتحتضن كثيراً من علمائها ومعارفها، وكانت «مدينة زاخرة بكلّ العلوم والفنون (...) وما لبثت أن ازدّهرت واحتوت على كل أسباب الترف والنعيم. وبعد مدة قصيرة من بنائها، كانت عروس الأقطار الإسلامية والأوروبية، فلم تكن على وجه الأرض أزهر منها»[1]. ولأنها كانت كل ذلك فقد شكّل فضاؤها -بعلاقاته وعاداته وثقافاته وأخبار نسائه ورجاله- حقلاً مرجعياً مهماً، استمدّت الحكايات منه كثيراً من أبنيتها الفكرية والمعرفية، وحوادثها التاريخية. ففي بغداد ألف ليلة وليلة، بالإضافة إلى أخبار الخليفة هرون الرشيد وحاشيته، أخبار العشق والغزل، والشخوص التي تسجل ذكرياتها مع النساء والجواري، بجرأة معرفية في قضايا الجسد والجنس، يحسدها عليها أكبر الروائيين والقاصين المعاصرين، الذين عُرِفوا بجرأتهم في الحديث عن خبايا الجسد. ومن حكايات العشق والجنس التي جسّدتها الليالي: «**حكاية الحمّال والبنات**»[2]، وحكاية «**التاجر غانم بن أيوب وقوت القلوب جارية الخليفة هرون الرشيد**»[3]، وحكاية «**علي بن بكار وشمس النهار**»[4]، وحكاية «**علاء الدين أبي الشامات**»[5]، وحكاية «**هرون الرشيد مع محمد بن علي الجوهري**»[6]، وحكاية «**هرون الرشيد مع جعفر والجارية والإمام أبي يوسف**»[7]، وحكاية «**الجواري المختلفة**

(١) أمين، د. أحمد: هرون الرشيد، دار الهلال، القاهرة، سلسلة كتاب الهلال، العدد الثالث، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م، ص ٦٣-٦٤.
(٢) ألف ليلة وليلة ١/ ٤٦.
(٣) م ن، ١/ ٢١٧.
(٤) م ن، ٢/ ١٨٣.
(٥) م ن، ٢/ ٣٤٧.
(٦) ألف ليلة وليلة، ٢/ ٤٢٥.
(٧) م ن، ٢/ ٤٤٥.

الألوان»[١]، وغيرها من الحكايات الأخرى التي تأخذ مساحات جدّ واسعة من فضاء السرد وامتداداته من بغداد وإليها، كحكاية «**علي الزيبق مع دليلة المحتالة**»[٢]، وحكاية «**حسن الصائغ البصري**»[٣].

ومن خلال تعاطف أحد الرّواة مع مدينة بغداد، ومحبته لها، فإنه ينسى المدينة التي تكون فضاءً لحكايته في بداية سردها، ثم ينتقل إلى بغداد. ففي حكاية «**الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان**»، نجد أن الراوي ينقل الملك عمر النعمان من دمشق إلى بغداد من دون مسوّغ يذكر، وانتقال هذا الملك لا يخدم معمار الحكاية وبناءها، ولا منطق الحكي، أو الوحدات السردية في تشكيلها للأحداث، بل هو انتقال إيديولوجي، يعبر عن رغبة الراوي في أن تكون بغداد هي المدينة المركز والأهم من دمشق، وبالتالي يعبر عن وعي الراوي المؤدلج ضد الدولة الأموية، وفي أن تصبح بغداد هي العاصمة المركزية بدلاً من دمشق الأموية التي لا يتعاطف معها هذا الراوي. فبغدادفي ألف ليلة وليلة «موطن الخلفاء والسلطان والسياسة قد احتلت هذا المركز [الأهم] في الأذهان، وأصبحت كل مدينة لا تجد من نفسها قوة التأثير التي تتمتع بها بغداد»[٤].

لقد كانت دمشق مقراً لإقامة الملك عمر النعمان وحاشيته، باعتباره ملكاً أموياً، وعندما يرتحل السرد بأولاد عمر النعمان صوب العالم، فإنهم لا يعودون إلى دمشق، بل إلى بغداد، بعد أن يكون الراوي نقل أباهم إليها، وكأن دمشق الأموية، التي بدأ نجمها يأفل، أو التي يتمنى الراوي أن يسرع في الأفول، لا تليق بملك عظيم أن استطاع أن يقهر «الأكاسرة والقياصرة»[٥]، بل

(١) م ن، ٣/ ٧١.
(٢) م ن، ٤/ ١١١.
(٣) م ن، ٤/ ٢٤٥.
(٤) القلماوي، د. سهير: ألف ليلة وليلة، ص ٢٦٣.
(٥) ألف ليلة وليلة، ١/ ٢٩٢.

لا تليق به إلا بغداد العباسية العريقة. أو لا يليق بزمان انتصاره على الملوك إلا الزمن العباسي[1].

يقول الراوي[2]: «ثم إنه أرسل [شركان بن عمر النعمان] جماعة من أصحابه إلى بغداد ليعلم والده عمر النعمان بقدومه»، مع العلم أن حركة الوحدات السردية لم تنقل سابقاً عمر النعمان من دمشق إلى بغداد، ولا يشير نمو الأحداث وحبكتها إلى ضرورة هذا الانتقال لا من قريب ولا من بعيد. وبدلاً من أن يعود الوزير دندان إلى دمشق، حيث مقر الملك ضوء المكان بن الملك عمر النعمان، فإن الراوي ينقله إلى بغداد: «ثم سار حتى أشرف على بغداد»[3]. وبعد أن كان هذا الراوي قد جعل عمر النعمان صاحب دمشق، فإنه أسرع وجعله صاحب بغداد وخراسان[4]. ويبدو أن «مما يزيد تشويق الحكاية ويضاعف مصداقيتها أن تقع أحداثها في مدينة كبيرة كبغداد، حتى وإن كان الراوي من خارج بغداد وعليه أن يأتي إليها. إن وقوع الأحداث في بغداد يجعلها أقرب إلى (...) وجدان المتلقي سواء كان ذلك الخليفة أو المتلقي العام الذي لبغداد حضور خاص في مخياله»[5].

---

(١) الزمن الذي انتشر في العرب في الشرق والغرب فاتحين، الزمن الذي تحولّت فيه لغة العرب إلى لغة عالمية في الدين والسياسة والعلم والحضارة، والذي وصلت فيه الحضارة العربية الإسلامية إلى قمة أمجادها في السلم والحرب والفكر والفن، وقدمت للعالم رؤياها الخاصة في كل جوانب الحياة، وتوطدت سلطتها ما بين قلب أسيا في التبيت حتى أمواج المحيط الأطلسي، وورثت مهام الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية معاً.

- نبيل، مصطفى: «بغداد العباسية-رحلة في المكان والزمان»، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت العدد ٢٤١، ديسمبر/ كانون الأول، ١٩٧٨، ص ٧٩.

(٢) ألف ليلة وليلة، ١/ ٢٧٠.

(٣) م ن، ٢/ ٨١.

(٤) م ن، ١/ ٢٩٣.

(٥) باقادر، د. أبو بكر: «العالم نصّ، النصّ عالم: حكاية جراب الكردي نموذجاً»، علامات في النقد «كتاب دوري»، نادي جدة الأدبي، جدة، المجلد السادس، الجزء الرابع والعشرون، صفر ١٤١٨هـ/ يونيه ١٩٩٧م، ص ٨٩.

إن بغداد في ألف ليلة وليلة جنّة جميلة من جنان الدنيا، ببساتينها، وحدائقها الجميلة: «قال الريّس هذه بغداد (...) وقد ولّى عنها الشتاء ببرده وأقبل عليها فصل الربيع بورده وازدهرت أشجارهاوجرت أنهارها»[1]. وبغداد لا تضاهيها مدينة في سائر البلدان، ففيها لذّة العيش ورفاهيته، وفيها الناس الطيبون. يقول حسن البصري لمحبوبته منار السنا: «وأسافر إلى بلدي وأكون أنا وأنت في مدينة بغداد، واشترى لك الجواري والعبيد ولي والدة من أطيب الناس تكون في خدمتك وليس هناك بلاد أحسن من بلادنا. وكل ما فيها أحسن مما في غيرها من سائر البلاد، وأهلها ناس طيبون»[2]. ومن يأت إلى بغداد فإنه سيجد مسكناً طيباً، ولن يفكر بالرجوع إلى بلاده، فاليماني في حكايته مع جواريه الست، يرتحل من اليمن إلى بغداد، ويستقر فيها، حيث يطيب له مسكنها[3]. فهواء بغداد في الليالي معتدل، ونسيمها رائق ورائحته ذكية، وبساتينها عظيمة مليئة بالطيور الجميلة «من قماري وهزار وشحارير وبلبل وفاخت وكروان»[4]. وهي مدينة النّعم والخيرات، ورجالها من أهل النعم والأموال الكثيرة[5].

إن فضاء بغداد في الليالي فضاء أليف محبب للنفس، وقادر على إزالة الهموم، وتبديد الأرق والقلق، فلقد كان الخليفة هارون الرشيد يبدد وحشته وقلقه، بالخروج من فضاء قصره، إلى شوارع بغداد الأليفة، وحُكي أن الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة من الليالي (...) وقال: إن صدري ضيق ومرادي في هذه الليلة أن أتفرّج في شوارع بغداد وأنظر في مصالح العباد»[6].

---

(١) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٩٩.
(٢) م ن، ٢/ ٢٨٢.
(٣) م ن، ١/ ٧١.
(٤) م ن، ٣/ ٣٩٦.
(٥) م ن، ٤/ ٤٣٥.
(٦) ألف ليلة وليلة، ٢/ ٤٢٥.

لقد كانت بغداد في الليالي مدينة جميلة آسرة، تشرح الصدر، وكان الغريب القادم إليها يجد ملاذاً لغربته، وسكناً لروحه. يقول علي الزيبق المصري لنفسه عندما يفترسه وحش الغربة، ويضيق صدره: «قم شقّ بغداد ينشرح صدرك»[1]. وسينشرح في ما بعد صدر علي الزيبق المصري، لأن بغداد ستعطيه كل شيء: المال والجاه والاقتراب من الخليفة هرون الرشيد، وأربع نساء من أجمل نساء بغداد: زينب النصّابة بنت دليلة المحتالة، وقمر بنت عزرا اليهودي وبنت السقطي وجاريتها الجميلة[2]. وستهبه قصراً جميلاً، وقاعة بأربعة لواوين[3] وأربعين مخدعاً لصبيانه الشطّار، كلّفت الدولة عشرة آلاف دينار[4].

إن صورة بغداد في ألف ليلة وليلة هي الصورة التاريخية التي تحدثت عنها الأدبيات التاريخية الكلاسيكية، وعندما نقرأ بغداد في الليالي، فإننا نقرؤها في هذه الأدبيات بملامحها وعلاقاتها وأخبارها نفسها. وإن كانت الليالي قد أعطتها عظمة سحرية تخيّلية فاقت حد الواقع، فإن هذه العظمة تستقي كثيراً من ملامحها، من الواقع الحقيقي لمدينة بغداد، فهواء بغداد في المصادر التاريخية أفضل من كل هواء وماؤها أعذب من كل ماء، ونسيمها أرق من كل نسيم لأنها في الإقليم الاعتدالي بمنزلة المركز من الدائرة[5].

(١) م ن، ٤/ ١٧٤.
(٢) م ن، ١/ ١٧٧.
(٣) اللّيون: الإيوان، وهو المكان المتسع من البيت يحيط به ثلاثة حيطان (فارسيه).
- المنجد في اللغة، مادة: لين. ص ٧٤٣.
(٤) ألف ليلة وليلة، ٤/ ١٧٧.
(٥) معجم البلدان، ١/ ٤٦١. وهذا وقد مدح بعض الشعراء طبيعة بغداد الجميلة، وصفاء الحياة. فيها فعلى سبيل المثال يقول الشاعر طاهر بن المظفّر بن طاهر الخازن مادحاً بغداد:

هي البلدة الحسناء، خُصّت لأهلها	بأشياء لم يُجمعن مذ كنّ في مصر
هواء رقيق في اعتدال وصحّة،	وماء له طعم ألذّ من الخمر
ودجلتها شطّان قد نُظما لنا	بتاج إلى تاج، وقصر إلى قصر
ثراها كمسك، والمياه كفضّة،	وحصباؤها مثل اليواقيت والدرّ.

- عن / معجم البلدان، ١/ ٤٦٣.

إن أهمية بغداد واتساعها وانفتاحها على حضارات العالم، في تاريخ الخلافة العباسية، وتوظيفها في حكايات ألف ليلة وليلة بهذا البعد المعرفي المستفيد من هذه الحضارات، يجعل من الحكايات حقلاً مرجعياً ومعرفياً لمعالم هذه الحضارات. ولأن فضاء بغداد أهم فضاء مكاني بالنسبة لكثير من الرواة، فإنهم يأتون إلى هذا الفضاء ليشكلوا الحكايات، ومعالم حضارات المدن الأخرى فيها، وليسردوها في قصور هذا الفضاء ومنازله. وكثيرة هي الحكايات التي يرتحل فيها السرد إلى مدينة بغداد، فأبو الحسن الخليع الدمشقي، يسرد ما شاهده من عشق نساء زمانه لرجال هذا الزمان، أمام هرون الرشيد(١). وعلي بن بكّار يرتحل من خراسان إلى بغداد ليقيم علاقة غرامية مع جارية هرون الرشيد شمس النهار(٢). والأمراء الصعاليك الثلاثة يرتحلون إلى بغداد، ليسردوا قصص تشردهم أمام الخليفة الرشيد، وفي دار البنات الثلاث ببغداد(٣).

وتمثل حكايات السندباد البحري أهم الارتحالات السردية، من المدن البعيدة إلى بغداد. ومن الملاحظ أن معظم الحكايات البغدادية، أو الحكايات المرتحلة إلى بغداد لا تسرد أحداثها الواقعية أو الأسطورية الشيّقة، إلا بحضور السلطة السياسية، التي يمثلها الخليفة هرون الرشيد وولده المأمون. وعموماً يتزامن سرد الحكايات أمام الرشيد مع وجود الوزير جعفر البرمكي، ومسرور السيّاف، وأحياناً النديم أبي نواس، ومن هذه الحكايات: حكاية **«محمد علي بن علي الجوهري مع الخليفة هرون الرشيد»**(٤). وحكاية **«هرون الرشيد مع الصياد»**(٥)، وحكاية

(١) ألف ليلة وليلة، ٢/ ١٦٢.
(٢) م ن، ٢/١٨٣.
(٣) م ن، ١/٥٥، ٦٠، ٧٢.
(٤) م ن، ٤/٤٢٥.
(٥) م ن، ١/٨٨.

«علاء الدين أبي الشامات»[1]، وحكاية **«بدور بنت محمد علي بن علي الجوهري مع جبير بن عمير الشيباني»**[2].

إن بغداد كما تصورها الليالي مدينة مفتوحة أمام كل الناس، أكانوا عرباً أم عجماً أم من جنسيات أخرى. يسافر الناس منها وإليها، يأتيها بهرام المجوسي كما في حكاية **«حسن الصائغ البصري»**، ويأتيها علي بن بكّار، وعلاء الدين أبو الشامات، ويسافر منها السندباد، وتأتيها الجواري من اليمن، ومن أصقاع الأرض، وهي قبلة الناس من المدن الأخرى[3]. ففي بغداد العباسية امتزجت الأجناس البشرية التي أتت إليها من الأمم المختلفة، وذلك «على أثر الفتوح الأموية، فكان منها العنصر البربري الوارد من بلاد المغرب، والعنصر الفارسي الوارد من بلاد فارس، والعنصر العربي الوافد من جزيرة العرب، واليمنيون الآتون من اليمن، والنبطيون والروم الذين كانت تسوقهم الحرب بين المسلمين والبيزنطيين وغيرهم من العناصر والأجناس الأخرى»[4].

وبغداد من أهم المراكز التجارية المنتشرة في مدن ألف ليلة وليلة المترامية الأطراف، فهي قبلة للتجار من المدن الأخرى، نظراً لازدهار الحركة التجارية، وسهولة التعامل في البيع والشراء، فالناس في بغداد يعيشون وضعاً اقتصادياً متميزاً ومزدهراً. وتجار بغداد يتضامنون مع أبناء تجار المدن الإسلامية المنكوبين، الذين يأتون بغداد، ويثقون بهم، ففي حكاية **«علي المصري وزواجه ببنت ملك بغداد»**،

---

(١) م ن، ٢/ ٢٤٧.

(٢) م ن، ٣/ ٥٨.

(٣) مع ملاحظة أن بعض أبطال الليالي يستبدلون مدنهم الأصلية بمدينة بغداد المركزية، ويستقرون ويموتون فيها، فعلاء الدين أبو الشامات -وعلى الرغم من ثرائه في مصر، باعتبار والده شاه بندر التجار- يترك مصر، ويرتحل إلى بغداد ويموت فيها، وحسن الصائغ البصري يترك البصرة ليعيش في بغداد ويموت فيها، وعلي الزيبق المصري يغادر مصر ويرتحل إلى بغداد ليظل فيها إلى آخر حياته.

(٤) أمين، د. أحمد: هارون الرشيد، ص ٧٢.

ينتقل علي المصري من مصر، بعد أن صرف كل أموال والده، وعندما يصل إلى بغداد يدعي أمام تجارها، أن لصوصاً هجموا عليه، عندما سبق قافلته. يقول علي المصري[1]: «أنا رجل من مدينة مصر ومعي تجارة وبغال وأحمال وعبيد وغلمان فسبقتهم لكي أنظر لي محلاً أحط فيه تجارتي، فلما سبقتهم وأنا راكب على بغلتي قابلني جماعة من قطاع الطرق». وعندما يستمع بوابو بغداد إلى قصته، يسارعون إلى إكرامه قائلين: «مرحباً بك فبت عندنا إلى الصباح، ثم ننظر لك محلاً يليق بك».

ومن بغداد تذهب القوافل التجارية ميممة صوب مدن بعيدة من العالم لتشتري وتبيع، ويسميها الراوي بمدن اليهود [2]. وفي بغداد تربو أموال التجارة، وتتضاعف أرباحها، ولذا فهي محطّ أنظار التجار. يقول أحد أولاد التجار، في حكاية «**علاء الدين أبي الشامات**»: «ثم أخذت متجراً من الشام وسافرت إلى بغداد وبعته فربحت المثل مثلين، ولم أل أتجر حتى صار رأس مالي نحو عشرة آلاف دينار»[3]. وها هو علاء الدين أبو الشامات بالرغم من ثراء والده الفاحش، يطلب من والدته أن تتوسط له عند أبيه ليسمح له بالسفر إلى بغداد، حيث الأرباح، والثراء: «فقالت له: إلى أي البلاد تسافر؟ فقال لها: إلى مدينة بغداد، فإن الإنسان يكسب فيها المثل مثلين»[4]. ومن لا يذهب تاجراً إلى بغداد، فإنه لا يصبح رجلاً، ولا خبيراً في كسب الدراهم، وليس فخر التجار إلا بالسفر لأجل أن يكسبوا الدراهم[5]. ويقرر ذلك علاء أبو الشامات، ويصمم على السفر إلى بغداد: «لابد

---

(١) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٢١٣.

(٢) م ن، ٣/ ٣٥٥.

(٣) م ن، ٢/ ٣٥٤.

(٤) م ن، ٢/ ٣٥٥.

(٥) م ن، ٢/ ٣٤٥.

لي من السفر إلى بغداد. بمتجر وإلا خلعت ثيابي ولبست ثياب الدراويش وطلعت سائحاً في البلاد»(١).

لقد كانت بغداد مركزاً حضارياً فاعلاً في تنشيط حركة التجارة وازدهارها في الدولة العباسية، إذا أصبحت في هذه الدولة: «المركز الرئيس للصناعة والتجارة المحلية والدولية. وأُنشئت [في هذه الدولة] شبكة من الطرقات في البر والبحر ربطت المدن المهمة في بلاد الخلافة بالعالم الخارجي، ففي الشرق وصل التجار المسلمون إلى الصين، وفي الشمال اخترقوا بقوافلهم بلاد الروسية، وفي الغرب لم يتوقفوا إلا على شواطئ المحيط الأطلسي. وأعظم ما جذب العرب إلى الصين كان الحرير، و«طريق الحرير العظيمة» قادتهم خلال بلاد ما وراء النهر (نهر جيحون) وخلال التركستان»(٢).

ولقد وعى سكان مدن ألف ليلة وليلة أهمية بغداد التجارية، ودورة رأس المال السريعة فيها، فقرّروا أن يرتحلوا ببضائعهم إليها. ففي حكاية «**التاجر غانم بن أيوب وقوت القلوب**»، وعندما يموت أيوب والد غانم، يترك له أموالاً كثيرة، فيقرر غانم الارتحال بها إلى بغداد لتثمينها، إذ يأخذ «مائة حمل من القزّ والديباج ولوافح المسك (...) وسافر بها إلى بغداد -وكان ذلك في زمن هرون الرشيد-»(٣). وهنالك في بغداد يتلقاه أبناء كاره بالإكرام والترحيب إذ تتضاعف أمواله. يقول الراوي(٤): «ونزل [غانم بن أيوب] إلى سوق التجار فلاقوه وسلموا عليه وأكرموه وتلقّوه بالترحيب وأنزلوه على دكان شيخ السوق وباع التفاصيل فربح في كل دينار دينارين».

(١) ألف ليلة وليلة، ٢/ ٣٥٥.

(٢) حتي، د. فيليب: الإسلام منهج حياة، تعريب د. عمر فرّوخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، آذار/ مارس، ١٩٨٣م، ص ١٨٥.

(٣) ألف ليلة وليلة، ١/ ٢١٧.

(٤) م ن، ١/ ٢١٧.

إن بغداد في الليالي حام الطامعين بالثروة، ولذة العيش[1]، ولذا فإن القوافل التجارية تسافر من مصر إليها[2]. وها هو علي الزيبق المصري يسافر مع هذه القوافل، بعد أن سمع عن ثراء الشطّار -رفاق مهنته-، وبعد أن أخبره سيّده «أحمد الدنف»، أن بغداد يمكن أن تعطي الطامحين إلى السلطة والثروة كل ما يريدونه، فلقد أعطت أحمد الدنف، أحد الشطّار المصريين القادمين إلى بغداد وظيفة مقدّم بغداد في ديوان الخليفة هرون الرشيد، بعد أن أظهر براعته في النصب والاحتيال. يقول أحمد الدنف: [3] «وبعد فالسّلام من المقدّم أحمد الدنف إلى أكبر أولاده علي الزيبق المصري والذي نعلمك به أنّي (...) أصبحت مقدّم مدينة بغداد في ديوان الخليفة ومكتوب على درك البرّ، فإن كنت ترعى الذي بيني وبينك فأت عندي لعلك تلعب منصفاً في بغداد يقربّك من خدمة الخليفة».

ولقد عرفت هذه المدينة بطراً وثراءً، ولم تعرفه أية مدينة أخرى في العهد العباسي، ولا الأموي، إذ عايش الناس رفاهية ولذة في حياتهم، بفضل الأموال الكثيرة المتدفقة على الدولة من الضرائب الكثيرة، إذ «كان الملوك المستقلون يرسلون الأموال الوافرة إلى الخليفة في بغداد اتقاءً لسطوته، وابتغاءً لمرضاته. فكان الطولونيون، مثلاً، يدفعون في القرن التاسع [الميلادي] ٣٠٠٠٠٠ دينار في السنة لخليفة بغداد الذي كانت ميزانيته تتكون حتى أواخر القرن التاسع من دنانير الغرب ودراهم الشرق»[4] وأمام زيادة الثروة فيها، يبدو من الطبيعي أن يقصدها طالبو الأموال، والباحثون عن حل لمشاكل عوزهم وفقرهم. فها هو أحد البدو في

---

(١) وبغداد في التاريخ هي «الممدوحة في الورى»، التي يحلم بها كل حاذق وكل قلب».
- ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام حتى منتصف القرن الحادي عشر -الأعمال والأيام، الجزء الرابع، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص ٣٨٧.

(٢) ألف ليلة وليلة، ٤/ ١٤٣.

(٣) ألف ليلة وليلة، ٤/ ١٣٤.

(٤) الخازن، د. وليم: الحضارة العباسية، ص ٨٧. وأخذ الخازن عن/
Lombard, Maurice: 'Islam dans sa premie' re grandeur (XLLLes), p.116.

حكاية «**عمر النعمان وولديه**»، يعجز عن الزواج بابنة عمه، بعد أن اشترط عمه «عليه من الصداق ما لا يطاق»(١)، فيقرر أمام عجزه عن دفع مهرها أن يذهب إلى بغداد الثرية، ليجلب المال، ويتزوجها. يقول البدوي للأمير (كان ما كان)، عندما يسأله هذا الأخير عن وجهة سيره: «اقصد بغداد بلدك وأقيم بها حتى يرزقني الله بالصداق»(٢).

وبغداد كريمة -في زوج ازدهارها المالي- لاتضنّ بخيراتها على أصحاب المهن المتدنية. ومن يقصدها منهم، لابد أن يجد مأمناً من ذل الحاجة والفقر. فها هو أحد الجزارين يصبح غنياً فيها، ففي حكاية «**الأحدي وملك الصين**»، يقول المزين لملك الصين، عن أخيه الجزار: «فإنه كان جزاراً ببغداد يبيع اللحم ويربي الخرفان، وكان الكبار وأصحاب الأموال يقصدونه ويشترون منه اللحم، فاكتسب من ذلك مالاً عظيماً»(٣).

وتشير الليالي إلى أن بغداد كانت تكرم السقّائين الغرباء الوافدين إليها، ويبدو أن هذه المهنة كانت منتشرة في المدينة العربية الإسلامية في العهدين الأموي والعباسي، إذ اكتظت المدينة الإسلامية بأناس محترفين يكتسبون من وراء إسقاء المارة بالأسواق، وهؤلاء كانوا يسقون الناس بالكيزان والروّايا والقِرَب والدلاء(٤). ونقرأ في حكاية «**علي الزيبق المصري مع دليلة المحتالة**»، أن سقّاء مصرياً قدم إلى بغداد، وهناك وجد عطفاً واحتراماً كبيرين، من شيخ السقّائين ببغداد. يقول السقّاء: «ثم سألت عن شيخ السقّائين ببغداد فدلوني عليه، فدخلت وقرأت الفاتحة(...) فأخلى لي دكاناً وأعطاني قربة وعدة»(٥). وعندما يتعرف هذا السقّاء

(١) ألف ليلة وليلة، ٢/ ٩٤.
(٢) م ن، ٢/ ٩٤.
(٣) م ن، ١/ ١٦٨.
(٤) عاشور، د. سعيد عبد الفتاح: «الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية»، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، إبريل، مايو، يونيو، ١٩٨٠م، ص ١١٧.
(٥) ألف ليلة وليلة، ٤/ ١٤١.

إلى مقدم بغداد أحمد الدنف، يكرمه هو وأصحابه، ويغدقون عليه، حتى يصبح دخله ألف دينار: «وقال [أحمد الدنف] يا سقّاء من أين أنت؟ فقلت له من مصر، فقال حيّا الله مصر وأهلها. وما سبب مجيئك إلى هذه المدينة، فحكيت له قصتي وأفهمته أني مديون وهربان من الدين والعيلة. فقال مرحباً بك فأعطاني خمسة دنانير، وقال لأتباعه اقصدوا وجه الله وأحسنوا إليه فأعطاني كل واحد ديناراً (...) فصرت أتردد عليهم وصار يأتيني الخير من الناس، ثم بعد أيام أحصيت الذي اكتسبته منهم فوجدته ألف دينار»[1].

ويمكننا أن نتخيل رقعة الدولة العربية الإسلامية في ألف ليلة وليلة، فضاءً مفتوحاً، يجد المرء نفسه داخل هذا الفضاء قادراً على التنقل بسهولة، حيث لا رقابة ولا حدود ولا جمارك، وحيث العرب والمسلمون متآلفون في سما بينهم، وقادرون على تبديد الشعور بالمأساة لدى الغرباء القادمين إلى مدنهم، فالعربي من مصر يجد نفسه بين أهله وأصدقائه إذا زار بغداد[2]، والعربي الواعظ من بغداد إذا جاء إلى حماة، يجد أنه مشمول بالرعاية والاحترام، إذ يكثر الوافدون إلى منزله من الفقهاء وذوي المعارف والآداب[3]. كما في حكاية «سيدة المشايخ ببغداد وقدومها إلى حماة». إلا أنه ومن الملاحظ، وفي البنية العامة لحكايات ألف ليلة وليلة، أن الأشخاص المسافرين إلى مدن غيرهم، سواء أكانت عربية أم إسلامية، أم أجنبية، أم تخيّليّة، يرجعون إلى أوطانهم، مهما بعدت بهم المسافات والأزمنة -نستثني من ذلك بعض المسافرين إلى بغداد- وكأن تراب الوطن لا يعادله أي تراب آخر. ويجسّد الراوي رغبة الأفراد المسافرين، بالعودة إلى بلدانهم، على لسان أحد شخوص الحكايات إذ يرى أن إقامة الغريب في بلاد الآخرين خواءٌ مدمّر للأحلام والمنى:

---

(١) م ن، ٤/ ١٤١-١٤٢.

(٢) كما يظهر في حكايتي: علاء الدين أبي الشامات، وعلي المصري وزواجه ببنت ملك بغداد.

(٣) ألف ليلة وليلة، ٣/ ١٩٦.

إقـــامـــات الـغـــريـب بـكلّ أرض كـبـنـيـــان الـقـــصــور عـلى الرياح
يـهـبُّ الـرّيح تـنـهـــدم المـبـــاني لـقــد عــزم الـغــريـب عـلى الـرواح[1].

لقد كـانت بغداد أكـثر مـدن ألف ليلة وليلة التي يرتحل السـرد منها وإليـها، باعتبارها «مدينة أمينة»[2]. ولأنها «دار السلام»[3]، فإن الفرد يستطيع أن يعيش فيها بأمان وسلام، ويستطيع أن يحافظ على أمواله من شر الطامعين فيـها، في المدن الأخرى، فحسن الصائغ البصري بعد أن يصبح غنياً في البصرة، تخاف عليه أمه، وتقترح عليه الذهاب إلى بغداد: «قالت يا ولدي: نحن بهذا المال لا نقدر أن نعيش في هذه المدينة، وأنت تعرف أننا أناس فقراء (...) فقم بنا نسافر إلى مدينة بغداد دار السلام»[4]. وقد سافر حسن الصائغ البصري إلى بغداد لأنها أكثر ازدهاراً وثراءً من البصرة، ففي بغداد طبقة ثرية جداً، لن تستغرب إلى أي مدى وصل إليه ثراؤه، لأنّ ثراءه سيبدو عادياً ومألوفاً في بغداد المتخمة بالثراء الفاحش.

وإذا كان الأشخاص الفقراء والأغنياء يقصدون بغداد طلباً لمزيد من الثراء وتثمين الأموال، والمحافظة عليها، فإن الملوك الجبابرة وذويهم يذهبون إلى بغداد طلباً للصلح والأمان. فها هي العجوز شواهي ذات الدواهي، أم الملك حردوب (ملك الروم)، تذهب إلى بغداد، لأنها «تريد الدخول على الملك ساسان لتطلب منه الصلح والأمان»[5].

وأهل بغداد، كما يراهم أحد رواة ألف ليلة وليلة، أهل وفاء وأمانة، ويؤدّون الأمانة إلى أهلها، وهم معروفون بهذه الأمانة في الأقاليم المجاورة، فها هو

---

(١) ألف ليلة وليلة، ٤/ ١٣٢.
(٢) م ن، ١/ ١٩٩.
(٣) م ن، ٣/ ٤١٥؛ ٤/ ٣٦٨.
(٤) م ن، ٤/ ٢٩٠.
(٥) م ن، ٣/ ٩٥.

أحد الرجال الخراسانيين (لا يذكر الراوي اسماً له)، يأتي من خراسان إلى بغداد ليضع أمواله أمانة عند أبي حسان الزيادي. يقول الزيادي[١] «دخل علي غلام فقال لي: إن بالباب رجلاً يطلب الدخول عليك. فقلت ائذن له، فدخل فإذا هو رجل خراساني، فسلم علي فرددت عليه السلام. ثم قال لي: هل أنت أبو حسان الزيادي؟ قلت: نعم وما حاجتك؟ قال: إني رجل غريب وأريد الحج ومعي جملة من المال وأنه قد أثقلني حمله وأريد أن أدع عندك هذه العشرة الآلاف درهم إلى أن أقضي حجي وأرجع».

وتصل أخبار بغداد وأخبار الحياة الآمنة فيها إلى الصين، كما يذكر الراوي في حكاية «**الأحدب وملك الصين**»، فالرجل الأعرج يرفض الجلوس بحضور المزين البغدادي -ابن مدينته- في إحدى الدور، لأن المزين البغدادي كان السبب في كسر رجله. وعندما يؤكد الراوي الخياط لملك الصين أن الرجل الأعرج رفض الجلوس مع المزين، لأنه ما أحس نحوه بالأمان، تساءل ملك الصين مدهوشاً: «كيف يكون هذا الشاب من بغداد ويتشوش خاطره من هذا المزين؟»[٢]. وكأن على سكان بغداد، ألا يشعروا بالقلق والخوف، طالما أنجبتهم بغداد التي وصلت أخبارها إلى الصين، على أنها مدينة آمنة وهادئة[٣].

إن بغداد في الليالي فضاءٌ حالم بالنسبة للشخوص، فهي محطة للمتعة والمسرات[٤]، والمآكل اللذيذة، والأخبار العجيبة التي تفوق الأساطير. إنها ميناء

---

(١) م ن، ٣/ ١٢٥.

(٢) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٥١.

(٣) ومن الطبيعي أن يسمع ملك الصين ببغداد وأخبارها، ويعرف جزءاً من تركيبتها السياسية والاجتماعية، ولاسيما أنه كان للعرب جالية كبيرة كانتون في الصين. وقد نُظّم فيها ديوان البحر، وكان يُخطب فيها للخليفة العباسي وإمبراطور الصين يستقبل تجار المسلمين بالحفاوة والتكريم.
- الخازن د. وليم: الحضارة العباسية ص٩٥.

(٤) وقد وصف أحدهم بغداد وصفاً لا يبتعد كثيراً عن خصائصها الجمالية في ألف ليلة وليلة، إذ قال: «بغداد جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الإسلام ومجمع الرافدين وغرّة البلاد وعين العراق ودار الخلافة ومجمع المحاسن والطيبات ومعدن الظرائف واللطائف».
- عن / معجم البلدان، ١/ ٤٦١.

اللذات بامتياز، ولا يفوقها ميناء آخر في هذا المنحى، في مدن ألف ليلة وليلة جميعها. ولأنها هذا الميناء اللذائذي، فقد كانت حلماً لأحد البدو، الذي قصدها خصيصاً من البادية، لأجل أن يأكل الزلابية التي لم يذقها طوال حياته، في مجتمعه البدوي: «فقال البدوي لابد من دخولي بغداد وآكل فيها زلابية بعسل. وكان عمره ما رآها ولا دخل بغداد»[1].

وبغداد قبلة الجواري الجميلات اللواتي يُبعنَ في أسواق رقيقها، هاته الجواري اللواتي لا تستطيع الشخصيات مقاومة جمالهن، وتكاد تقتل أنفسها، إذا ما خرجن من حقل امتلاكها. يقول أحد الشخوص بعد أن فقد جاريته الجميلة: «كدت أ أقتل روحي فتذكرت الآخرة والنار فخرجت من بيتي هارباً إلى بعض الأصدقاء(...) وقال: اقبل رأيي واخرج في هذه الساعة من بغداد (...) إلى أن يشتغل قلبك عن حبّها وتسلو عنها»[2]. وها هو أحد سادة البصرة الأثرياء، ترك البصرة، ويمّم صوب بغداد لأجل أن يسمع الغناء، ويشتري الجواري، ويزداد ثراءً بالاقتراب من خليفتها هرون الرشيد. يقول: «أنا رجل قد وسّع اللّه عليّ وإنما وردت بغداد لسماع الغناء وطلب أرزاقي من أمير المؤمنين»[3]. مع ملاحظة أن هذا الرجل السيّد هو «هاشمي من أهل البصرة، وكان ذلك الرجل أديباً ظريفاً كريم النفس فاشتراها [جارية من بغداد] بألف وخمسمائة دينار»[4].

ويبدو أن فضاء البصرة بكل اتساعه، وعلى الرغم من أنه أعطى الرجل الهاشمي السيادة والمال، لم يكن كافياً لكبح جموح نزعة التوق والحنين إلى فضاء جمالي آخر هو فضاء بغداد، بأصوات نسائه الجميلات، وأموال خليفته هارون الرشيد التي لا تُعدّ ولا تُحصى.

---

(١) ألف ليلة وليلة، ٤/ ١٣١.

(٢) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٤٣٧.

(٣) م ن، ٤/ ٤٣٩.

(٤) م ن، ٤/ ٤٣٦..

لقد كانت بغداد العباسية قبلة المغنين والمغنّيات ومحبي الموسيقى، وقد «انتشر الغناء في العصر العباسي انتشاراً كبيراً حتى أصبح يُعدّ من حاجات الناس الضرورية، فظهر المغنّون والمغنّيات في المحال العامة، وفي الشوارع، وفي قصور الخلفاء، وفي بيوت الأغنياء والفقراء ولم يتحرج بعض الخلفاء ولا أولادهم من اختراع الأصوات والتغنّي بها»[1]. ولقد احتفت حكايات ألف ليلة وليلة بهاته المغنّيات، احتفاءً واضحاً، وتحدّثت عن بعض آلاتهن الموسيقية، وإشاعتهن فضاء اللذة والمتعة في القصور والدور التي يغنين فيها[2].

وبالإضافة إلى مركزية بغداد الاقتصادية والتجارية والترفيهية في الليالي، فإنها ذات مركزية سياسية، وهي مركز للسلطة الدينية في آن، لأنها عاصمة للدولة الإسلامية ومركز للخلافة، إنها «قصر الخلافة»[3]، ومدينتها، وهي بالتالي تهيمن سياسياً وسلطوياً على المدن الأخرى، سواء أكانت قريبة منها، أم بعيدة عنها. ولأنها «حرم الخليفة»[4] العباسي، فإن لها منعتها، وحصانتها السياسية، والأوامر الصادرة من خليفتها إلى المراكز والأقاليم الأخرى، لها قوتها التنفيذية، بحيث لا يستطيع أي والٍ، مهما كان عظيم الشأن، أن يرفض أوامر الخليفة. ولقد قامت حضارة بغداد العباسية على احتضان الأمصار المجاورة لها[5]، والهيمنة عليها، والتفاعل مع هذه الأمصار ثقافياً وحضارياً، وعلاقات إنسانية واقتصادية فقرارات الخليفة هرون الرشيد في الليالي صارمة، ولا يستطيع الولاة إلا أن يخروا لها

---

(١) سرور د. محمد جمال الدين: «الحياة الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي»، مجلة العربي، وزارة الإرشاد والأنباء الكويت العدد ٥٧، أغسطس / آب، ١٩٦٣م، ص ٣٢.

(٢) تحتفي بعض حكايات الليالي: حكاية هرون الرشيد ومحمد بن علي الجواهري، وحكاية علاء الدين أبي الشامات، وحكاية حمّال بغداد. والبنات، وغيرها، احتفاء كبيراً بالنساء المغنيات والعاشقات.

(٣) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٣٣٠.

(٤) م ن، ٤/ ٢٩٠.

(٥) جعيط، د. هشام: الكوفة -نشأة المدينة العربية الإسلامية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، ص ٤٤٧.

ساجدين، فها هو المتولّي على البصرة محمد الزبيدي، عندما يتلقى خطاباً من هرون الرشيد، يسرع إلى إكرام حامله: «ودخل [الرسول] على الأمير محمد الزبيدي. ففرح به وأكرمه غاية الإكرام، ثم قرأ عليه بطاقة أمير المؤمنين هرون الرشيد فقال سمعاً وطاعة»[1]. وها هو الخليفة الرشيد يوجه خطاباً إلى واليه بالبصرة، السلطان محمد بن سليمان الزيني، فما كان من الوالي السلطان إلا أن قبل الخطاب هيبةً من الرشيد وتعظيماً لرسوله: «ثم أخرج [علي نور الدين] الورقة وأعطاه إياها، فلما رأى [السلطان محمد بن سليمان الزيني] عنوان الكتاب بخط أمير المؤمنين قام واقفاً على قدميه وقبلها ثلاث مرات، وقال السمع والطاعة للّه تعالى ولأمير المؤمنين»[2].

لقد كانت سلطة بغداد العباسية -تاريخياً- مستمدة من اللّه، باعتبار أن حكامها هم خلفاء اللّه وأئمته في أرضه، وقد سنّ داود بن علي[3] سياسة هذه السلطة، منذ أن بويع لأبي العباس عبد اللّه بن محمد السفّاح سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، إذ صعد داود منبر الكوفة، وقال: «يا أهل الكوفة، لم يقم فيكم إمام بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلا علي بن أبي طالب، وهذا القائم فيكم -يعني أبا العباس السفّاح-»[4].

وها هو الخليفة أبو جعفر المنصور، الذي استلم مقاليد السلطة سنة

---

(١) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٨.

(٢) م ن، ١/ ٢١٢.

(٣) داود بن علي: (داود بن علي بن عبد اللّه بن العباس بن عبد المطلب، ٨١-١٣٣هـ/ ٧٠٠-٧٥٠م): أمير من بني هاشم، وهو عم السفّاح العباسي. كان خطيباً فصيحاً، من كبار القائمين بالثورة على بني أمية. ولما ظهر العباسيون ولاه السفّاح إمارة الكوفة، ثم عزله عنها وولاه إمارة المدينة ومكة واليمن واليمامة والطائف، فانصرف إلى الحجاز، وأقام في المدينة، فعاجلته منيّته.

- الزركلي، خير الدين: الإعلام، ٢/ ٣٣٣.

(٤) المسعودي، علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م الجزء الثالث، ص ٢٦٢.

١٣٦هـ/ ٧٤٥م، يرسخ قدسية السلطة العباسية، مؤكداً أنه ظل اللّه على الأرضه، وسلطانه على عباده. يقول في خطبة له: «أيها الناس إنما أنا سلطان اللّه في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه فارغبوا إلى اللّه وسلوه أن يوفّقني للرشاد والصواب وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم»(١).

ومن داخل البنية المعرفية لرواة ألف ليلة وليلة، التي تعي سطوة هذه السلطة في التاريخ، نجد أن راوي إحدى حكايات الليالي، يجعل من هذه السلطة ظاهرة شمولية، لا لتكون سلطة شمولية على الأرض بسكانها، بل لتكون سلطة على عالم الجن والعفاريت أيضاً. فها هو الخليفة هارون الرشيد في حكاية «**الحمّال والبنات**»، يجلب الجنيّة التي سحرت الأختين الكبيرتين من خلف جبل قاف، وحينما تشاهده هذه الجنيّة تدين له بالطاعة، باعتباره خليفة اللّه: «وإذا بالجنيّة قد حضرت وكانت مسلمة، فقالت: السلام عليك يا خليفة اللّه، فقال وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته»(٢). وعند ذلك أمرها الخليفة الرشيد بتخليص الأختين الكبيرتين من حال المسوخيّة «الحالة الكلبيّة» إلى حال «الصورة البشرية»(٣).

إن من يخرق بعض محرّمات سلطة بغداد المركزية -حتى ولو كان هذا الخرق ناتجاً عن عدم معرفة بهوية هذه السلطة- أو من يقترب من حظاياها اللواتي تقذفهن المقادير إليه بالمصادفة، لابد من أن ينال عقاباً قاسياً، يُشَهر به بين أفراد مدينته. فالتاجر غانم بن أيوب يعشق قوت القلوب، حَظيّة الخليفة هرون الرشيد، من دون أن يعلم أن الماثلة أمامه، تعود ملكيتها إلى قصر الخلافة، عندها يستنفر هرون الرشيد أحقاده على غانم بن أيوب، من دون أن يعرف الأسباب الجوهرية التي

(١) عن/ نبيل، مصطفى: «بغداد العباسية -رحلة في المكان والزمان»، ص ٩٠.

(٢) ألف ليلة وليلة، ١/ ٨٧.

(٣) م ن، ١/ ٨٨. .

جعلت الحظيّة قوت القلوب تعشق هذا الرجل الكريم الذي أنقذها من الموت. يقول الراوي[1]: «فقال له الخليفة بغيظ: أنزل يا جعفر [البرمكي] واسأل عن بيت غانم بن أيوب واهجموا على داره وائتوني بجاريتي قوت القلوب، ولابد أن أعذبه». وبناء على أوامر الخليفة يهجم الوزير والوالي والظَّلَمة[2] -كما تسميهم شهرازد- ويحيطون بدار غانم بن أيوب، وينهبون كل ما فيها، ويحملون قوت القلوب، وكل ما تحتويه دار غانم بن أيوب من مجوهرات وأموال[3].

ومن غضب عليه أحد خلفاء بغداد العباسية في الليالي، فإن مصيره النفي والاغتراب الأبدي، إلى أن يأتي هازم اللذات، ويأخذ هذا الخليفة. فالخليفة المنتصر بالله[4] في حكاية «**مزيّن بغداد**» الداخلة في حكاية «**الأحدب وملك الصين**»، يستمع إلى المزيّن، وهو يحكي له قصص أخوته الستة، وعندما لا تعجبه هذه الحكايات يقرر أن ينفي المزيّن نفياً أبدياً خارج بغداد. يقول المزيّن[5]: «فلما سمع أمير المؤمنين قصتي (...) قال: اخرج من هذه المدينة، واسكن غيرها، ثم نفاني من بغداد، فلم أزل سائراً في البلاد حتى طفت الأقاليم إلى أن سمعت بموته وخلافة غيره، فرجعت إلى المدينة». ويبدو مستحيلاً أن يفكر هذا المزيّن بالعودة إلى بغداد ثانية، ولاسيما عرفنا أن هذا الخليفة، كما تصوره المصادر التاريخية، كان ذا سطوة مطلقة، و«فاتكاً سفّاكاً للدم». ومن شدة بطشه فقد قتل أباه جعفر المتوكل[6].

---

(١) م ن، ١/ ٢٣٤.

(٢) م ن، ١/ ٢٣٤.

(٣) م ن، ١/ ٢٣٥.

(٤) المنتصر بالله: (محمد بن جعفر (المتوكّل علي الله) بن المعتصم، ٢٢٣-٢٤٨- هـ/ ٨٣٨-٨٦٢م): من خلفاء الدولة العباسية ولُد في سامراء، وبويع بالخلافة بعد أن قتل أباه (سنة ٢٤٧هـ) وفي أيامه قويت سلطة الغلمان فحرّضوه على خلع أخويه المعتزّ والمؤيّد (وكانا وليي عهده) فخلعهما. قيل: مات مسموماً بمبضع طبيب. ووفاته بسامّراء. ومدة خلافته ستة أشهر وأيام.
- الزركلي، الدين: الأعلام، ٦/ ٧٠.

(٥) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٨٠.

(٦) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص ٢٣٩.

ومن ترضى عنه بغداد السياسية والمركز في الليالي، فإنها تعطيه كل شيء، وتتوّجه أميراً مكللاً بالإمارة والقصور والبساتين، وتنتقم له من أعدائه شر انتقام. فالخليفة هرون الرشيد في حكاية «**علي نور الدين وأنيس الجليس**»، يعجب بكرم علي نور الدين وشهامته، فيشرح له هذا الأخير ظلم وزير البصرة -المعين بن ساوي- وسلطانها محمد بن سليمان الزيني، ومطاردتهما له، عندها يقرر الرشيد أن يقتل الوزير المعين بن ساوي، انتقاماً لعلي نور الدين بن خاقان، ويسلّمه ولاية البصرة. لكن علي نور الدين لا يستطيع أن يفارق بغداد الجميلة، فيرفض حكم البصرة، على أن يبقيه الخليفة بجواره ببغداد: «فعند ذلك قال الخليفة لعلي بن خاقان تمنّ عليّ، فقال له يا سيدي أنا مالي حاجة بملك البصرة وما أريد إلا مشاهدة وجه حضرتك، فقال الخليفة حبّاً وكرامة»[1]. وبطبيعة الحال ستكافئ سلطة بغداد علي نور الدين بن خاقان، بكلّ ما يحلم به، طالما هو لا يريد إلا الولاء المطلق لرأس هذه السلطة ستعطيه المرأة الجميلة التي يحبّها، والأموال والقصور:

«ثمّ إن الخليفة دعا الجارية فحضرت بين يديه فأنعم عليهما وأعطاهما قصراً من قصور بغداد ورتّب لهما مرتّبات، وجعله من ندمائه. وما زال مقيماً عنده إلي أن أدركه الممات»[2].

إن هذا الإعجاب ببغداد في الليالي، ورفض أعلى المناصب لأجل البقاء فيها، والولاء لسلطتها، يذكرنا تاريخياً برفض محمد بن رائق[3] لولاية الشام، إذ

(١) ألف ليلة وليلة، ١/ ٢١٦.

(٢) ألف ليلة وليلة، ١/ ٢١٦.

(٣) محمد بن رائق: (... -٣٣٠هـ/ ... -٩٤٢م): أمير من الدهاة الشجعان، له شعر وأدب. كان أبوه من مماليك الخليفة العباسي محمد المعتضد بالله، وولي محمد شرطة بغداد للخليفة العباسي بالله بن المعتضد سنة ٣١٧هـ، ثم إمارة واسط والبصرة وولاّه الخليفة الراضي بالله بن المقتدر إمرة الأمراء والخراج ببغداد سنة ٣٢٤هـ.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، ٦/ ١٢٣.

«لما انتدب (...) لولاية الشام لم يذهب إليها، واستخلف ابنه الحسن، وقال: ركوبي في الطيار في دجلة وصياح الملاّحين، أحب إلي من ملك الشام كله»[1].

ولا تبدو صورة الرشيد في ليالي بغداد المركزية، وهو يهب قصوراً ومرتّبات للذين يظهرون له ولاء الطاعة، بعيدة في الوهم والتخيل اللذين كانا المعينين لرواة ألف ليلة وليلة، بل يمكن أن يكون لها خلفية مرجهية، تاريخية وواقعية، إذ تروي أن الرشيد وهب لطبيبه جبرئيل بن بختيشوع[2] المال الكثير الذي يكفي لشراء ضياع غلتها الآلاف من الدراهم، عندما عالجه من مرض شديد ألم به:

«فلما بَرَأ من علّته، [أي هرون الرشيد]، دعا صاحب حرسه، وحاجبه، وصاحب شرطته، فسأل صاحب الحرس عن غلّته في كل سنة، فعرّفه أنها ألف ألف درهم، وسأل صاحب شرطته عن غلّته أنها خمسمائة ألف درهم.

ثم قال: يا جبرئيل: كم غلتك؟

فقلت: خمسون ألف درهم.

فقال: ما أنصفناك، حيث غلاّت هؤلاء وهم يحرسوني ويحجبوني عن الناس، علي ما هي عليه، وتكون غلّتك ما ذكرت. وأمر بإقطاعي ما قيمته ألف ألف درهم.

---

(١) عن / الخازن، د. وليم: الحضارة العباسية، ص ٨٩.

(٢) جبرئيل بن يختيشوع: (جبرئيل بن يختيشوع بن جرجس، ...-٢١٣هـ/ ...٨٢٨م): طبيب هارون الرشيد وجليسه وخليله يقال إن منزلته ما زالت تقوى عند الرشيد حتى قال لأصحابه من كانت له حاجة إلى فليخاطب بها جبرئيل فإني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني. فكان القوّاد يقصدونه في كل أمورهم. ولما توفي الرشيد خدم الأمين، فلما ولّي المأمون سجنه ثم أطلقه وإعادة إلى مكانته عند أبيه الرشيد، فلم يزل إلى أن توفي ودفن في دير «مار جرجس» بالمدائن.
- الزركلي، خير الدين: الأعلام، ٢/ ١١١.

فقالت: يا سيدي ما لي حاجة إلي الإقطاع، ولكن تَهَبُ لي ما أشتري به ضياعاً غلّتها ألف ألف درهم، ففعل، وتقدم بمعاونتي على ابتياعها، فابتعت بهباته، وجَعَالاته[1]، ضياعاً غلّتها ألف ألف درهم»[2].

إن بغداد المركزية في الليالي ذات سلطة وهيبة ذائعة الصيت، تصل إلى مدن تخيلية، لا يعرف الراوي اسماً لها، وتحدد هذه الهيبة بمدة خلافة هرون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م)، وما عُرِف عنه من سطوة وبطش وأبّهة، ومكانة بين الخلفاء، لا تعادلها مكانة أي خليفة آخر. ففي حكاية «**السندباد البحري**»، وتحديداً في سفرته السادسة، نجد أن ملك المدينة التي يصلها السندباد، يرسل «هدية عظيمة إلى الخليفة هرون الرشيد بمدينة بغداد»[3]. وعندما يسأله الرشيد عن هذه المدينة يجيب السندباد: «يا أمير المؤمنين والله لا أعرف للمدينة التي هي منها اسماً ولا طريقاً»[4]. وكأن الراوي يريد أن يشير إلى أن ملك هذه المدينة البعيدة جداً، قد سمع عن سطوة بغداد العباسية وعظمتها، وإزاء هذه السطوة رغب هذا الملك في كسب ود الرشيد ورضاه، فأرسل له هدية عظيمة.

وبالإضافة إلى مركزية بغداد العباسية في الليالي، فإنها شهدت حركة علمية نشيطة، في العلم والفنون والآداب، والفقه والشريعة والطب. ويشير بعض رواة ألف ليلة وليلة إلى كثير من مكونات ثقافة بغداد، وفضاءاتها المعرفية. ففي حكاية «**الحمّال والبنات**»، التي تدور أحداثها في عصر هرون الرشيد، تطلب البنت الصغرى من ابن ملك المدينة الممسوخة حجارة سوداء، أن يذهب معها إلى بغداد،

---

(١) جَعَالاته: أي ما خصصه له من عطاء. المنجد في اللغة، مادة: جعل، ص ٩٣.

(٢) التنوخي، أبو علي المُحَسِّن بن علي: الفرج بعد الشدة، اختار النصوص وقدم لها د. عبد الإله نبهان، منشورات وزارة الثقافة دمشق الطبعة الأولى ١٩٩٥، السفر الثاني، ص ٢٦٤-٢٦٥.

(٣) ألف ليلة وليلة، ٤/ ١٣.

(٤) م ن، ٤/ ١٣.

باعتبار بغداد موطناً للعلماء: «قلت له أيها الشاب هل لك أن تروح معي إلى مدينة بغداد، وتنظر إلى العلماء وإلى الفقهاء فتزداد علماً وفقهاً»(١).

وتبدي شخصيات حكايات بغداد معرفة متطورة بعلوم الفلك، حتى ولو كانت هذه الشخصيات من الطبقات الاجتماعية المهمّشة. فها هو مزيّن بغداد يأخذ اصطرلاباً(٢)، مكوناً من سبع صفائح ويوجهه إلى أشعة الشمس، ليؤكد أن طالع يوم الجمعة، وفق ما تقتضيه العمليات الحسابية هو كوكب المريخ، وبميل(٣) قدره ثماني درجات وست دقائق(٤).

وتشير حكاية **«تودّد الجارية»**، إلى أن بغداد في الليالي تربعت قمم المعرفة في مختلف أنواع المعارف والعلوم، بشخص إحدى بناتها من الجواري، وهي «تودد» فعندما تحضر «تودد» الجارية بين يدي الخليفة الرشيد، تؤكد له أنها قادرة على بزّ كل علماء بغداد، فيحضر لها العلماء، وتبدأ هي بمناظرتهم في جميع علوم عصرها، وتتفوق عليهم في معرفة هذه العلوم. ويظهر السارد في الحكاية معارف العلمية التي تمتد إلى جميع الحقول المعرفية التي عرفتها حضارة بغداد العباسية، والحضارات قبلها، أو التي تزامنت معها: في الفقه والتفسير(٥)، ودلالات اللغة(٦)، والعلوم الدينية، وقراءات القرآن السبع، وإعراب آياته(٧)، وعلوم

---

(١) م ن، ١/ ٨٠.

(٢) الأسطرلاب: آلة رصد قديمة لقياس مواقع الكواكب وساعات الليل والنهار وحلّ شتى القضايا الفلكية.

- المنجد في اللغة، مادة: اسط، ص ١٠.

(٣) الميْل: الزاوية الحادثة بين سطح الاستواء السماوي والمستقيم الواصل بين الأرض والكواكب.

- المنجد في اللغة، مادة: ميل، ص ٧٨٢.

(٤) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٥٣.

(٥) م ن، ٣/ ٢٣٣.

(٦) م ن، ٣/ ٢٤٠.

(٧) م ن، ٣/ ٢٤٥.

الفلسفة[1]، والمنطق والأخلاق والحكمة والعلوم المجردة، كالرياضيات والهندسة والفلك[2]، والتنجيم والكواكب والأبراج[3]. وقد شهدت مصادر التاريخ على معرفة في علم الفلك في العصر العباسي، فقد «كان الفلكيون المسلمون قادرين على إيجاد مواقع الكواكب في مداراتها الخاصة بسهولة نسبية، فقد استطاعوا الانتقال إلى تحليل وتطوير النظريات المتعلقة بالكواكب السيّارة التي وصلت إليهم من العصور القديمة»[4].

وفي الحكاية السابقة تظهر الجارية «تودد» معرفة كبيرة بعلوم الصحة النفسية والجنسية[5]، فهي على سبيل المثال، من خلال معرفتها بعلم الجنس، تبدو كأنها طبيب نفسي وجنسي، يدرك بمعرفة علمية متطورة أثر الجنس على السلوك الفردي والجمعي وفوائده ومضاره، وأفضل الأوقات لممارسته[6]. وهي من خلال هذه المعرفة، التي تظهرها المناظرة مع علماء الجنس في بغداد، تنقل معارف شخوص عصرها حول هذه الظاهرة، وبعض معارف الأئمة وارائهم فيها[7]. وتتغلّب بمهارة على «النّظّام[8]، شيخ الرؤية العقلية[9]، باعتباره ممثلاً لفئة المعتزلة التي رفعت

(١) م ن، ٣/ ٢٦٤.
(٢) م ن، ٣/ ٢٥٨.
(٣) م ن، ٣/ ٢٥٧-٢٥٨-٢٥٩.
(٤) فيرنيه، جون؛ Vernet, Jaun : «الرياضيات والفلك والبصريات» في كتاب: «تراث الإسلام»، تصنيف شاخت وبوزورث، ترجمة د. حسين مؤنس، ود. إحسان صدقي العمد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد الثاني عشر، الطبعة الثانية، رمضان ١٩٠٨هـ/ مايو ١٩٨٨م الجزء الثاني، ص ٣٢٢.
(٥) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٢٥٥.
(٦) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٢٥٦.
(٧) م ن، ٣/ ٢٥٥.
(٨) م ن، ٣/ ٢٦٨.
(٩) النّظّام: (إبراهيم بن سيّار، ... - ٢٣١هـ/ ... -٨٤٥م): متكلم معتزلي. نشأ في البصرة وأقام في بغداد حيث توفي. منطقي وشاعر. ترك أثراً كبيراً في تاريخ الفكر الإسلامي. معلم الجاحظ. عارض آراء الفقهاء. وإليه تنسب النظّامية من فرق المعتزلة.
- المنجد في الأعلام، ص ٧١٠.

شعار العقل أولاً، وتتغلب على أمهر لاعبي الشطرنج والنرد في بغداد العباسية[1]. ومن هنا فإن الأبعاد المعرفية التي يحملها السارد لهذه الجارية هي الكل الحضاري والمعرفي للحضارة الإنسانية بعامة، وللحضارة العربية بخاصة، والتي أخذت من الحضارة الإنسانية، وأعطتها في آن، وذلك في مرحلة ازدهار الخلافة العباسية. ومعرفة «تودد» الجارية هي خلاصة «تجارب الشعوب المختلفة والأزمان المتعاقبة، مطعّمة بآمال النفس الإنسانية وآلامها»[2].

إن هذه التجربة المعرفية والشمولية لكل ما هو معروف، ومتداول، في الحضارة العباسية، من قيم وعادات ومعارف علمية ونظرية وأدبية، ناتج عن تبادل التأثير والتأثر بين حضارات البلدان وثقافاتها التي ذكرتها شهرزاد فهي فارسية وهندية مرة، وصينية مرة أخرى، وأوروبية أيضاً، إضافة إلى الأفق المعرفي العلمي الذي عرفته الحضارة العربية في العصور الجاهلية والإسلامية (عصر النبي والخلفاء الراشدين)، والأموية والعباسية، وقد بلغ هذا الأفق أوج ازدهاره في عصر الخليفة العباسي المأمون بن هرون الرشيد. ويحدد جرونيباوم[3] معارف الحضارات التي أسهمت في تشكيل حكايات ألف ليلة وليلة قائلاً:

«اجتمعت عناصر هندية وفارسية ويهودية ويونانية وبابلية ومصرية فضلاً عن عناصر عربية أصيلة فأصبحت كلاً واحداً على أيدي أساتذة مجهولين يرجع إليهم الفضل في تلك الجزالة الهائلة التي ينطوي عليها مجموع(ألف ليلة وليلة)، وراحت اللغة العربية من حيث الظاهر الروح الإسلامي من حيث الداخل، توحّد هذه

---

(١) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٢٦٩.

(٢) الملاّح، عبد الغني: رحلة في ألف ليلة وليلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨١م، ص ٤٤.

(٣) عن / خورشيد، فاروق: «الليالي والحضارة الإسلامية -مناقشة ورؤية»، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ربيع ١٩٩٤م، ص ١٦. ولم يذكر خورشيد اسم المرجع الذي اقتبس منه.

الخطوط المتعددة، وتتولى حبكها في بساط فاتنٍ، يخطف الأبصار. وإن ألف ليلة في تأليفها بين كل ما هو مختلف وكل ما هو متفاوت، لأشبه الأشياء بمثال مصغّر للحضارة الإسلامية بوجه الإجمال»، ويبقي الوعي المعرفي والعلمي الحضاري في ألف ليلة وليلة «نتيجة للفكر الإنساني من خلال عدة قرون اندمجت مع بعضها بأزمان مختلفة»(١).

وتشير ألف ليلة وليلة إلى أن من بين المعارف العلمية التي شهدتها بغداد العباسية، وتفوقت على غيرها من أقاليم الدولة العباسية ومدنها، معرفة طب العيون، ففي حكاية «**هرون الرشيد مع الرجل الذي يطلب دواءً لعينه**»، وبينما كان الرشيد خارجاً صوب الصحراء، شاهد شيخاً طاعناً مسافراً على حماره، فطلب الرشيد من جعفر البرمكي أن يسأله عن حاله: «فقال له جعفر: من أين جئت؟ فقال: من البصرة.

فقال جعفر: وإلي أين سيرك؟ فقال: إلى بغداد.

قال: ماذا تصنع فيها؟ قال: ألتمس دواءً لعيني»(٢).

وتشير الدراسات التاريخية إلى ازدهار طب العيون في بغداد، وعلى أيدي العرب، نظراً لنشوء أمراضه في بلادهم الحارة، ففي عهد الخليفة هرون الرشيد وضع يوحنا بن ماسويه (ت٢٤٢هـ/ ٨٢٧م)، أو يوحنا الدمشقي بتسميات أخرى، أوMaior-Mesue، عند الإفرنجة، وهو من السريان النساطرة، أول كتاب عربي منظم في علم رمد العين، وسماه بـ«دغل العين»، وهذا الكتاب من أفضل ما وُضع في طب العيون، ويقول ماكس مايرهوف عن هذا الكتاب(٣): «إنه أقدم الكتب التي

---

(١) الملاّح، عبد الغني: رحلة في ألف ليلة وليلة، ص ٤٨.

(٢) ألف ليلة وليلة، ٣/ ١٦٠-١٦١.

(٣) الطويل. د. توفيق: في تراثنا العربي الإسلامي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد السابع والثمانون، جمادى الآخرة، ١٤٠٥هـ/ مارس (آذار) ١٩٨٥م، ص ١٠٣.

وُضِعت في طب في مختلف اللغات القديمة». وقد عيّن الخليفة الرشيد مؤلف هذا الكتاب (يوحنا بن ماسويه) رئيساً لدار الحكمة، بعد أن كان مدرساً للطب في مدرسة جنديسابور، ومعالجاً للمرضى في بيمارستانها (مشفاها)[1]. وبلغ طب العيون في بغداد كماله بكتاب حقّقه حنين بن إسحاق (ت ٢٦٣هـ/ ٨٧٧م)، بعنوان: «العشر مقالات في العين» لمؤلفه جالينوس الحكيم، وقد زوده مؤلفه برسوم شائقة للغاية، وهي أول رسوم عرفت في تشريح العين، ثم هي أدق من كثير من مثيلاتها في الكتب الأوروبية في القرون الوسطى[2].

إن ساردي حكايات ألف ليلة وليلة، يقدمون بغداد الليالي، على أنها انعكاس لبغداد التاريخ في كثير من خلفياتها ومكوناتها المعرفية والاجتماعية. وطالما أن راوي الحكاية السابقة عايش حضارة بغداد، أو قرأ كثيراً عن ماضيها العلمي فطبيعي أن يوجه بطله من البصرة «الأقليم» إلى بغداد «المركز»، ليعالج عينيه، في ظل فيء هذه الحضارة المزدهرة.

إن بغداد في ألف ليلة وليلة تمثل مركزاً دينياً وفقهياً، يتخرج فيه الفقهاء والواعظون- وقد أتقنوا ما تعلموه خير إتقان- باعتبارها تاريخياً تمثل مركزاً عظيماً للثقافة وموئلاً للمذهبين الحنفي والحنبلي[3]. وها هو أحد الرواة يصف الواعظة، سيدة المشايخ، ببغداد قائلاً: «ما رأيت في النساء أذكى وأحسن فطنة وأغور علماً وأجود قريحة وأظرف أخلاقاً، من امرأة واعظة من أهل بغداد، يقال لها سيدة المشايخ»[4]. على أن سيدة المشايخ في بغداد، ليست هي الوحيدة في علمها ووعظها وفطنتها، بل هي- تاريخياً- نموذج أنثوي متعدد، في فضاء الحياة العلمية

(١) نادر، د. البير نصري: في «الفارابي، أبو النصر: كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين»، ص ٤٩-٥٠.
(٢) الطويل، د. توفيق: في تراثنا العربي الاسلامي، ص ١٠٣.
(٣) الدوري، د. عبد العزيز: «بغداد»، في: «بغداد»، دائرة المعارف الاسلامية، ص ١٢.
(٤) ألف ليلة وليلة، ٣/ ١٩٦.

ببغداد، وهذا النموذج استطاع أن يحصل كثيراً من معارف عصره المختلفة، مثله مثل الرجال، وربما يفوقهم، فعلى سبيل المثال يتجلى هذا النموذج في سيدة من بغداد، تسمّى خديجة بنت موسى الواعظة، وكانت هذه صالحة فاضلة، كتب عنها الخطيب البغدادي «مؤلف تاريخ بغداد»، وفي فاطمة بنت الحسين بن فضلويه، التي كانت واعظة، تجتمع إليها الزاهدات، في رباط خصصته للوعظ، وفي الشيخة فاطمة بنت الشيخ إبراهيم، التي كانت ذات سلطة وإقدام، وترجمة وكلام، في طريقة الحريرية[1].

ولم تكن بغداد في الليالي هي الصورة المشرقة دائماً في فضاء النصوص الحكائيّة، لأنها في أحيان كثيرة تنزاح عن هذه الصورة الجمالية والمعرفية، لتصبح فضاء للفقر، وليفتقد البسطاء والمهمّشون فيها إلى أدنى مستويات العيش الكريم، فعلى سبيل المثال بقدر ما كانت بغداد فضاء للمتعة، ولذة العيش، بالنسبة للسندباد البحري، فإنها بالنسبة للسندباد الحمال، كانت فضاء للبؤس والفاجع والاغتراب، فضاء لا يستطيع فيه السندباد الحمّال أن يحصل حتى على أبسط متطلبات حياته، وهي لقمة العيش، مع ملاحظة أن هذا السندباد الحمال، كان في خلافة هرون الرشيد، حيث أبهة العيش، والثراء الفاحش، الذي لم يصل إلى مثله ثراء، وذلك من خلال صيرورة الدولة الإسلامية وتعاقبها. تقول الحكاية: «كان في زمن الخليفة أمير المؤمنين هرون الرشيد بمدينة بغداد رجل يُقال له السندباد الحمال. وكان رجلاً فقير الحال يحمل تجارته على رأسه، فاتفق أنه حمل في يوم من الأيام حمولة ثقيلة، وكان ذلك اليوم شديد الحر فتعب من تلك الحمولة وعرق واشتد عليه الحر»[2]. وتستمر الحكاية إلى أن يجلس بجوار قصر السندباد البحري «في غاية النعمةوهو

---

(١) العلوي، هادي: فصول عن المرأة، دار الكنوز الأدبية، بيروت، الطبعة الأولى ٩٩٦م، ص٦٨

- وأخذ العلوي عن / ابن كثير، عبد الله: البداية والنهاية. دون أن يذكر دار النشر والمدينة وتاريخ الطبعة ورقم الصفحة.

(٢) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٣٩٦.

متلذذ بالروائح اللطيفة والمآكل اللذيذة، والمشارب الفاخرة في سائر الصفات... [والسندباد البري] في غاية التعب والذلّ»[1].

وتتجسد المفارقة أيضاً في حكاية «**الحمّال والبنات**» في زمن هرون الرشيد أيضاً، فالحمال لا يملك شيئاً، بينما البنات يرفلن بكل ما لذّ وطاب، من دار فسيحة ومأكل ومشرب تصف الوحدة السردية الآتية، ما تشتريه خادمة البنات، وتطلب من الحمال أن يحمله إلى دار البنات: «وقالت له [للجزّار] اقطع عشرة أرطال لحماً، فقطع لها، ولفّت اللحم في ورق موز ووضعته في القفص، وقالت له: احمل يا حمّال، فحمل وتبعها. ثم وقفت على النقلي وأخذت من سائر النقل (...) ووقفت على دكان الحلواني واشترت طبقاً وملأته من جميع ما عنده من مشبّك وقطائف (...) قم وقفت على العطّار واشترت منه ماء ورد وماء زهر وأخذت قدراً من السكر (...) وحصى لبان وعنبراً ومسكاً»[2]. وعندما يصل الحمّال إلى دار البنات، يجدها داراً فاخرة ترفل بالطنافس والذهب الأحمر[3]، ويستغرب مدهوشاً من هذا الثراء. ومن دائرة فقره، ورغبته في أن يستكشف عالم أثرياء بغداد، يرفض أن يخرج من منزل الفتيات، إلا بعد أن يعاين حقيقة ما يجري في هذا الفضاء الباذخ[4]. فبغداد في الليالي لم تكن ذلك الفضاء الآسر المخملي لكل الشخوص، بل إنها أعطت التجّار ورجال السلطة كل ما يشاؤون. وحرمت الفقراء الذين عاشوا غصّة ومرارة وفقراً مدقعاً، من أبسط الأشياء[5].

---

(١) م ن، ٣/ ٣٩٧.

(٢) م ن، ١/ ٤٦-٦٧.

(٣) م ن، ١/ ٤٧.

(٤) م ن، ١/ ٤٧.

(٥) ويبدو أن بغداد في بعض مراحلها التاريخية حرمت هؤلاء الفقراء من كل شيء، إذ ينقل الشاعر أبو العتاهية (ت ٢١٠هـ/ ٨٢٦م)، الذي عاصر خلافة محمد المهدي بن المنصور والهادي بن المهدي وهرون الرشيد، بعض هموم البسطاء والمهمّشين من رعية بغداد، وحرمانهم ومعاناتهم، وما تفرضه طبيعة الحياة من غلاء للأسعار. يقول: ===

وتظهر حكايات ألف ليلة وليلة في غير حكاية، الوجه السلبي لبغداد العباسيّة المزدهرة، فهي فضاء للقتل والسطو والنّهب، والناس فيها غير أمناء على أموالهم وممتلكاتهم، نتيجة لكثرة اللصوص. ففي حكاية «**علي بن بكار وشمس النهار**»، نجد إشارة واضحة إلى فضاءات اللصوص وأعمالهم. يقول التاجر أبو الحسن (1). «إن هذا المكان [مكان ببغداد] غير امن ونخشى على أنفسنا من التلف في هذا المكان بسبب اللصوص وأولاد الحرام». وها هو أحد الجيران يخبر جاره الجواهرجي كيف أن اللصوص سطوا على داره: «فقال له: إن اللصوص الذين جاءوا جيراننا بالأمس وقتلوا فلاناً، وأخذوا ما له قد رأوك بالأمس وأنت تنقل حوائجك إلى دارك الثانية فجاءوا إليها ليلاً وأخذوا ما عندك وقتلوا ضيوفك»(2).

ولا يكتفي اللصوص بسرقة أموال التجار فحسب، بل يجترئون على السلطة السياسية نفسها، وعلى أكثر الفضاءات حصانة وسطوة في هذه السلطة، وهو فضاء قصر الخليفة هرون الرشيد، إذ يقومون بقتل أفراد ينتمون إلى هذا القصر، وإلى من يحمي هذا القصر، وهو فضاء دار صاحب الشرطة. تقول الحكاية السابقة: «إن الذين دخلوا دارك وأخذوا متاعك قد قتلوا أحسن جماعة من دار الخليفة، وقتلوا جماعة من دار صاحب الشرطة»(3).

=== من مـبلغ عني الإمـا   م نصائحاً متتاليه
أني أرى الأسـعـار، أسـ   ـعار الرعية، غاليه
وأرى المكاسب نزْرَةً،   وأرى الضرورة فاشيه
من يُرتَجى لدفاع كـر   ب مُلِمّة، هي، ماهيه
مَنْ للبطون الجائعـا   ت، وللجسوم العاريه
يا ابن الخلائق لا فُقِدْ   ت، ولا عدمت العافية
ألقيت أخباراً إليـ   ـك من الرّعيّة شافيه.

– أبو العتاهية، اسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان: ديوان أبي العتاهية، دار صادر للطباعة والنشر/ دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، طبعة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م ص ٤٨٧.

(١) ألف ليلة وليلة، ٢/ ١٩٠.

(٢) م ن، ٢/ ٢٠٤.

(٣) م ن، ١/ ٢٠٥.

إن نساء بغداد من الحرائر والجواري، ورجالها من القادة والتجار والعبيد-وبمختلف تبايناتهم الطبقية- يصبحون ملوك الحيلة والنصب في بعض الحكايات، فهم يتقنون أحدث فنون الاحتيال، وأكثرها مهارة وتعقيداً، وتشابكاً، بحيث يستحيل على المحتال عليه أن يكشف كل خيوط الحيلة. وتشكل حكاية **«علي الزيبق المصري ودليلة المحتالة»**، أهم الحكايات التي تتجلى الحيلة فيها، بأعلى تقنياتها، فهناك زينب النصابة بنت دليلة المحتالة، وعلي الزيبق المصري وأحمد الدنف وحسن شومان، وكلهم نصابون محتالون وها هي زينب النصابة تذكر لأمها دليلة، الحيل التي حبكتها في يوم واحد: «أنا لعبت أربع مناصف على أربعة أشخاص، ابن التاجر، وامرأة شاويش، وصباغ وحمّار، وجئت لك بجميع حوائجهم علي حمار الحمّار» (1). وها هي أمها دليلة تكمل حيلة ابنتها، وتحتال على يهودي، وعلى والي بغداد، وعلي أحد مزيني بغداد، وتأخذ الرجال الذين احتالن عليهم ابنتها، بالإضافة إلى اليهودي والمزين إلى زوجة الوالي نفسه لتحتال عليها أيضاً، إذ تدعي أمامها أن هؤلاء الرجال مماليك، ويريد الوالي شراءهم، وأنها مكلفة بإيصالهم إلى دار زوجها الوالي، وقبض ثمن مبيعهم. وعندما سمعت زوج الوالي ادعاءها وثقت بكلامها، وأعطتها ألف دينار، فرجعت دليلة إلى ابنتها زينب لتقول لها(2): «يا ابنتي لعبت منصفاً وأخذت ألف دينار من زوجة الوالي وبعت الخمسة رجال لها، وهم الحمّار واليهودي والصباغ والمزين وابن التاجر وجعلتهم مماليك».

ويبدو أن بغداد تتفوق على مصر في الحيلة والشطارة في مواضع قليلة، فإذا كان علي الزيبق المصري، يظن أنه زعيم للمحتالين والشطار في مصر، وأنه يستطيع أن يتفوق بسهولة على كل محتالي بغداد، فإن سيده أحمد الدنف في بغداد، ينبهه

---

(1) ألف ليلة وليلة، ٤/ ١٢١.

(2) م ن، ٤/ ١٢٩.

إلى تركيبة بغداد الاجتماعية والسياسية، ويدعوه إلى التريث لثلاثة أيام، حتى يفهم بنية الاحتيال في بغداد، يقول له: «يا ولدي لا تحسب أن بغداد مثل مصر. هذه بغداد محل الخلافة وفيها شطار كثيرون ونبتت فيها الشطارة كما ينبت البقل في الأرض»[١].

لقد عرف قسم من الشطار في الدولة العباسية، في عهدي الخليفتين محمد المهدي بن المنصور (١٥٨-١٦٩هـ - / ٧٧٥-٧٨٥م)، وهرون الرشيد بن المهدي، بأنهم أفاقون ومتشردون، وعاطلون ومشاغبون ومكدّون (محتالون وشحاذون)، ومقامرون ومخمورون، وفساق ولصوص، ومشبوهون، وهذا القسم لا يقيم وزناً لعرف أو عادة أو تقليد أو شريعة[٢]، ويطلق الطبري[٣] على هذا القسم من الشطار تسميات عديدة، مستمدة من قاموسه التاريخي، ومن قاموس شعراء عصره فهم السفلة والغوغاء، والرعاع، والأوباش الطّغام من الأنام، وأهل الشر والشغب والزّعارة، وأهل السجون الذين لا مأوى لهم سوى الحمّامات والمساجد، وهم في نظره يزرعون الفساد في طرق المسلمين، فقد «ضاقت بهم طرق المسلمين. حتى إن الرجل [منهم] ليستقبل المرأة في زحمة الناس فيلتثّان قبل التخلص».

وتشير حكاية «**علي شار وزمرد الجارية**» إلى الوجه الفاسق واللصوصيّ والمغتصب للشطار في بغداد[٤] فها هو الشاطر جوان الكردي، بينما كان يتجول لسرقة المنازل، يشاهد فجأة (زمرد الجارية) هاربة من منزل مختطفها برسوم

---

(١) م ن، ١٤٧/٤.

(٢) عبد المولى، د. محمد أحمد: العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، الطبعة الثانية، د. ت ص ٤١.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، (تاريخ الطبري)، ٨/ ٤٦٧-٤٦٨.

(٤) فضاء هذه الحكاية هو فضاء بلاد خراسان، وحتى يتعرض الراوي إلى بعض مظاهر حياة الشطّار والمحتالين، فإنه ينقل أحداث الحكاية إلى بغداد المركز، وتحديداً في فترة خلافة هرون الرشيد، إذ يذكر شطّار تلك الفترة، الذين ترد أسماؤهم في الحكايات البغدادية، وربما يكون السبب في ذلك، هو أن الشطّار والعيّارين، أول ما ظهروا، ظهروا بمدينة بغداد قبل آية مدينة إسلامية أو عربية أخرى.

النصراني، فيحتال عليها ويخطفها، وعندما تسأله: من أنت؟ يجيب: «يا عاهرة أنا الشاطر جوان الكردي من جماعة أحمد الدنف ونحن أربعون شاطراً وكلهم في هذه الليلة يفسقون في رحمك من العشاء إلى الصباح.» [1]. هذا وتجدر الإشارة إلى أن أحمد الدنف وجماعته في حكاية «**علاء الدين أبي الشامات**»، يمثلون وجه السلطة السياسية في بغداد، في عهد هرون الرشيد. ولم يمارس الشطّار وحدهم، ولا النساء والجواري والقوّادات، الاحتيال في بغداد العباسية فحسب، بل مارسه كبار القوم، وممن يتربعون عرش السلطة السياسية، كما تذكر حكاية «**غانم بن أيوب وقوت القلوب**»، فقد احتالت السيدة زبيدة زوجة الخليفة هرون الرشيد على إحدى حظايا زوجها -قوت القلوب- [2]. وقد مارس الرشيد فنون الاحتيال، أيضاً، فقد كان يحتال على زوجته السيدة زبيدة[3].

ومن الوجوه السلبية لبغداد مرآة الحضارة العباسية في حكايات ألف ليلة وليلة، انتشار المعاصي والفجور، وارتكاب المنكر بكل أشكاله. وقد تورط نساء الليالي ورجالها، بطبقاتهم الاجتماعية، وعلى حدّ سواء، في ارتكاب المعاصي والفجور. فنقرأ في حكاية «**الحمّال والبنات**»، كيف أن بوابة القصر، والبنات من طبقة التجار، يعشن حياة عربيدية متهتكة مع الغرباء الذين يدخلون منزلهن: «ثم أحضرت ما يحتاجون إليه، ثم قدمت المُدام وجلست هي وأختها وجلس الحمّال بينهن وهو يظن نفسه أنه في المنام. ولم يزل الحمّال معهن في عناق وتقبيل»[4].

وقد انتشر الفجور والمعاصي في بغداد ألف ليلة وليلة، واستفحل في منازل الطبقة الثرية. فهاهي الأميرة دنيا البرمكية، أخت الوزير جعفر البرمكي، تتحايل على التاجر محمد ابن علي الجوهري، وتستدعيه إلى قصرها وتلاطفه، تمهيداً

(١) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٤٠.
(٢) م ن، ١/ ٢٢٩-٢٣٠.
(٣) م ن، ٣/ ١٥٦.
(٤) ألف ليلة وليلة. ١/ ٤٩.

لإقامة طقوس الفعل الجنسي في منزلها: «وقالت [دنيا البرمكية]: يا نور عيني، هل كل من كان مليحاً مثلك لا يرثي لمحبوبته؟ فقلت: يا سيدتي الحسن كله فيك وهو من بعض معانيك. فقالت: يا جوهري اعلم إني أحبّك وما صدقت أنّي أجيء بك عندي. ثم مالت علي فقبّلتها وقبّلتني وإلى جهتها جذبتني وعلي صدرها رمتني. وعلمت من حالي أني أريد وصالها»[١].

وربما تكون هذه الصورة متخيلة نتيجة لجموح خيال الراوي الشهواني الذي عاش مجتمعاً طبقياً استطاع الأغنياء فيه أن يحققوا كل شيء، بينما هو لم يستطع أن يكون فاعلاً، لا اقتصادياً ولا جنسياً، لكن هذه الصورة، في حقيقة الأمر، تعكس وضعاً اجتماعياً مغموساً بالملذات والشهوة، شهدته بغداد العباسية، في أوج ازدهارها التاريخي والمعرفي، فقد مارس كبار القوم في بغداد المزدهرة تهتكاً وفجوراً وفساداً أسطورياً، إذ أخذت كؤوس الخلاعة والفسوق تدور داخل قصورهم[٢]. وقد أسهم في انتشار المعاصي ببغداد الليالي، هذا الكم الهائل من الجواري ذوات الجنسيّات المتعددة، والمختلفة الأشكال والألوان، والقادمات إلى بغداد بفعل نشاط تجارة الرقيق.

وتشير حكاية «**الحمال والبنات**» إلى أن محمد الأمين بن هرون الرشيد كان يعتدي جنسياً على الجواري في بغداد، ويأخذ أموالهن غصباً: «يا أمير المؤمنين أنا أدلّك على من فعل لهذه الصبية هذا الفعل وظلمها وأخذ مالها وهوأقرب الناس إليك (...) ثم قالت: يا أمير المؤمنين إن الذي ضرب الصبية ولدك الأمين، فإنه كان يسمع بحسنها وجمالها»[٣].

---

(١) م ن، ٢/ ٤٣٥-٤٣٦.
(٢) لاندور، روم: الاسلام والعرب، ص ٣٦.
(٣) ألف ليلة وليلة، ١/ ٨٨.

وتذكر المصادر التاريخية أن الخليفة محمد الأمين، كان أكثر خلفاء بغداد ارتكاباً للمعاصي، من حيث معاقرته للخمرة، وولعه بالغلمان فقد «كان يعيش للخمرة المسكرة يشربها أرطالاً وكأنما كان في قلبه جذوة من الغرام بها لا سبيل إلى إطفائها إلا بشرابها متتابعاً، حتى ليصل أحياناً مساءه فيها بصباحه»[1]. وقد كان ولعاً بالغلمان، إذ استقدمهم وقرّبهم، وفضلهم على الجواري، «ويُروى أن الأمين حين أفضت إليه الخلافة قدّم الخصيان، وآثرهم، فشاعت قالة السوء فيه، ورأت أمه زبيدة دَرْءاً لتلك القالة أن تبعث إليه بعشرات من الجواري، ألبستهن لبس الرجال، حتى ينصرف عن الخصيان»[2].

ومن هنا، لا نستغرب، إزاء سلوك الأمين واستهتاره، أن يقول فيه نديمه أبو نواس[3] هاجياً:

احمدوا الله كثيراً	يا جميع المسلمينا
ثم قولوا لا تملّوا	ربّنا أبق الأمينا
صيّر الخصيان حتى	جعل التصيير دينا
فاقتدى الناس جميعاً	بأمير المؤمنينا

وقد أشار الموروث الشعري العربي، إلى تفشي المعاصي والكبائر ببغداد، معتبراً أن هذه المعاصي كانت فيما بعد سبباً من أسباب نكباتها، وزوال عزّها. يقول الشاعر العبّاسي أبو يعقوب الخريمي[4] (ت ٢٠٥هـ/ ٨٢١م) بعد وقعة الحربية سنة ١٩٧هـ/ ٨١٣م، التي دارت بين الأمير وأخيه المأمون:

---

(١) ضيف، د. شوقي : العصر العباسي الأول، ص ٦٦.

(٢) م ن ، ص ٧٣.

(٣) ديوان أبي النواس ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٥٥٤.

(٤) عن / تاريخ الطبري ، ٨/ ٤٥٠-٤٥١.

يا بؤس بغـــــداد دار مملكة		دارت على أهلهـــــا دوائرها
أمـهلها الله ثم عـاقبـهـا		لما أحـاطت بهـا كـبـائرها
كم قد رأينا من المعاصي ببغداد		فـهل ذو الجـلال غـافـرها!
حلّت ببـــغـــداد وهي آمنة		داهيـــة لم تكن تحـــاذرها
طالعها السوء من مطالعه		وأدركت أهلهـــا جـــرائرها
رق بها الدين واسُخِفَ بذي الـ		ـفضل وعَزَّ النُّساك فاجـرُها
وخطّم العـبـد أنف سـيّده		بالرغم واستُعبِدت حرائرها
وصار ربّ الجيران فاسقهم		وابتـزّ أمـر الدّروب ذاعـرُها

إذا كانت خراسان المحطة الأولى في السرد كما ذكر سابقاً، أو الخلية الأولى في ألف ليلة وليلة والتي تتوالد منها خلايا أخرى، وتتوزع في جسد الحكايات، فإن بغداد هي أهم المحطات المركزية التي ينطلق منها الأبطال، ثم يعودون إليها ثانية، وما إن يخرج هؤلاء الأبطال من بغداد حتى يتقدوا شوقاً إلى ملذاتها ونسائها ولعل شوق السندباد البحري وحنينه إليها يمثل قمة هذا الشوق فعندما يخرج منها سرعان ما يبدأ قلقه، ثم يزداد سأمه في الأماكن التي يصل إليها، ثم يتأجج حنينه إلى بغداد. يقول السندباد في سفرته الأولى: «وأنا كلما أشق على جانب البحر أسأل التجاو والمسافرين والبحريين عن ناحية مدينة بغداد، لعل أحداً يخبرني عنها فأروح معه إليها وأعود إلى بلادي (...) وقد تحيرت من ذلك وسئمت من طول الغربة»[1].

يحن السندباد في سفرته الأولى إلى بغداد، ويمل مدينة الملك المهرجان، على الرغم من جمالها، وعلى الرغم من مركزه الوظيفي المهم جداً في المدينة، إذ كان ملك المدينة قد عينه عاملاً على مينائها، وقربّه وأكرمه: «ثم إنه أحسن إليّ [ملك المدينة] وأكرمني وقرّبني إليه وصار يؤانسني بالكلام والملاطفة، وجعلني عنده

(١) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٤٠٤.

عاملاً على ميناء البحر كاتباً على كل مركب يعبر إلى البرّ»[1]. مع ملاحظة أن هذه الوظيفة المهمة (عامل الميناء)، هي من المناصب المهمة وصاحبها يحتل موقعاً متميزاً في الدولة، لأنه يمكن اعتباره من أعوان السلطة ورجالها، نظراً لسلطته على حركة التجارة والمراكب التي تدخل الميناء وتخرج منه. والفئات التي يمكن اعتبارها ذات مواقع متميزة في المدينة الإسلامية، وتتفوق على غيرها من بقية الفئات هي: رجال السلطة، ورجال الدين، وفئة التّجار[2].

إن خيوط الوحدات السردية في سفرات السندباد، تبتدئ من بغداد، ثم تمتد بعيداً إلى مدن أخرى، لتنتهي في بغداد. وهنا يمكننا أن نتخيل بغداد مركز دائرة كبيرة، تدور حوله المدن التي يصل إليها السندباد، أو التي تتموضع حوله في كل سفرات السندباد.

ففي السفرة الأولى[3]:

يسافر السندباد من بغداد (ص٤٠٠) إلى ← البصرة (٤٠٠) ← مدينة الملك المهرجان (مدينة لا اسم لها)، (٤٠٤) ← جزيرة كابل (إحدى جزر مدينة الملك المهرجان)، (٤٠٥) ← الرجوع إلى البصرة (٤٠٧) ← بغداد (٤٠٨).

وفي السفرة الثانية[4]:

يسافر السندباد من بغداد إلى البصرة ← عدة جزر لا يذكر السندباد اسماً لها

---

(١) م س، ٣/ ٤٠٤.

(٢) زيادة، د. خالد: «الخسيس والنفيس في المدينة الإسلامية»، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس (ليبيا)، السنة الرابعة، العدد التاسع والعشرون، تشرين الأول/ أكتوبر، تشرين الثاني/ نوفمبر، ١٩٨٢م، ص ١٦٠.

(٣) ألف ليلة وليلة ٣/ من ص ٣٩٩ إلى ص ٤٠٨. ، سيشار إلى رقم الصفحة داخل المتن بجوار أسماء المدن في كل سفرات السندباد وذلك للتخلص من كثرة الهوامش.

(٤) م ن، ٣/ من ص ٤٠٨ إلى ص ٤١٥.

(٤٠٩) ← جزيرة عظيمة (لا اسم لها)، (٤١٤) ← إلى مدن كثيرة (لا اسم لها)، (٤١٥) ← البصرة (٤١٥) ← بغداد (٤١٥).

في السفرة الثالثة[١] :

من بغداد (١١٨) ← البصرة (١١٨) ← جزيرة (لا اسم لها)، (١١٨) ← جبل القرود (١١٨) جزيرة (لا اسم لها)، (١٢١) ← جزيرة السلاهطة (١٢٥) بلاد ما وراء البحار (١٢٤) ← البصرة (١٢٥) ← بغداد (١٢٥).

وفي السفرة الرابعة[٢] :

من بغداد (٤٢٦) ← البصرة (٤٢٦) ← جزر كثيرة (لا اسم لها)، (٤٢٦) ← جزيرة (لا اسم لها) بعد أن كسرت سفينة السندباد (٤٢٧) ← مدينة عامرة بالأهل والمال (لا اسم لها)، (٤٢٩) ← جزر كثيرة (لا اسم لها)، (٤٣٦) ← البصرة (٤٣٦) ← بغداد (٤٣٦).

وفي السفرة الخامسة[٣] :

من بغداد (٤٣٧) ← البصرة (٤٣٧) ← عدة جزر (لا اسم لها)، (٤٣٨) ← جزيرة خالية من السكان، وهي جزيرة طائر الرخ (٤٣٨) ← جزيرة (بعد أن كسرت سفينة السندباد)، (٤٣٩) ← مدينة القرود وهي في أقصى بلاد السودان (٤٤٣) ← عدة جزر في طريق العودة (م ٤/ ٥) ← البصرة (٥) ← بغداد (٥).

---

(١) نظراً لأن مدن هذه السفرة ناقصة في طبعة دار مكتبة الحياة، فإني أستخدم طبعة أخرى، وهي : ألف ليلة وليلة، المكتبة الشعبية للطباعة والنشر، بيروت، المجلد الثالث، د.ت، من ص ١١٧ إلى ص ١٢٥.

(٢) ألف ليلة وليلة، طبعة دار مكتبة الحياة، ٣/ من ص ٤٢٥ إلى ص ٤٣٧.

(٣) ألف ليلة وليلة، من ص ٤٣٧ من المجلد الثالث إلى ص ٥ من المجلد الرابع.

وفي السفرة السادسة[1] :

من بغـداد (٦) ←البصرة (٦) ومن مـدينة إلى مـدينة، (لا أسـماء لهـا)، (٦)←جزيرة (محطة نجاة بعد أن كسرت سفينة السندباد)، (٧) ←مدينة لا يعرف السندباد اسماً لها كما يقول (١١)← البصرة (١٢) ←بغداد (١٣).

وفي السفرة السابعة[2] :

من بغـداد (١٤) ←البصرة (١٤) ←إقليم الملوك في آخر بحار الدنيا (١٥)←جـزيرة عظيـمـة (جـزيرة أمـان)، (١٦) مـدينة عظيـمـة (لا اسم لهـا)، (١٧)← البصرة (٢٣) ←بغـداد (٢٣). ومـخطط الدائرة الآتي يوضح تموضع المدن التي يصل إليها السندباد، حول مركز الدائرة بغداد :

(١) م ن، ٤/ من ص ٦ إلى ص ١٤.

(٢) م ن، ٤/ من ص ١٤ إلى ص ٢٣.

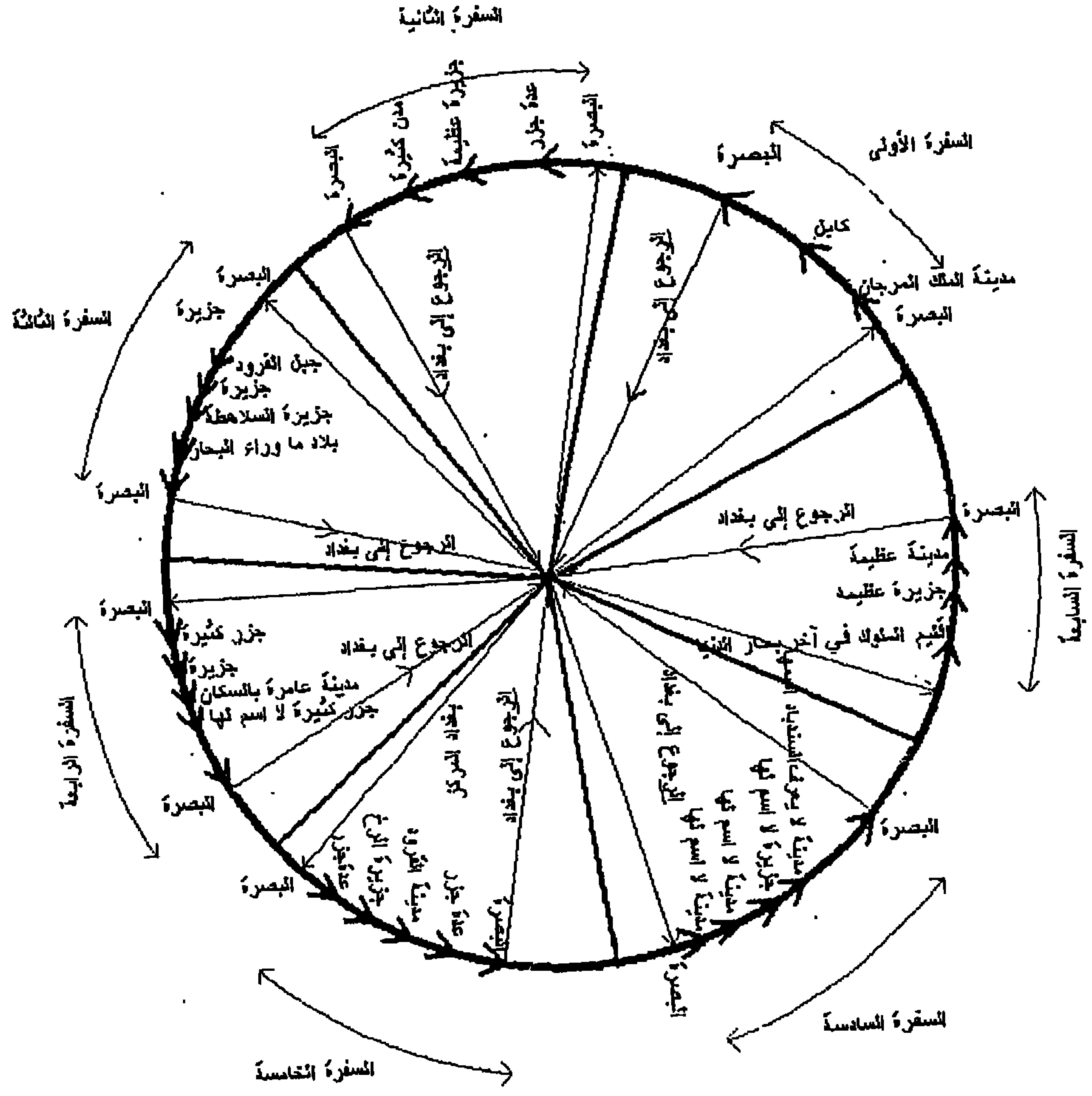

السفرة الأولى
البصرة
كابل
مدينة الملك المرجان
البصرة
الرجوع إلى بغداد
السفرة الثانية
البصرة
عدة جزر
جزيرة عظيمة
مدن كثيرة
البصرة
الرجوع إلى بغداد
السفرة الثالثة
البصرة
جزيرة
جبل القرود
جزيرة
جزيرة السلاحطة
بلاد ما وراء البحار
البصرة
الرجوع إلى بغداد
السفرة الرابعة
البصرة
جزر كثيرة
جزيرة
مدينة عامرة بالسكان
جزر كثيرة لا اسم لها
البصرة
الرجوع إلى بغداد
السفرة الخامسة
البصرة
الرجوع إلى بغداد المركز
السفرة السادسة
البصرة
البصرة
السفرة السابعة
البصرة
مدينة عظيمة
جزيرة عظيمة
الرجوع إلى بغداد

من خلال المخطط السابق يمكن القول: إن كل رحلة سندبادية تشكل دائرة[1] وعلى محيط هذه الدائرة تتراص الأقاليم والجبال والجزائر والمدن، وأول مدينة مهمة على هذا المحيط هي البصرة، وآخر مدينة عليه هي البصرة أيضاً، فهي مرفأ الأمان. وبعد أن يصل السندباد إلى ميناء البصرة، يدخل في المركز الأكثر أماناً، مدينة بغداد، مدينة الأماني الجميلة، حيث المآكل الطيبة، والشراب واللهو والطرب، والأصدقاء والجواري الجميلات.

يقول السندباد[2] في نهاية سفرته الثالثة: «إني لما عدت إلى مدينة بغداد اجتمعت على أصحابي وأحبابي وصرت في أعظم ما يكون من الهناء والسرور والراحة، ونسيت ما كنت فيه لكثرة الفوائد وغرقت في اللهو والطرب ومجالسة الأحباب والأصحاب وأنا في ألذ ما يكون من العيش».

ولم تكن بغداد في الليالي ملاذاً أو مدينة حميمة لأبنائها فسحب، بل كانت فضاءاً آمناً لكثير من الشخوص الغرباء [3]، الذين فضلوها على بلدانهم، فمنار السنا، ابنة ملك الجان في واق الواق، ترفض مجد أبيها وهيبته وسطوته بين الجزائر الكثيرة، وتأتي لتعيش في بغداد مع زوجها حسن البصري، لأنها عايشت جمال

---

(١) وتتشكل الرحلة الدائرية حول المدينة المركز (بغداد) في غير حكاية، إذ تكون هذه المدينة نقطة انطلاق الشخوص والأبطال، ثم تصير فيما بعد نهاية مطافهم. ومن خلال انتقال الوحدات السردية يوزّع الرواة المدن الأخرى، التي تتحدد وظيفتها في أن تكون محطات استراحة، أو محطات إغارة، أو محطات تسكن فيها النساء الجميلات المحبوبات، اللواتي يشكلن غاية الغايات، أو محطات تكون سبباً في الثراء المالي. ومن هذه الحكايات: حكاية «حسن الصائغ البصري»، [٤/ ٣٢١، ٣٦٩]. وحكاية «علاء الدين أبي الشامات». [٢/ ٣٨٤، ٣٩٢، ٣٩٨، ٣٩٩].

(٢) ألف ليلة وليلة، طبعة المكتبة الشعبية، ٣/ ١٢٥.

(٣) ومن هؤلاء الشخوص: علاء الدين أبو الشامات، والأميرة (حُسن مريم)، في حكاية «علاء الدين أبو الشامات». وأحمد الدنف، وعلي الزيبق المصري في حكاية «علي الزيبق مع دليلة المحتالة»، وغيرهم.

بغداد سابقاً، ولا تستطيع أن تفارقها. تقول[1] معلنة شوقها إلى بغداد، مدينة زوجها:

وطرفي إلى أوطانكم متلفت ... وقلبي على أيامكم متلهف
وكم ليلة بتنا على غير ريبة ... محبين يهنينا الوفا والتلطّف

إن الخروج من بغداد

هو خروج صوب المجهول، تكتنفه الحيرة والخوف والجوع، والنفي والضياع. يقول الراوي عن خروج الأمير كان ما كان: «فإنه لما خرج من بغداد صار متحيراً في أمره، ولم يدر إلى أين يتوجه. ثم إنه سافر في البر ثلاثة أيام وحده ولم ير راجلاً ولا فارساً. فطار رقاده وزاد سهاده وتفكر أهله وبلاده، وصار يتقوت من نبات الأرض ويشرب من أنهارها»[2]. وإن الدخول إلى بغداد يعني الأبهة والعظمة، والأمان والنعيم، وذهاب الذي الذي كان قد لحق الشخصية عندما فارقت بغداد. يقول الراوي عن رجوع «كان ما كان» إلى بغداد: «فأخرج [الملك ساسان] جميع العساكر ووجهاء بغداد لملاقاته. فخرج كل من بغداد ولا قوه، ومشوا قدّامه إلى القصر (...) ثم أمر أن يحضروا لكان ما كان خلعه سنية وجملة من الخيل، وأفرد له في القصر أكبر الدور، وأقبل عليه العز والسرور، وأعطاه مالاً جزيلاً وأكرمه غاية الإكرام (...) ففرح كام ما كان بذلك وذهب عنه الذّل والهوان»[3].

وتذكر المصادر التاريخية، أن بغداد كانت قادرة على إعطاء الداخلين إليها ما يرغبون فيه، من رفاهية العيش ولذاته، فقد وُجد مكتوباً على بعد أميال قليلة منها، وعلى طريق مكة:

(١) ألف ليلة وليلة، طبعة دار مكتبة الحياة، ٤/ ٣٤٣ ومن الآن فصاعداً فإن كل الإشارات إلى أرقام الصفحات ستعود إلى طبعة دار مكتبة الحياة، وذلك في كل فصول هذه الدراسة.
(٢) ألف ليلة وليلة، ٢/ ٩٠.
(٣) م ن، ٢/ ٩٨.

أيا بغـــداد يا أســـفي عليك! متى يُقضى الرجوع لنا إليك؟
قنعنـا ســالمين بكل خــيــر. وينعم عيشنا في جانبيك(١)

إن شخوص ألف ليلة وليلة مندفعون للرجوع إلى مدنهم التي هاجروا منها، طَوعاً أو كَرْهاً، وهم محكومون بحنين قوي إليها، إذ تدفعهم الحياة بقوة إلى مدنهم الأصلية، أو لنقل بتحديد أكثر يدفعهم السرد الحكائي للعودة، وذلك لرغبة السارد في فكّ عقدة الحكاية في المدينة الأصل، التي امتدّت منها خيوطها. إن فكّ عقدة الحكاية في المدينة المركز، هو في أحدوجوهه الإشارية استمرار لسطوة القصر المركزية، لأن الملك أو السلطان أو الخليفة المروي له، يعدّ على المستوى النفسي أن خروج الشخصيات من المدينة المركز، وعدم عودتها إلى هذا المركز هو تمرّد على سطوة قصره، إو سطوة قصر المدن المركزية الأخرى، التي تلتقي في كثير من قسماتها وبنياتها الاجتماعية والسياسية مع قصوره في مدينته، ولأن الراوية الأولى شهرزاد وقفت طائعة ذليلة، وهي تروي الحكايات في قصر سيّدها شهريار، وكرست فكرة القصر المركزي والمدينة المركزية والسلطة المركزية، والأبطال الذين لا يتجاوزون هذا المركز مهما كانوا عتاة، فإن الرواة الآخرين كرسوا فكرة المركز، حتى ولو كانوا أعداء له. ومن الحكايات التي تكرس فكرة المركز حكاية **«الأحدب وملك الصين»**(٢)، إذ يبتدئ السرد من الصين وينتهي في الصين، وتكون حركة السرد قد خطّت مساراً دائرياً، تموضعت عليه البلدان والمدن الاتية: الصين (١/ ١٢٤)، مصر (١/ ١٢٨)، بغداد (١/ ١٣٠)، دمشق (١/ ١٤٤)، الموصل (١/ ١٥٠)، الصين (١/ ١٦٢). وإذا كان الراوي يسرد الحكايات المتشعبة الداخلة في حكاية **«الأحدب وملك الصين»**، أمام ملك الصين، فإنه لا ينسى الاحتفاء

(١) معجم البلدان، ١/ ٤٦٢.

(٢) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٢٤، إلى ص ١٧٧. وسيشار إلى أرقام الصفحات في المتن بجوار البلدان والمدن التي يذكرها السرد في حكاية «الأحدب وملك الصين».

ببغداد المركز، احتفاء يفوق احتفاءه بالصين وملكها، إذ يستحضر بغداد الزّمان والذكريات، والعيش الفاره، والحنين إلى نسائها الدافئات، لتسع مرات داخل الحكاية(١).

هذه هي بعض ملامح مدينة بغداد كما ذكرتها حكايات ألف ليلة وليلة، وهذه الملامح لا تختلف كثيراً عن ملامحها التاريخية والحضارية المزدهرة، كما ذكرتها المصادر والمراجع فقد أُنشِئت هذه المدينة لتجسّد «الطموح إلى الجديد، ورمزية الجدّة، ومعنى الإمبراطورية وعزتها»(٢).

إن موقعها الجغرافي المتميز، كما يشير أحمد بن إسحق بن واضح اليعقوبي(٣) (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م) باعتبارها «مفترق طرق بين بحار الشرق وبحار الغرب، وبين بلدان العرب والعجم وبين دجلة والفرات»، جعلها في نصوص ألف ليلة وليلة، أهم فضاء مكاني في ارتحالات السرد، وحركة الأبطال، وتشكيل الأحداث. وقد حاولت أن أركز على أهم ملامحها كما وردت في نصوص الليالي، تاركاً ملامح أخرى، حتى يتسع هذا الفصل للحديث عن مدينة أخرى مهمة، وهي مدينة البصرة.

---

(١) وذلك في المجلد الأول، وفي الصفحات: ١٣٠، ١٣٩، ١٥٠، ١٥٦، ١٦٠، ١٦٦، ١٦٨، ١٧٤.

(٢) جعيط، د. هشام: الكوفة - نشأة المدينة العربية الإسلامية، ص ٤٣٨.

(٣) عن / ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام البشرية، الجزء الرابع، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص ٣٨٣.

٣ - البصرة

آ - لمحة تاريخية عن البصرة:

إن للموقع الجغرافي لمدينة من المدن أهمية كبيرة في تاريخ هذه المدينة، وفي أنماط العيش فيها، وفي تفاعلاتها الحضارية والمعرفية والتجارية مع المدن التي تحيط بها. فالمدن ذات المواقع الجغرافية المتميزة، تلعب دوراً كبيراً في أحداث التاريخ وصيرورته، كون هذا التاريخ يتعايش مع هذه المدن، ويخط حوادثه، وحركات الأشخاص، ثم يحدد دورهم في صناعته.

وقد أسهم موقع البصرة الجغرافي في أن تأخذ - تاريخياً- أدواراً مهمّة، في السياسية والاقتصاد، والفكر والفن والأدب، والعمران. فالبصرة من أهم الموانئ الثلاثة على الخليج العربي، التي أسهمت في تطور التجارة البحرية، وهي: سيراف على الشاطئ الشرقي من الخليج، والبصرة على الساحل العراقي في الشمال، ومسقط على الساحل العُماني في الجنوب[1]. وقد «كان العرب يسمّون البصرة قبل التمصير أرض الهند، ويسمون بحرها بحو الصين، ويرجع ذلك إلى أنها كانت منتهى التجارة البحرية القادمة من الصين والهند، وكانت تجارة ناشطة منذ قرون تسبق الإسلام»[2]. وتحدد الجغرافيا القديمة أن طول البصرة أربع وستون

(١) الخوري، د. فؤاد اسحق: القبيلة والدولة في البحرين- تطور نظام السلطة وممارستها، معهد الأنماط العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٣م، ص ٢٨.

(٢) العلوي، هادي: «البصرة في ذاكرة الحضارة»، مجلة البديل، اتحاد الكتّاب والصحافيين العراقيين، لا. ب، العدد العاشر، تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٨٧م، ص ٩.

درجة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة، وهي في الإقليم الثالث[1]. وسُميّت بالبصرة لأن فيها حجارة سوداء صلبة. وذكر الشرقي بن القطامي[2]: «أن المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها نظروا إليها من بعيد وأبصروا الحصى عليها، فقالوا: «إن هذه أرض بصرة، يعنون حَصْبة، فسميّت بذلك».

مُصِّرَت البصرة عام ١٤هـ/ ٦٣٥م. بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب، بعد أن تمّ إرواج الساسانيين[3] نهائياً من العراق[4]، وذلك لأن عُتبة بن غزوان[5] عندما شارك في فتح العراق، وبعد معركة القادسية، توجه إلى الجنوب لتطهيره من الساسانيين، وعسكر في موضع قريب من شط العرب[6]، وكتب إلى الخليفة عمر يستأذنه في تمصير البصرة قائلاً: «إنه لا بدّ للمسلمينْ من منزل إذا أشتى شتَوا فيه وإذا رجعوا من غزوهم لجأوا إليه. فكتب إلى عمر: أن ارتد لهم منزلاً قريباً من المراعي والماء واكتب إليّ بصفته، فكتب إلى عمر: إني قد وجدت أرضاً كثيرة القَضّة في طرف البرّ إلى الريف ودونها مناقع فيها ماء وفيها قَصَباء»[7]. وعندما

---

(١) معجم البلدان، ١/ ٤٣٠.

(٢) م ن، ١/ ٤٣٠.

(٣) الساسانيون: سلالة فارسية ساسانية تنتسب إلى ساسان أحد كهنة الإلهة آناهيتا. ملكت بين ٢٢٦م - ٦٥١م. أسسها أردشير الأول. أشهر ملوكها: شابور، الأول وشابور الثاني وكسرى أنوشروان.
- المنجد في الأعلام، ص ٣٤٤.

(٤) العلوي، هادي: «البصرة في ذاكرة الحضارة»، ص ٩.

(٥) عُتْبَة بن غَزْوان: (ابن جابر بن وهيب الحارثي المازني، ٤٠ ق.هـ- ١٧هـ/ ٥٨٤-٦٣٨م): باني مدينة البصرة. صحابي، قديم الإسلام. هاجر إلى الحبشة، وشهد بدراً. ثم شهد القادسية مع سعد بن أبي وقّاص. ووجّهه عمر إلى أرض البصرة والياً عليها، فاختطها عتبة ومصرها، وقَدِم المدينة لأمر خاطب به عمر بن الخطاب، ثم عاد فمات في الطريق. وكان طويلاً جميلاً من الرماة المعدودين.
- الزركلي، خير الدين: الأعلام، ٤/ ٢٠١.

(٦) العلوي، هادي: «البصرة في ذاكرة الحضارة»، ص١٠.

(٧) معجم البلدان، ١/ ٤٣٠. والقضّة: ما صغر أو تفتت من الحصى.
- المنجد في اللغة، مادة: قضّ، ص ٦٣٥.

وصلت الرسالة إلى عمر بن الخطاب، قال[1]: «هذه أرض بصرة قريبة من المشارب والمرعى والمحتطب، فكتب إليه [إلى عتبة بن غزوان] أن انزلها».

ويذكر المؤرخ علي بن الحسين المسعودي[2]، أن عتبة بن غزوان إنما خرج إلى البصرة من المدائن بعد فراغ سعد بن أبي وقاص[3] من حرب جَلُولاء وتكريت، وأنه قدم إليها وهي يومئذٍ تُدعى أرض الهند، وفيها حجارة بيض فنزل موضع الخُريبة، ومصّرها في ربيع سنة ست عشرة للهجرة، و«بنى دار إمارتها دون المسجد في الرحبة التي يقال لها رحبة بني هاشم، وكانت تُسمى الدهناء، وفيه السجن والديوان وحمّام الأمراء»[4].

ثم شهدت المدينة تطوراً وتخطيطاً عمرانياً، يتناسب مع زيادة عدد سكانها، إذ خُطّطت الشوارع الرئيسة والفرعية، فكان عرض الشارع الرئيس ستين ذراعاً، وعرض كل شارع من الشوارع الفرعية عشرين ذراعاً، أما الأزقة فكان عرض كل منها سبعة أذرع، وراعوا في هذا التخطيط، أن تكون هناك رحبات فسيحة لربط خيلهم، وقبور موتاهم، وجعلوا منازلهم متلاصقة[5]. وتؤكد المصادر أن منازلهم كانت في بداية الأمر من القصب، نظراً لقربه من موضع البناء، ونظراً لانشغالهم بالغزو والفتح، «فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب ثم حزموه ووضعوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءه كما كان»[6].

---

(١) م ن، ١/ ٤٣٢. والبصرة: الأرض الغليظة، والطين فيه حصى وحجارة رخوة فيها بياض.
- المنجد في اللغة، مادة: بَصَرَ، ص ٤٠.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر. ٢/ ٣٣٧.

(٣) سعد بن أبي وقّاص: (ابن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري، ٢٣هـ - ٥٥هـ/ ٦٠٠- ٦٧٥ م): فاتح العراق ومدائن كسرى، وأحد الستة الذين عينهم عمر بن الخطاب للخلافة، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. شهد بدراً وافتتح القادسية. ونزل أرض الكوفة وجعلها خططاً لقبائل العرب.
- الزركلي، خير الدين: الأعلام، ٣/ ٨٧.

(٤) معجم البلدان، ١/ ٤٣٢.

(٥) عثمان، د. محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ٦٥.

(٦) معجم البلدان، ١/ ٤٣٠.

لكن التطور العمراني الذي شهدته البصرة بعد الفتح الإسلامي كان في فترة ولاية أبي موسى الأشعري [1] (١٧-٢٩هـ/ ٦٣٨-٦٥٠م)، إذ عندما عين الخليفة عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعري والياً على البصرة قال له [2]: «يا أبا موسى، إني مستعملك؛ إني أبعثك إلى أرض قد باض بها الشيطان وفرّخ، فالزم ما تعرف، ولا تستبدل فيستبدل الله بك. فقال: يا أمير المؤمنين، أعني بعدّة من أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار، فإني وجدتهم في هده الأمة وهذه الأعمال كالملح لا يصلح الطعام إلا به (...) فاستعان بتسعة وعشرين رجلاً؛ منهم أنس بن مالك[3] وعمران بن حُصين [4] وهشام بن عامر» [5]. وعند وصوله إلى البصرة أخذ بتغيير الهيكلية العامة لمنشآتها الدينية والإدارية، ولمنازل سكانها، إذ «إن الناس اختطوا وبنوا المنازل، وبنى أبو موسى الأشعري المسجد ودار الإمارة بلبن وطين، وسقفها بالعشب، وزاد في المسجد» [6].

---

(١) أبو موسى الأشعري: (عبد الله بن قيس بن سليم بن حرب، ٢١ ق.هـ-٤٤هـ/ ٦٠٢-٦٥٥م): صحابي، من الولاة الفاتحين، وأحدالحكمين الذين رضي بهما عليّ ومعاوية بعد حرب صفين. ولد في زبيد (باليمن) وقدم مكة عند ظهور الإسلام فأسلم، وهاجر إلى أرض الحبشة. ثم استعمله رسول الله (ص) علي زبيد وعدن.
- الزركلي، خير الدين: الاعلام ٤/ ١١٤.

(٢) تاريخ الطبري، ٤/ ٧٠-٧١.

(٣) أنس بن مالك: (ابن النضر ابن ضمضم البخاري الخزرجي الأنصاري، ١٠ق.م - ٩٣هـ/ ٦١٢-٧١٢م): صاحب رسول الله (ص) وخادمه. روى عنه رجال الحديث ٢٢٨٦ حديثاً. مولده بالمدينة. مات بالبصرة، وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة.
- الزركلي، خير الدين: الاعلام ٢/ ٢٤ - ٢٥.

(٤) عمران بن حصين: (ابن عبيد، ... - ٥٢هـ/ ... - ٦٧٢م): من علماء الصحابة. أسلم عام خيبر (سنة٧هـ) وكانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة. وبعثه عمر بن الخطاب إلى سكان البصرة ليفقههم. وولاه زياد ابن أبيه قضاءها. وتوفي بها.
- م ن، ٥/ ٧٠.

(٥) هشام بن عامر: لم أجد له ترجمة في الأعلام، ولا في المنجد في الأعلام.

(٦) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود: من كتاب فتوح البلدان، اختار النصوص وعلق عليها د. شوقي أبو خليل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة ١٩٩٧م، ص٤٣٣.

ويقيس أحد رجال البصرة في عهد واليها خالد بن عبد الله القسري [1] طول المدينة وعرضها، ويعلن نتائجه قائلاً [2]: «فوجدت طولها فرسخين وعرضها فرسخين إلا دانقاً»، أي أننا أمام مساحة تقدّربحوالي ستة وثلاثين ميلاً عربياً أي بمساحة تقريبية تعادل(١٣٩كم٢) [3]. وحسب إحصائيات أحد رجال البصرة في عهد زياد بن أبيه [4]، وجد أن عدد جماعة المقاتلين العرب ثمانون ألف مقاتل، وأن عدد أفراد عائلاتهم مائة وعشرون ألف فرد [5]. وطبيعي جداً أن يزيد عدد سكان البصرة على هذا الرقم بكثير فيما لو أحصى رجل آخر عدد السكن، هذا إذا عرفنا أن جاليات أخرى وأفراداً اخرين كانوا يقيمون في هذه المدينة، فهناك البدو (الاعراب) الذين لا ينضوون تحت جماعة المقاتلين الذين ذُكروا سابقاً، وهناك الجاليات الأجنبية غير العربية التي تعيش في هذه المدينة، إذ تشير الدراسات إلى أن سواد البصرة كلهم عجم [6]. يُضاف إلى ذلك المهاجرون إلى البصرة من الأرياف القريبة، وغالبيتهم من الأنباط، وهم الساميون الذين يشكلون حلقة وسيطة بين الآراميين والعرب [7].

---

(١) خالد بن عبد الله القسري: (ابن يزيد بن أسد، ٦٦-١٢٦هـ/ ٢٨٦-٧٤٣م): أحد خطباء العرب وأجوادهم. يماني الأصل، من أهل دمشق. ولّي مكة سنة ٨٩هـ للوليد بن عبد الملك، ثم ولاه هشام بن عبد الملك العراقين (الكوفة والبصرة)سنة ١٠٥هـ.

- الزركلي، خير الدين : الأعلام، ٢/ ٢٩٧.

(٢) معجم البلدان، ١/ ٤٣٤.

(٣) العلوي: هادي «البصرة في ذاكرة الحضارة»، ص ١٢.

(٤) زياد بن أبيه: (١-٥٣هـ/ ٦٢٢- ٦٧٣م): أمير من الدهاة، القادة الفاتحين، الولاة. من أهل الطائف. اختلفوا في اسم أبيه، فقيل عُبيد الثقفي، وقيل أبو سفيان. ولدته أمه سميّة (جارية الحارث بن كلدة الثقفي)، واسلم في عهد أبي بكر، ولأه معاوية بن أبي سفيان البصرة والكوفة وسائر العراق.

- الزركلي، خير الدين : الأعلام، ٣/ ٥٣.

(٥) معجم البلدان، ١/ ٤٣٤.

(٦) ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام، الجزء الرابع، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص ٥٦٨.

(٧) العلوي، هادي: «البصرة في ذاكرة الحضارة»، ص ١٢.

ويبدو أن البصرة كانت موقعاً عسكرياً كبيراً، تأسس في أثناء الفتح الإسلامي [1]، ليُسهم في نمو الفتح وامتداده، وليكون قادراً على إيواء المجاهدين وعوائلهم، ومركزاً إدارياً للمناطق الجديدة التي تم فتحها، وليشكل حلقة وصل بين المدينة المنورة العاصمة والمناطق المفتوحة، إذ يمكن بوساطته إرسال النجدات والأوامر العسكرية، بالإضافة إلى كونه خطاً مفتوحاً، يؤمّن رجوع المسلمين في حال تعرّضهم للخطر، ومركزاً تموينياً للجيوش التي تحارب في الجبهات الحربية[2].

والبصرة -عبر التاريخ- مركز تجاري مهم، نظراً لكونها أكثر الموانئ الخليجية استغادة من. «التجارة، لأن الملاحة فيها سهلة ومأمونة لاقترابها من المناطق االعميقة المياة نسبياً» [3]. ومن ميزانها أنها تقابل فارس [4]، ولذل فهي صلة وصل بين الحضارتين العربية والفارسية، فبوساطة مينائها تدخل المؤثرات الفارسية إلى الحضارة العربية، من جوار وتجارة وتبادل معرفي، وعادات وتقاليد. وبشكل عام كان لمنطقة الخليج العربي، بموانئها المهمة: سيراف والبصرة ومسقط، دور مهم في تنشيط حركة المثاقفة الحضارية بين العرب وغيرهم من الشعوب، لأن هذه المنطقة «منطقة حدودية، و[هي] منطقة تأثير وتأثر، ليس فقط بين العرب والفرس وإنما أيضاً مع دول الجوار الأخرى الهندية والإفريقية. فقد شكلت هذه المنطقة حلقة الوصل بين العرب والأقوام الأخرى، وبفضل التجار (...) انتشر الإسلام في السواحل الإفريقية والهندية وفي جزر أندونيسيا، كما تدفق الأفارقة والهنود وغيرهم على الجزيرة العربية للحج وعلى الخليج للبحث عن اللؤلؤ والاتّجار. كما تمّ استيطان متبادل، واغتنت سائر القوميات بتفاعلها مع بعضها»[5].

---

(١) ميكيل - أندرية: م س، ص ٥٦٨.

(٢) الموسوي، مصطفى عباس: العوامل التاريخية لنشأة وتطوّر المدن العربية الإسلامية، ص ٦٣-٦٤.

(٣) الخوري، د. فؤاد إسحق: القبيلة والدولة في البحرين، ص ٢٩.

(٤) ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام، الجزء الرابع، القسم الأول والثاني، ص ٢٣٠.

(٥) النعيمي، عبد الرحمن محمد: الصراع على الخليج العربي، دار الكنوز الأدبية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م، ص ١٤.

وتبدو البصرة في نصوص ألف ليلة وليلة فضاء مهماً في الوحدات السردية، وإن لم تصل هذه المدينة إلى مكانة بغداد في الليالي، فإنها تتفوق على كل مدن العراق، وبلاد الشام الأخرى، وقد سحرت هذه المدينة المهمة رواة الليالي فنسجوا. «حولها جميل الأخبار وظريفها»[1].

وهنا أستعرض في العنوان الآتي، أهم ملامح مدينة البصرة وأخبارها وحضارتها، وعلاقاتها السياسيّة والاجتماعية، كما صورتها حكايات ألف ليلة وليلة.

ب - البصرة في ألف ليلة وليلة.

تشكل البصرة أهمية كبيرة في مدن ألف ليلة وليلة، لأنها مفتاح مدن العراق، وبخاصة بغداد، صوب العالم، كونها ميناء مهماً على الخليج العربي، إذ يتم من خلاله ارتحال السرد الحكائي صوب البلدان الأخرى، وبالتالي يكون هذا الميناء مفتاحاً لتشكل الحكايات الجديدة، ثم تشابكها وثرائها بالأبطال والأحداث الجديدة.

أما حكايات ألف ليلة وليلة التي احتفت بمدينة البصرة، ونقلت بعضاً من أخبارَ حكامها ونسائها ومجتمعها، فهي الحكايات الآتية: حكاية «**الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين**»[2]، وهي حكاية داخلة ضمن حكاية. «**هرون الرشيد مع الصياد**»، والحكاية تجرى حوادثها في مصر والبصرة، وحكاية «**علي نور الدين وأنيس الجليس**»[3]، وتبتدئ حوادثها بالبصرة لتنتهي في قصر الرشيد المسمّى قصر الفرجة ببغداد، وحكاية «**علي بن بكار وشمس النهار**»[4]، وتجري أحداثها ببغداد،

(١) عواد، ميخائيل: ألف ليلة وليلة مرآة الحضارة والمجتمع في العصر العباسي، وزارة الإرشاد، بغداد، الطبعة الأولى ١٩٦٢م، ص ٢١.
(٢) ألف ليلة وليلة، ١/ ٩٣.
(٣) م ن، ١/ ١٨٣.
(٤) م ن، ٢/ ١٨٣.

لكن أبطالها يرتحلون إلى البصرة، ثم يعودون إلى بغداد ثانية، وحكاية «**خالد بن عبد الله القسري أمير البصرة مع الشاب الجميل**»[(١)]، وكل حوادثها لا تتعدى فضاء البصرة، ببيوتها وأزقتها، وحكاية «**هرون الرشيد مع أبي محمد الكسلان**»[(٢)]، إذ تبتدئ حلقات السرد في بغداد، ثم ترتحل إلى البصرة، ثم تعود ثانية إلى بغداد، وحكاية «**بدور بنت محمد بن علي الجوهري مع جبير بن عمير الشيباني**»[(٣)]، وتقع حوادثها في البصرة، لكن الراوي ينقل هذه الحوادث ليسردها أمام الخليفة الرشيد في بغداد و حكاية. «**هرون الرشيد مع الرجل الذي يطلب دواء لعينه**»[(٤)]، وبطلها شيخ من البصرة، وحكاية «**الزاهد ابن هرون الرشيد**»[(٥)]، وحوادثها تجري في البصرة، لكنها تُروى في قصر الرشيد ببغداد، وحكايات «**السندباد البحري**»[(٦)]، وحكاية «**الأصمعي مع الأخوات الشاعرات**»[(٧)]، وكل حوادثها بالبصرة، لكنها تُروى أمام هرون الرشيد ببغداد، وحكاية «**ضمرة بن المغيرة مع إحدى النساء الجميلات**»[(٨)]، ويرويها النديم حسين الخليع لهرون الرشيد ببغداد، وحكاية «**حسن الصائغ البصري**»[(٩)]، وتبتدئ الحكاية بأسواق البصرة، لكنها تنتهي ببغداد، إذ يفك الراوي بعض حبكات السرد أمام زبيدة زوجة هرون الرشيد، وحكاية «**مالك بن دينار مع العبد ميمون**»، وكل حوادثها تظل أسيرة

---

(١) م ن، ٣/٥.
(٢) م ن، ٣/٨.
(٣) م ن، ٣/٥٩.
(٤) م ن، ٣/١٦٠.
(٥) م ن، ٣/١٧٨.
(٦) ألف ليلة وليلة، من ص ٣٨٩ من المجلد الثالث إلى ص ٣ من المجلد الرابع.
(٧) م ن، ٤/ ٩٦.
(٨) م ن، ٤/١٠٧.
(٩) م ن، ٤/٢٤٥.

لفضاء البصرة، وأبطالها لا يغادرون البصرة. ويمر الراوي على مدينة البصرة في حكاية«**الحمال والبنات**»[1]، باعتبارها طريق سفر مهم، بالإضافة إلى حكايات أخرى.

إن الحكايتين الوحيدتين اللتين لا تخرجان عن فضاء البصرة زماناً ومكاناً هما: حكاية «**خالد بن عبد الله القسري مع الشاب الجميل**»، وحكاية «**مالك بن دينار مع العبد ميمون**»، في حين أن بقية الحكايات التي ذكرت البصرة، ترتحل بأبطالها إلى بغداد المركز، وإلى مدن أخرى بعيدة، فقدر البصرة في الليالي أن تدور في فلك بغدا المركز، وكأن الحكاية لا تأخذ أهميتها الفنية والجمالية إلا بارتحال السرد إلى بغداد. وهنا يمكن القول: إن عدم استقلالية البصرة بحكاياتها، وعدم تفكيك حوافز السرد في فضاءات البصرة، راجع إلى فكرة المدينة المركز، وهيمنة هذا المركز السياسية والثقافية والاقتصادية على بقية المدن الأخرى الأقل مركزية، كما ذكرنا سابقاً. فالأصمعي في حكايته مع «**الأخوات الشاعرات**»، ينقل ملامح الحركة الشعرية الناشطة بالبصرة إلى بغداد، وحسين الخليع في حكايته مع إحدى الجواري الجميلات، ينقل إلى الخليفة هرون الرشيد أخبار نساء البصرة، الأديبات والعاشقات، وكيفية تعاملهن مع رجال البصرة الأدباء والظرفاء. لكن الرواة في هذا الارتحال لا يسلبون من البصرة خصائصها الجمالية، وشفافية سكانها، ورقة نسائها. تقول سهير القلماوي[2] عن مدينة البصرة في ألف ليلة وليلة: «ولئن احتلت بغداد الصدارة في الأخبار العربية، وفي تأثيرها في القصص الذي يذكر الرشيد خاصة (...)، [فـ] قد كانت هناك في أرض العراق مدينة فتنت القاصّ وكانت ألصق ببيئته وأشد تأثيراً في حياة أصحابها؛ تلك هي مدينة البصرة (...)، [التي كانت] موطن كثيرين من أبطال قصص الليالي وأخبارها».

---

(١) م ن، ٤ / ٧٧.

(٢) القلماوي، د. سهير: ألف ليلة وليلة، ص ٢٣١.

ومن ملامح البصرة في حكايات ألف ليلة وليلة، أنها بوابة العراق التجارية صوب العالم الخارجي، فمنها يسافر التجار إلى المدن البعيدة، حاملين بضائع العراق، وهي مفتاح للثروة والمال القادمين من أصقاع الأرض. فها هي الأخت الصغرى في حكاية «**الحمال والبنات**»، تفتقر بعد أن استهلكت أختاها الكبيرتان معظم ثروتها، فتقرر السفر. ومن خلال ميناء البصرة تسافر مصطحبة تجارة، ثم ترجع بعد حين، وقد باعت هذه التجارة، وربحت أرباحاً كثيرة. تقول: (1) «ولم نزل على هذه الحالة [حالة الاستهلاك]، فأردت أن أجهز لي مركباً إلى البصرة فجهزت مركباً كبيرة وحملت فيها البضائع والمتاجر وما أحتاج إليه».

وميناء البصرة ميناءٌ كبيرٌ، يتّسع للسفن العظيمة التي تحتاجها تجارة المسافات البعيدة، فها هو السندباد البحري يبحر في إحدى هذه السفن، مصطحباً بضاعته النفيسة، يقول (2): «واشتريت لي بضائع نفيسة فاخرة تصلح للبحر، وحملت حمولتي وسافرت من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة، فرأيت سفينة عظيمة فيها تجار وأكابر ومعهم بضائع نفيسة».

وميناء البصرة ميناء مشهور بين الموانئ العالمية، وتصل سمعته إلى أقاصي المدن الأسطورية والتخيلية التي كان يصل إليها السندباد. يقول السندباد(3): «فسمعت بخبر جماعة من تلك المدينة [مدينة بعيدة جداً لا اسم لها] أنهم جهّزوا لهم مركباً يريدون السفر به إلى نواحي البصرة».

وتبدو البصرة في الليالي مدينة التجار الأثرياء، والتجارة النشيطة، ولا يفوقها في الثراء والتجارة إلا مدينة بغداد: «ويُحكى أنه كان (...) رجل من التجار مقيم بأرض البصرة.. وكان عنده مال كثير»(4). وحركة التجارة النشيطة في

(1) ألف ليلة وليلة، 1 / 78.
(2) م ن، 4 / 6.
(3) م ن، 4 / 12.
(4) م ن، 4 / 269.

البصرة تحتاج إلى مخازن كبيرة، تستوعب طموح هذه التجارة وازدهارها، ومن هنا فقد وُجدت هذه المخازن التي تحتاج إلى محاسبين لضبط السيولة المالية، التي توفرها حركة البيع والشراء. ففي حكاية «**أحد أولاد أهل النعم مع جاريته**»، يسافر الرجل الثر ي إلي البصرة، وهناك يدعي أنه رجل فقير، فيعرض عليه صاحب أحد المتاجر الكبيرة أن يشتغل في متجره محاسباً، ليضبط له حركة البيع والشراء: «فقال [صاحب المتجر] أتقيم عندي ولك في كل يوم نصف درهم وأكلك وكسوتك وتضبط لي حساب دكاني (...)وأقمت عنده وضبطت أمره ودبّرت له دخله وخرجه فلما كان بعد شهر رأى الرجل دخله زائداً وخرجه ناقصاً»[١].

إن المظهر التجاري لمدينة البصرة في الليالي، يلتقي تاريخياً مع مظاهر النشاط التجاري الذي عرفته البصرة في العصر العباسي. ولأن هذا النشاط كان مزدهراً، وذائع الصيت، فإن ابن حوقل[٢]، لم ير حاجة لإعادة ذكر ما في البصرة من تجارة واسعة مشهورة، أما المقدسي[٣]، فقد ذكر من أنواع التجارة بالبصرة، تجارة التمور والحناءوالخزّ. ويحتل تمر البصرة المرتبة الأولى بين التمور في الدولة الإسلامية[٤]، وليمون البصرة لا نظير له في العالم الإسلامي[٥]. وقد ساهمت الفوائد التي جنتها البصرة من تجارتها البعيدة في ازدهارها الذي وصلت إليه[٦].

---

(١) م ن، ٤ / ٤٤١.

(٢) عن / الخازن، د. وليم: الحضارة العباسية، ص ٨١.

- وأخذ الخازن عن / المسالك والممالك، ليدن، طبعة ١٨٧٣م، ص ١٦١.

(٣) عن/ الخازن د. وليم: الحضارة العباسية، ص ١٨١.

- وأخذ الخازن عن / أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، طبعة ١٩٧٧م، ص ١٣٨.

(٤) ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام، الجزء الرابع، القسم الأول والقسم الثاني، ص ٢٩٢.

(٥) م ن، ص ٣٠٨.

- وأخذ ميكيل من / المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ترجمة ج. بلد شينو، (اطروحة دكتوراه)، جامعة باريس الثالثة، ١٩٧٨م، ص ٧.

(٦) ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام، الجزء الرابع، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص ٣٤٣.

أما الملاحة البحرية فقد لعبت دوراً كبيراً في ثراء البصرة وازدهارها، إذ «اشتهر أهل البصرة (...) بالأسفار البحرية حتى قالوا: «أبعد الناس نجعة في الكسب بصري»، وبالغ الواصفون في كثرة أنهارها وكثرة الزوارق فيها»[١].

ويتعاطف أحد الرواة مع تجار البصرة، ويراهم مثالاً للأمانة. فها هو التاجر البصري أبو المظفر، يعطي لأبي محمد الكسلان كل أرباح أمواله، غير منقوصة. يقول هذا الراوي: [٢]«فأمر عبيده [عبيد أبي المظفر] أن يحضروا المال فحضروا به، فقال: يا ولدي لقد فتح الله عليك بهذا المال من ربح الخمسة دراهم. ثم حملوه في صناديق على رؤوسهم، وأعطاني مفاتيح تلك الصناديق. وقال لي: امض قدّام العبيد إلى دارك فإن هذا المال كله لك». ويعتبر الراوي أن أخلاقهم تجسد كثيراً من القيم الجمالية، فهم كرماء ورحماء، ومتعاطفون مع الفقراء، فالتاجر البصري كله في حكاية «**أحد أولاد أهل النعم مع جاريته**»، يساعد الغريب الفقير القادم من بغداد، ويزويه، ويزوجه ابنته ويشاركه في تجارته: «فأخبرته [أخبر التاجر] أني غريب فقير (...) فدعاني أن أتزوج بابنته ويشاركني في الدكان، فأجبته إلى ذلك ولزمت الدكان»[٣]. على أنه ينبغي القول إن كثيراً من رواة الحكايات لا يتعاطفون مع التجار، بل يعتبرونهم طبقة دونية وجشعة، والذي يتعاطف مع التجار هو راوٍ تاجر في حقيقة الأمر، فالرجل الفقير السابق اللذي قدم إلى البصرة ووصف كرم تجّارها، هو في الأصل ذو أصول تجارية بغدادية: «فقد ورث عن أبيه مالاً جزيلاً»[٤]، قبل أن يفتقر.

وبالإضافة إلى ازدهار البصرة تجارياً، فهي تعرف المهن التي تنتمي إلى أصول صناعية. وتذكر الليالي أن البصرة تحتوي على محلات «النحاسين والصاغة»، فبعد

(١) أمين، د. أحمد: هرون الرشيد، ص ٧٨.
(٢) ألف ليلة وليلة، ٣/ ١٤.
(٣) م ن، ٤/ ٤٤١.
(٤) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٤٣٥.

أن يموت أحد تجار البصرة، يترك لولديه أموالاً كثيرة، فيستثمرانها في صناعة النحاس وصياغة الذهب. يقول الراوي[1]: «وأخذ كل واحد منهما قسمه وفتحا لهما دكانين أحدهما نحّاس والثاني صائغ». ويبدو أن البصرة كانت تاريخياً «معدن اللآلئ والجواهر»[2]، ولذا فليس بمستبعد أن تكون في الليالي أرضاً للذهب، وصائغه له[3].

وتبدو البصرة في الليالي مليئة بالبساتين، التي يصفها الراوي «بجنان البصرة»[4]. ومن ملامح التخطيط الهندسي في البصرة، أن «فيها سبعين درباً طول كل درب سبعون فرسخاً»[5].

وإذا كانت البصرة في الليالي «هذا البحر المجهول الذي يمثل أحلام الثراء بغموضها وبعدها»[6]، فإنها بالنسبة للأبطال التجار المغامرين، ببحرها وبرّها، مدينة أليفة وحميمة، ومحطة استراحة آمنة، يرخي الأبطال فيها سدول همومهم ومخاوفهم، فقد كانت بالنسبة للسندباد فضاءً جمالياً، يحط فيه رحاله بعد أهوال السفر، ليتأمل ذاته، ويسترخي هادئاً لعدة أيام حتى يستعيد طمأنينته النفسية، تأهباً لاستنفار قدراته فيما بعد، واستهلاكها في ملذات ولهو بغداد. يقول السندباد[7]: «ولم نزل مسافرين من بحر إلى بحر ومن جزيرة إلى جزيرة إلى أن وصلت بالسلامة بإذن الله إلى مدينة البصرة. فطلعت من المركب، ولم أزل مقيماً بأرض البصرة أياماً وليالي».

---

(١) م ن، ٤/ ٢٤٦.

(٢) ميكل، أندريه: جغرافية دار الإسلام، الجزء الرابع، القسم الأول والثاني ص ٣١٢.

(٣) يبدو أن ثراء البصرة التجاري- تاريخياً - وكونها سوقاً للعمل والتجارة، ومعدناً للجواهر، أسهم في أن تظل بغداد وسامراء منتعشتين بارتكازهما علي هذه المدينة.
- م ن، ص ٢٤٠.

(٤) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٥٩.

(٥) م ن، ٣/ ٥٩

(٦) القلماوي، د. سهير: ألف ليلة وليلة، ص ٢٣٢.

(٧) ألف ليلة وليلة، ٤/ ١٣. وكذلك ٤/ ٥.

ويستطيع السندباد أن يقيم بالبصرة، وأن يلهو مثله مثل كل الأبطال المغامرين والتجار، فالبصرة مدينة النساء الجميلات، والجواري الأبكار، وهي فضاء أليف للهو والطرب، ويمكن أن تكون مثل بغداد في لهوها، فالناس فيها يقيمون حفلات اللهو على شاطئ البحر، وضفاف الأنهار. فعندما يشاهد أحد الأبطال البغداديين جماعة من البصرة، تخرج حاملة طعامها وشرابها، يسأل عن سرّ ذلك، فيقول له[1] أحد بقّالي البصرة: «هذا يوم المتنعمين، يخرج فيه أهل الطرب واللعب والفتيان من ذوي النعمة إلى شاطئ البحر يأكلون ويشربون بين الأشجار على نهر الأبلّة».

إن صورة خروج متنعمي البصرة إلى القصف واللهو، خارج المدينة، ليست غريبة على بنية علاقات المدينة العربية الإسلامية وأفراحها في مسيرتها التاريخية، إذ عرفت المدينة الإسلامية كل أشكال اللهو والمتع، والاستمتاع بالحياة وأفراحها، «والحق أن الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، اتّسمت بتعدد وسائل التسلية والترويح عن النفس. ومن هذه الوسائل الخروج إلى المنتزهات والحدائق»[2]. وبالإضافة إلى الاحتفاء بيوم المتنعمين في البصرة، الذي ذكره الراوي في الحكاية، فقد عرفت مدن العراق في العصر العباسي، وبخاصة بغداد، احتفالات أخرى بأعياد كثيرة منها: عيد النيروز أو الربيع. وقد تكون هذه الاحتفالات من المؤثرات الفارسية الكثيرة[3]، التي دخلت على المدينة العربية الإسلامية، من خلال تفاعلاتها الثقافية والاجتماعية مع المدينة الفارسية.

ومن الملامح الاجتماعية للبصرة في حكايات الليالي، وجود النساء الوفيات، إذ يقدم ساردو حكايات البصرة صوراً جمالية لنساء البصرة، مغايرة

(١) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٤٤١.

(٢) عاشور، د. سعيد عبد الفتاح: «الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية»، مجلة عالم الفكر، وزارة الاعلام، الكويت، المجلد الحاري عشر، العدد الأول، أبريل، مايو، يونيو، ١٩٨٠م، ص ٩٧.

(٣) م ن، ص ١٠٠.

لصـور نسـاء القـاهـرة وبغـداد ودمـشق، اللواتي يصـفـهن الرواة من دون خـجل، بالمحتـالات والزانيات والقـوّادات والماكـرات واللعـوبات، وأن إبليس يخـشـاهن، ويحذر من مكايدهن الشريرة. فنساء البصرة مخلصـات لأحبائـهن، ويدفعن الموت عنهم، ومـسـتـعـدات أن يتعـرضن للفـضيـحـة أمام الأمـير، إذا كـان في ذلك نجاة للحبيب الوفي. ففي حكاية «**خالد بن عبد الله القسري مع الشاب الجميل**»، ترفع إحدى أسر البصرة دعوى أمام أمير البصرةج، على شاب «ذي جمال باهر، وأدب ظاهر، وعـقل وافـر، وهو حـسن الصـورة طيب الرائحـة، وعليـه سكينة ووقار»[1] كما تقول الحكاية وتتهمه بالسرقة، لأنها ضبطته متلبساً بها، في منزلها. وعندما يرى الأمير خالد القسري هذا الشاب، يشك في صحة الادعاء، ويسأل الشاب عن هذا الادعاء، أمام أفراد الأسرة، فيؤكد أنه سرق، وأن هذه الأسرة صـادقـة في دعـواها. وعندمـا يتـقـدمـون به لـيقطعـوا يده، تتـقـدم إحـدى النسـاء الجميلات، وتنفرد بالأمير خالد، وتخبره: «بأن هذا الفتى عاشق لها وهي عاشقة له، وإنما أراد زيارتها فتوجه إلى دار أهلها ورمى حجراً في الدار ليعلمها بمجيئه، فسمع أبوها وأخوها صوت الحجر فصعدوا إليه. فلما أحس بهم جمع قماش البيت كله وأراهم أنه سارق ستراً على معشوقته»[2]. وإزاء موقف الشـاب البـصـري النبيل، الـذي يستعد لأن يضحي بيده أملاً في أن تظل صورة هـذه المرأة، في العرف الاجتماعي، كما هي عليه من النقاء، تذهب المرأة إلى الأمير لكي تنتقذ عشيقها، غير عابئة بالفضيحة.

ويوازي هذه الصـورة الجمـالية للمـرأة، في الطرف الآخر، صورة الرجال الكرمـاء في مـدينة البصـرة، الذين لا يقلون كـرماً وخلقاً عن نسائها، فـهـا هو أحد رجـال البـصـرة يكرم نور الدين القـادم من مصـر: «ثم إنه أمـر [أي الرجل] بوضع

(١) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٦.
(٢) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٧.

الخرج على البغلة والبساط والسجادة وأخذ نور الدين معه إلى بيته وأنزله في مكان ظريف وأكرمه وأحسن إليه وأحبه حباً شديداً»[1] .

وبالإضافة إلى وفاء نساء البصرة، فإنهن مثيرات وممتلئات بالقدرات الجمالية الجنسية، مثلهن مثل كل أميرات ألف ليلة وليلة وجواريها. يصف حسن الخليع إحدى نساء البصرة المتألقات، للخليفة هارون الرشيد قائلاً[2]: «وإذا بجارية أسيلة الخدين عليها قميص جلناري، قد غلبت شدة بياض يديها وحمرة خديها، قميصها يتلألأ ومن تحت القميص ثديان كرمانتين وهي يا أمير المؤمنين متقلدة بخرزة من الذهب الأحمر (...) ولها حاجبان مقرونان وأنف أقنى تحته ثغر كاللؤلؤ وأسنان كالدر! وقد غلب عليها الطيب وهي والهة حيرانة ذاهبة تروح وتجيء تخطو على أكباد محبيها في مشيها، ولسيقانها أصوات خلاخلها».

يكشف المقطع السابق عن خيال الراوي الشعبي الذي تعبر عنه شخصية حسين الخليع، هذا الخيال الشبقي المحروم جنسياً في مجتمع طبقي يجعل النساء سلعاً وإماء، لا يستطيع أن يصل إليها إلا الأمراء والملوك والتجار والأثرياء ومن دائرة حرمان الراوي وفقره، وشهوته لامتلاك النساء الجميلات، والذهب الذي صعب امتلاكه إلا من قبل الأثراء، نجد أنه يزين هذه المرأة بكل ما هو محروم منه، فخرزة الذهب الأحمر، والخلاخل، واللؤلؤ والدر، كلها معطيات مادية، احتكرتها طبقة الملاك والسلطة في الليالي، وحرم الفقراء منها. وقد شكلت هذه المعطيات في الليالي هاجساً وحلماً وطموحاً بالنسبة للطبقات المهمشة إنسانياً واقتصادياً. يضاف إلى ذلك أن الرواي الشعبي لا يستطيع أن يقدم لخليفة ملأ صيته الدنيا -هرون الرشيد- وعرف بعشقه للجمال والنساء، امرأة قبيحة، فالصورة النسائية المتخيلة يجب أن تساير الوضع الطبقي والسياسي للمروي له، ولذا فإن

---

(١) م ن، ١/٩٦.
(٢) م ن، ٤/١٠٧.

الراوي الذي يعرف ما يسر أبطاله السلطويين قدم امرأة عظيمة الجمال لرجل عظيم الهيبة والثراء. على أن سيرة هذه المرأة الجميلة المثيرة، هي وغيرها من نساء البصرة في الليالي، وفي علاقاتها مع الرجال -كما يقدمها الرواة- تخلو من أية مظاهر للخلاعة أو الفجور، أو ابتزاز الرجال مالياً، إذا ما قارناها بسير النساء والجواري في بغداد ودمشق والقاهرة، كما أشير سابقاً.

ولا ندري ما هو السبب الرئيس الذي جعل الرواة لا يذكرون أي مظهر من مظاهر فجور نساء البصرة وعربدتها، في حين أن البصرة ووفقاً للتركيبة الاجتماعية السائدة فيها، والعائدة لعدة جنسيات من حضارات مختلفة -ونظراً لانفتاحها المعرفي والتجاري على الحضارات الأخرى، باعتبارها ميناءً تجارياً مهماً- يمكن أن تكون مليئة بالفجور والمعاصي مثلها مثل بغداد أو دمشق أو القاهرة. فالمرأة في البصرة تعشق عشقاً عفيفاً، لكنها في عشقها لا تطلب اللذة المحرمة، بل تطلبها لذة حلالاً، تضبطها قوانين الشرع الإسلامي، وهذا ما تشير إليه حكاية **«ضمرة بن المغيرة مع إحدى النساء الجميلات»**، فالمرأة الجميلة في هذه الحكاية، تعشق ضمرة دون أن تنهتك في عشقها، بل تظهر له وفاءً، محبة شديدين، آملة الزواج به[1]، وهي في عشقها تخاف الله في كل خطوة تخطوها[2].

ونلمس هذه الصورة الجمالية لنساء البصرة في غير حكاية، ففي حكاية **«بدور بنت محمد بن علي الجوهري مع جبير بن عمير الشيباني»**، يكشف السرد المقياس الجمالي لإحدى نساد البصرة[3]، ويظهر السارد عفة المرأة وحياءها، إذ

(١) ألف ليلة وليلة، ٤/ ١١٠.

(٢) م ن، ٤/ ١١١.

(٣) يقول الراوي عن هذه المرأة: «بيضاء كأنها البدر إذا بدر في ليلة أربعة عشر، بحاجبين مقرونين وجفنين ناعسين، ونهدين كرمانتين، ولها شفتان رقيقتان كأنهما اقحوانتان، وفم كأنه خاتم سليمان يلعب بعقل الناظم والناثر».
- م ن، ٣/ ٦٠.

تقول للشيخ ابن المنصور الذي يتجسس عليها: «يا شيخ أليس عندك حياء، وهل من شيب وعيب؟ فقلت لها [أي قال ابن منصور]: يا سيدتي أما الشيب فقد عرفناه وأما العيب فما أظن أني أتيت بمعيب. فقالت (...) وأي عيب أكثر من وقوفك عند دارٍ غير دارك ونظرك حريماً غير حريمك»[١].

وعندما يجد الشيخ مخرجاً لحرجه، مؤكداً أنه رجل غريب عطشان، سرعان ما تكرمه المرأة، وتبدي لطفاً ونبلاً يليق بامرأة كريمة -يتعاطف معها السارد- واثقة من نفسها، قدراتها على احترام ذاتها والآخرين: «ثم نادت بعض جواريها(...) فجاءتني بكوزٍ من الذهب الأحمر مرصع بالدر والجوهر ملآن ماءً ممزوجاً بالمسك الأذفر، وهو مغطى بمنديل من الحرير الأخضر»[٢].

يبدو من خلال المقطع السابق، أن أداة السقاية تنم عن مستوى حضاري وجمالي، يعكس وضعاً مجتمعياً مزدهراً، من خلال منزل كل ما فيه أنيق ومريح. ومن إعجاب الراوي بأناقة هذه المرأة وجمالها، فإنه يقدم هذا الكوز الجميل الذي تضفي عليه المرأة لمساتها السحرية، وتغطية بمنديل من الحرير الأخضر. وبطبيعة الحال، فإن هذه المرأة تنتمي إلى طبقة التجار الأثرياء، هذا إذا عرفنا أن والدها هو محمد بن علي الجوهري، الذي تحدثت عنه حكايته في ألف ليلة وليلة، والموسومة بـ حكاية «**هرون الرشيدمع محمد بن علي الجوهري**»[٣]. وبدور هذه، وبالرغم من ثرائها المالي الفاحش، فإنها لا تتهتك، بل تعشق جبير بن عمير الشيباني عشقاً عفيفاً، هذا العشيق الذي يصفه الراوي بأنه مثال للرجال الكرماء في مدينة البصرة، ومعروف بشهامته وعفته[٤].

---

(١) ألف ليلة وليلة. ٣/ ٦٠.

(٢) م ن، ٣/ ٦٠.

(٣) ألف ليلة وليلة، ٢/ ٤٢٥.

(٤) م ن، ٢/ ٦٣.

ومن الملامح الجمالية للحياة الثقافية والفكرية بالبصرة، ملمح النساء الشاعرات الأديبات اللواتي يفقن الرجال ظرفاً وأدباً، ويتبارين في حفظ الشعر. ففي حكاية **«الأصمعي مع الأخوات الشاعرات الثلاث»**، يكشف فضاء الحكاية عن معرفة بنظم الشعر، فالأخوات الثلاث شاعرات موهوبات في نظم الشعر الغزلي. تقول الأخت الصغرى لأختيها: «تعالين نطرح ثلثمائة دينار، وكل واحدة منا تقول بيتاً من الشعر فكل من قالت البيت الأعذب المليح، كانت الثلثمائة دنيار لها». وبمصادفات ألف ليلة وليلة، يمر الأصمعي[1] أمام منزلهن، فيحتكمن إليه، فيحكم بتفوق شاعرية الصغرى على أختيها، لبيت قالته:

«بنفـــسي وأهلي من أرى كل ليلة ضجيعي ورياه من المسك أطيبا».[2]

ففي هذه الحكاية، يبدو كل أبطالها شعراء، أو يحبون الشعر، ويهتمون بالمعرفة اهتماماً كبيراً، فالأخوات شاعرات، والأصمعي -راوي الحكاية- هو الأديب والشاعر الذي ذاعت شهرته في أرجاء العراق والدولة الإسلامية، والمروي له هو الخليفة هارون الرشيد الذي تنقل إليه أخبار البصرة -عاشق الفن والأدب والجمال بامتياز، من بين خلفاء الليالي وملوكها جميعاً-.

ويشير السارد في هذه الحكاية إلى إتقان إحدى الفتيات لفنيات الخط الجمالية:

«فدفعت لي [إلى الأصمعي] ورقة فنظرت فيها خطاً في نهاية الحسن، مستقيم الألفات مجوف الهاءات مدور الواوات»[3]. ويبدو أن هذا الخط الجميل

---

(١) م ن، ٤/ ٩٧.
- الزركلي، خير الدين: الأعلام، ٤/ ١٦٢.
(٢) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٩٨
(٣) م ن، ٤/ ٩٨.

يلتقي، في درجة إتقانه وجماله، مع الخط الذي عرفته البصرة التاريخية، فسكان البصرة «استعملوا الخط وطلبوا صناعته واستحكم وبلغ (...) رتبة من الإتقان»[١].

وتشير حكاية «**بدور بنت محمد بن علي الجوهري مع جبير الشيباني**» إلى أن السيدة بدور كانت تحفظ الكثير من الأبيات الشعرية، وكانت ترسلها إلى حبيبها جبير الشيباني، تبين فيها مدى شوقها إليه[٢]. على أن هذه الخلفية المعرفية بالشعر، عند نساء البصرة، في الليالي، هي مزيج من الشعر العربي الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي، أي إنها من التراث الشعري الجمعي الذي يحفظه رواة الليالي المتعددون، وينقلونه إلى فضاء النص الحكائي. فالراوي يذكر مرة أن السيدة بدور قالت شعراً، ونسبته إلى شاعر بعبارة: «فقد قال الشاعر»، دون أن تحدد اسم هذا الشاعر[٣]، وفي مرة أخرى يقول عنها: «فكتبت هذه الأبيات»[٤]. دون أن يحدد قائلها. وهو يقدم -أيضاً- حبيبها جبير الشيباني، على أنه يحفظ الشعر العربي، وأن جواريه الحسان تحفظ الكثير من المقطوعات الشعرية في الحب والغزل[٥].

إن الفضاء المعرفي الثقافي لنساء البصرة ورجالها في الليالي، يستمد مرجعيته من فضاء معرفي تاريخي عرفته مدينة البصرة. فقد عرف عن هذا الفضاء التاريخي احتضانه للشعراء والفنانين، والمدارس والحركات الفكرية: مدرسة البصرة النحوية، وحركة المعتزلة[٦]. فـ«في البصرة نشأ الاعتزال بعد أن مهدت له

(١) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ٢/ ٩٦٧.

(٢) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٦٢.

(٣) م ن، ٣/ ٦١.

(٤) م ن، ٣/ ٦٢.

(٥) للاطلاع على الخطابات الشعرية التي يمتلئ بها فضاء الحكاية تراجع الصفحات: ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٦، من المجلد الثالث.

(٦) المعتزلة: أهم فرقة من المتكلمين الذين يرون أن الإنسان حر: يفعل هذا أو يتجنب ذلك بمحض إرادته. ومن هنا فإن مسؤوليته عما يعمل. كما أنه بلغ من تمجيدهم للعقل البشري اعتقادهم أن هذا العقل كان يستطيع أن يصل إلى أن هذا العالم من خلق إله واحد حتى لو لم تصله الشرائع السماويةوذلك ===

القَدَرِيَّة[1] في الكوفة والشام. تم ذلك على يد واصل بن عطاء[2]. وقام عليه من بعده متكلمون من أبناء مدينته ارتبط بعضهم ببدايات الاعتزال وبعضهم بتطوره ونضجه»[3].

وقد عرف عن هذا الفضاء احتضانه للنساء الأديبات الموصوفات بكثرة الرواية والغناء في آنٍ، ومنهن -على سبيل المثال- الجارية بَذْلَ، فقد كانت إحدى «المتقدمات الموصوفات بكثرة الرواية، [و] يقال: إنها كانت تغني ثلاثين ألف صوت. ولها كتاب في الأغاني»[4]. وترعرع في هذا الفضاء راوي الشعر حماد الراوية[5] (ت ١٥٥هـ/ ٧٧٢م).

وكانت البصرة في عهدها الأموي والعباسي مأوى الشعراء، فقد كان ذو الرمة (غيلان بن عقبة بن مسعود العدوي، ت ١١٧هـ/ ٧٣٥م). كثيراً ما يأتي

=== بتأمله في عجيب مخلوقات الله سبحانه وتعالى. فهم ينفون القدر وينزهون المولى عن التشبيه والزمان والمكان والحركة.

- وهبة، د. مجدي؛ المهندس، د. كامل: معجم المصطلحات العربية في اللغة، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة ١٩٧٩م، ص ٢٠٤.

(١) القَدَرِية: هو مذهب في علم الكلام الإسلامي، يرى أصحابه أن الإنسان حر مختار في أفعاله وإلا لبطل الثواب والعقاب وكان علي رأس هذا المذهب في العصر الأموي الحسن البصري، وقد انبثق منه مذهب الاعتزال.

- م ن، ص١٥٩.

(٢) واصل بن عطاء: «٨٠- ١٣١هـ/ ٧٠٠-٧٤٨م»: رأس متكلمي المعتزلة، ولد بالمدينة وانتقل إلى البصرة حيث اتصل بالحسن البصري وعمرو بن عبيد. لقب بالغزال لتصدقه على فقيرات معامل الغزل. له «السبيل إلى معرفة الحق» و«الخطب في التوحيد والعدل».

- المنجد في الأعلام، ص ٧٤٠.

(٣) العلوي، الهادي: «البصرة في ذاكرة الحضارة»، ص ١٥.

(٤) الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، تحقيق علي محمد البجاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، طبعة ١٩٧٠م/ ١٣٨٩هـ، الجزء السابع عشر، ص ٢٠.

(٥) م ن، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، ١٨/ ١٤٢.

ليقيم بها[1]. ونشأ فيها أبو نواس (الحسن بن هانئ، ت ١٩٨هـ/ ٨١٤م). وكان الشاعران الفرزدق (همام بن غالب التميمي، ت ١١٠هـ/ ٧٢٨م)، وجرير (ابن عطية بن حذيفة الخَطَفي، ت ١١٠هـ/ ٧٢٨م). يترددان إليها كثيراً، وقد دُفِن الفرزدق في مقابر بني تميم بالبصرة[2].

ومن شعرائها -أيضاً- عِمْران بن حطّان بن وائل (ت ٨٤هـ/ ٧٠٣م)[3]، وأشجع بن عمرو السُّلَمِيّ (ت ١٩٥هـ/ ٨١١م)[4]، ومحمد بن ذؤيب العماني (ت٢٢٨هـ/ ٨٤٣م)[5].

وأمام هذا الفضاء المعرفي التاريخي المزدهر شعراً وأدباً، وقف رواة ألف ليلة وليلة لينهلوا منه، وليضيفوا إلى نصوص الليالي بعضاً من قسماته ومعطياته، وليؤكدوا أن صورة البصرة في الحكايات لا تتغاير عن صورتها التاريخية المزدهرة.

ومن ملامح التيارات المعرفية والفكرية في البصرة، والتي يشير إليها رواة الليالي، بروز تيار، أو نزعة معادية لحركة التجارة والرفاهية، واكتناز المال، وبذخ السلطة وفجورها، وهي نزعة بعض الشخوص إلى الزهد. وقد نشأ هذا التيار كرد فعل معادٍ لممارسات السلطة السياسية والاقتصادية في الفضاء الاجتماعي، وعلاقات هذه السلطة بالفقهي والديني، ومحاولتها تسخير هذا الفقهي والديني لصالحها، وابتعادها في آن عن الجوهر الجمالي الذي أتت به رسالة الإسلام. ومن أسباب نشوء هذا التيار «انصراف الناس بالعراق في عصر الفتوح إلى المادة ومتاع

---

(١) م ن، ص ٥.

(٢) م ن، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي ومحمود محمد غنيم، طلعة ١٩٧٣م/ ١٣٩٣هـ، ٣٨٩/٢١.

(٣) الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، ١٨/ ١٠٩.

(٤) م ن، ١٨/ ٢١٢.

(٥) م ن، ١٨/ ٣١٨.

الدنيا، فعمت هناك موجة واسعة من الزهد في الدنيا ونعيمها الفاني»(١). ففي حكاية «الزاهد ابن هرون الرشيد»، يبرز الراوي إلى أي مدى وصلت إليه العلاقة بين السلطة السياسية وبين الزهاد. ففي هذه الحكاية، كان للخليفة هرون الرشيد ابن زاهد -لا يذكر الراوي اسماً له- وكان معادياً لأسلوب والده في ممارسة السلطة والبذخ، والانكباب على ملذات الدنيا، وقد ترك هذا الابن حياة البلاط ونزل البصرة، ليعمل مع «الفعلة في الطين، وكان لا يعمل في كل يوم إلا بدرهم ودانق. فيتقوت بالدانق ويتصدق بالدرهم»(٢).

ويصور الراوي ملامح هذا الابن المليء زهداً ورفضاً لكل ملذات الدنيا، المنكب على عمله وصلاته بتفان قل نظيره، والذي يرفض أن يأخذ من رب عمله (أبي عامر البصري) أية زيادة اتفقا عليه: «ولم يزل يخدم [أي ابن الرشيد] إلى الليل فأعطيته درهمين، فلما رآهما قال: ما هذا؟ قلت: والله هذا بعض أجرتك لاجتهادك في خدمتي. فرمى بهما إلي وقال: لا أريد زيادة على ما كان بيني وبينك. فرغبته فلم أقدر عليه»(٣).

ويجسد الراوي المفارقة بين طبيعة تيار الزهد، وتيار السلطة السياسية، ومن خلال أبيات يرسلها الابن الزاهد، وهو على فراش الموت، إلى والده الرشيد ببغداد، مع أبي عامر البصري:

يا والدي لا تغترر بتنعّم ... فالعمر ينفد والنعيم يزول
وإذا علمت بحال قوم ساءهم ... فاعلم بأنك عنهم مسؤول
وإذا حملت إلى القبور جنازة ... فاعلم بأنك بعدها محمول(٤)

---

(١) وهبة، د. مجدي: معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٤م، ص٦١٦.
(٢) ألف ليلة وليلة، ٣/ ١٧٩.
(٣) م ن، ٣/ ١٨٠.
(٤) م ن، ٣/ ١٨١.

إن الزهد «طريقة في الحياة، ملامحها الأساسية هي التقشف البالغ، وأكبر رفض ممكن لمظاهر الراحة، طلباً لتحقيق مثل أعلى أخلاقي أو ديني سام (...)، و[وهو] شكل من أشكال الاحتجاج على ترف وعجز الطبقات الحاكمة»[1]. وتنطبق الرؤية الفلسفية المعارضة هذه على ابن الخليفة هرون الرشيد، الرافض لترف أبيه، والذي نزل البصرة احتجاجاً على سطوة أبيه في بلاطه وبين جواريه، ووجد فيها ملاذاً لرؤيته، وطموحاً للتحرر من ربقة المال وسلطته، وبطر الحكام وعسفهم.

ويبدو أن لهذه الحكاية سنداً حقيقياً في تاريخ الدولة العباسية، لأن رواة الليالي استفادوا من كل ثقافات عصرهم -بما فيها التاريخ- والعصور التي سبقتهم. فالابن الذي لم يذكره راوي الحكاية، هو أحمد بن هرون الرشيد، والرواي في الأصل التاريخي هو عبد الله بن الفتوح. يقول صاحب (المنتظم)، نقلاً عن أبي القاسم الحريري عن غيره، وصولاً لابن الفتوح[2]: « خرجت يوماً أطلب رجلاً يرم لي شيئاً في الدار، فذهبت، فأشير إلى رجل حسن الوجه بين يديه مزود وزنبيل، فقلت: تعمل لي؟ قال: نعم بدرهم ودانق». وتتناص الحكاية في الليالي، في معظم حوادثها، مع حكاية ابن الجوزي في كتابه المنتظم[3].

---

(١) روزنتال، م؛ يودين، ب: الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، الطبعة السادسة، تشرين الأول/ أكتوبر، ١٩٨٧م، ص ٢٣٦.

(٢) عن / الموسوي، د. محسن جاسم: «صيغ الكلام وأوجه الكتابة في ألف ليلة وليلة»، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ربيع ١٩٩٤م، ص ٤٢.

- وأخذ الموسوي عن / ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، الجزء التاسع، ص ٩٣.

(٣) لمزيد من الاطلاع، تقارن الحكاية في ألف ليلة وليلة، المجلد الثالث، من ص ١٧٨ إلى ص ١٨٣، بالحكاية في كتاب: المنتظم، الجزء التاسع، من ص ٩٣ إلى ص ٩٥. وفي بحث الموسوي السابق، ص ٤٢-٤٣.

ومن مظاهر انتشار تيار الزهد والصوفية في مدينة البصرة، ما يرويه الراوي في حكاية **«مالك بن دينار والعبد ميمون»**، إذ يقول[1]: «انحبس عنا المطر بالبصرة، فخرجنا نستسقي مراراً فلم نر أثر الإجابة».

ويخرج كبار علماء البصرة وسادتها إلى المسجد، ليقيموا صلاة الاستسقاء، لكن المطر يظل منحبساً، فبينما هم أمام المسجد وإذا «بأسود مليح الوجه رقيق الساقين عظيم البطن قد أقبل عليه مئزر من صوف، إذا قوم جميع ما كان عليه لا يساوي درهمين فجاء بماء فتوضأ ثم أتى المحراب فصلى ركعتين خفيفتين كان قيامه وركوعه وسجوده فيهما سواء ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ومولاي (...) أنفد ما عندك أم فنيت خزائن ملكك، أقسمت عليك بحبك لي ألا سقيتنا غيثك الساعة؟ فما تم الكلام حتى تغيمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب. ولم نخرج من المصلى إلا ونحن نخوض في الماء للركب[2].

وبطبيعة الحال لا تخلو حادثة إسقاط المطر من تخيلات وهمية يؤمن بها راوي الحكاية. فالراوي مؤدلج من طبقة الزهاد، ضد طبقات المجتمع، بفقهائها وعلمائها، لأن الكل الفقهي لمدينة البصرة يجتمع في المسجد لصلاة الاستسقاء، فلا تجيبهم العناية الإلهية، في حين أنها سرعان ما تستجيب لدعاء عبد بسيط، وتسقط له المطر. ولا تخلو هذه الرؤية من إيديولوجيا واضحة معادية لطبقة السلطة السياسية، والسلطة الفقهية والدينية في آنٍ، لأن دعاء هاتين السلطتين غير مستجاب، في حين أن دعوة العبد سرعان ما تستجاب. ومن خلال إيمان الراوي بأن التفكير الزهدي والصوفي هو الحل الأمثل لصلاح الأمة، وهو البديل من السياسي، ومن الفقهي المرتبط به، فإنه يعطي لهذا الزاهد مكانة خاصة عند ربه تفوق مكانة جميع سكان البصرة، فبدعائه الفردي يسقط المطر، في حين أن دعاء الجماعة (السياسية والدينية) كله هباء لا قيمة له.

(١) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٤٢٥.
(٢) م ن، ٤/ ٤٢٦.

ويعطي الراوي هذه المكانة المتميزة أيضاً للزاهد ابن هرون الرشيد، إذ يضفي عليه قدرات غيبية خارقة متصلة بحبل السماء، تعجز عنها جميع التيارات الفقهية والمذهبية، فعندما يقول له والده الرشيد [١]: «لقد فضحتني بما أنت عليه»، أي في إعراضه عن الدنيا، وسلوكه طريقة الزهاد، ووضعه «على جسده جبة صوف وعلى رأسه مئزر صوف» [٢]، فإن الابن الزاهد لوالده السياسي، أمير المؤمنين، أنه بكل أبهته وعظمته، وسلطته المطلقة، عاجز عن أن يكون قريباً من الله، في حين أنه وهو المستهجنة طريقته وسلوكه في علاقته مع ربه، قادر على أن يتجاوز السياسي، ويضع مشروعاً بديلاً من مشروعه، ومن خلال هذا البديل يستطيع الاقتراب إلى ربه، أكثر من قدرة هذا السياسي. يقول الراوي[٣]: «فنظر إليه ولم يجبه [إلى أبيه]، ثم نظر إلى طائر على شرفة من شرفات القصر، فقال له: أيها الطائر بحق الذي خلقك أن تسقط على يدي. فانقض الطائر على يد الغلام ثم قال له: ارجع إلى موضعك فرجع إلى موضعه. ثم قال: اسقط على يد أمير المؤمنين فأبى أن يسقط على يده».

لقد وعى الزاهد في ألف ليلة وليلة انحرافات السياسي وخروقاته الكثيرة للقوانين الفقهية والشرعية، وتهالكه على لذائذ الدنيا، وابتعاده عن إقامة الحق والعدل في مجتمعه، فنفر منه، واعتبر أن الاقتراب منه ثُلْمَة في دينه، وابتعاد عن مرضاة الله. وبهذا المنحى تسجل المصادر التاريخية بعضاً من أخبار الزهاد وعلاقتهم برجال السياسة، فيذكر ابن عبد ربه الأندلسي [٤] أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور لقي:

---

(١) ألف ليلة وليلة، ٣/ ١٧٩.

(٢) م ن، ٣/ ١٧٨.

(٣) م ن، ٣/ ١٧٩.

(٤) العقد الفريد، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨١م، الجزء العاشر، ص ٥٤.

«سفيان الثوري [1] في الطواف، وسفيان لا يعرفه، فضرب بيده على عاتقه وقال: أتعرفني؟

قال: لا، ولكنك قبضت علي قبضة جبار.

قال: عظني أبا عبد الله.

قال: وما عملت فيما علمت فأعظك فيما جهلت؟

قال: فما يمنعك أن تأتينا؟

قال: إن الله نهى عنكم، فقال تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾.

فمسح أبو جعفر يده به ثم التفت إلى أصحابه، فقال: ألقينا الحب إلى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعياناً فراراً».

ومن الملامح السياسية للبصرة في ألف ليلةٍ وليلة أنها محكومة بطغمة من الحكام والوزراء، الذين يعيثون فيها بطشاً بمناوئيهم، وتشريداً لهم، فلقد «استأثرت البصرة [في ألف ليلة وليلة] بالولاة المتجبرين والحكام الذين لا يبالون بالعدل أو الرعية»[2]. ونلمس في حكاية «**الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين**»، التي تجري حوادثها في مصر والبصرة حالات الصراع السياسي بين نظام وزير البصرة المتوفى (نور الدين)، وبين نظام الوزير الجديد (لا يذكر الراوي اسماً له)، إذ يستنفر الوزير الجديد كل أحقاده السياسية، مرتدياً جبة الحاكم الظالم، ليحرض سلطان

---

(١) سفيان الثوري: (سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، ٩٧- ١٦١هـ/ ٧١٦-٧٧٨م): كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد ونشأ في الكوفة، وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم، فأبى. وخرج من الكوفة (سنة ١٤٤هـ) فسكن مكة والمدينة. ثم طلبه المهدي، فتوارى. وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفياً.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، ٣/ ١٠٤.

(٢) القلماوي، د. سهير: ألف ليلة وليلة، ص ٢٣٣.

البصرة (لا يذكر الراوي اسماً له)، ضد وزيره السابق حسن بدر الدين بن نور الدين. ولا يذكر الراوي أي سبب يدعو الوزير الجديد لأن ينتقم من ابن الوزير القديم، ويغتصب أموال أبيه وأملاكه، على الرغم من أنه لا يزال غارقاً في أحزانه على أبيه. تقوا الحكاية[1]: «وولى السلطان وزيراً جديداً مكانه، وأمره أن يختم على أماكن نور الدين وعلى عماراته وعلى أملاكه، فنزل الوزير الجديد وأخذ الحجاب وتوجهوا إلى بيت الوزير نور الدين ليختموا عليه، ويقبضوا على ولده حسن بدر الدين، ويطلعوا به إلى السلطان ليعمل فيه ما يقتضي رأيه». وكان في نية السلطان الذي يصوره الراوي وقد ارتدى جبة السفاح، أن يقتل حسن بدر الدين[2]، فما كان من ابن الوزير إلا وأن فر من البصرة إلى «غير مقصد»[3].

ونشاهد وجه الوزير الظالم في البصرة، وذلك في حكاية «**علي نور الدين وأنيس الجليس**». فقد أمعن الوزير المعين بن ساوي -في الحكاية- فساداً، ونهباً لأموال الناس في البصرة، بعد أن مات زميله في الوزارة الوزير الفضل بن خاقان[4]، وبعد أن أصبحت مقاليد الوزارتين بيديه، سلك مسلك النميمة، واغتصب أملاك رعاياه في البصرة[5]. وفي هذه الحكاية يضطر علي نور الدين ابن الوزير المتوفى، أن يذهب بجاريته الجميلة أنيس الجليس، لكي يبيعها في سوق النخاسين، بعد أن فقد كل أمواله على ندمائه في الطعام والشراب واللهو[6]. وبمصادفات الليالي الكثيرة ينزل الوزير المعين بن ساوي إلى سوق الرقيق

---

(١) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٠١.

(٢) م ن، ١/ ١٠١.

(٣) م ن، ١/ ١٠١.

(٤) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٨٩.

(٥) يقول الراوي عن هذا الوزير: كان «يكره الناس ولا يحب الخير وكان محضر سوء». وقد كان كما قيل:

«دع اللئام بني اللئام فإنما ... تلد اللئام بنو اللئام لئاما»

- ألف ليلة وليلة، ١/ ١٨٣.

(٦) م ن، ١/ ١٩١.

ويشاهد الجارية أنيس الجليس، وما إن يشاهدها حتى يحتال لكي يأخذها غصباً. ويوضح الدلال في سوق الجواري لصاحب الجارية علي نور الدين، طريقة هذا الوزير في النصب والاحتيال قائلاً: «إن من ظلمه سوف يكتب لك ورقة حوالة على بعض عملائه ثم يرسل إليهم ويقول: لا تعطوه شيئاً، فكلما ذهبت إليهم لتطالبهم يقولون في غدٍ نعطيك ولا يزالون يوعدونك ويخلفون يوماً بعد يوم وأنت عزيز النفس، وبعد أن يضجوا من مطالبتك إياهم يقولون أعطنا ورقة الحوالة فإذا أخذوا الورقة قطعوها وراح عليك ثمن الجارية»[1].

وبعد أن يكتشف علي نور الدين هذه الحيلة يرفض بيع الجارية. وسيكون هذا الرفض، في ما بعد، سبباً لاستنفار أحقاد الوزير المعين بن ساوي على علي نور الدين، والذهاب إلى مولاه السلطان محمد بن سليمان الزيني مدعياً كاذباً أنه كان يريد شراء جارية جميلة له، لكن ابن وزيره السابق ضربه وشتمه[2]، ووفقاً لما تقتضيه التركيبة المعرفية والسلوكية لحكام ألف ليلة وليلة وسلاطينها، القائمة على الحكم الفردي المطلق، الأناني المستأثر بكل خيرات بلدانهم ونسائها واقتصادها، سيستنفز السلطان الزيني أحقاده على علي نور الدين، لرفضه بيع الجاريه. تقول الحكاية[3]: «قام عرق الغضب بين عينيه، ثم التفت إلى من يحضر به من أرباب الدولة وإذا بأربعين من ضاربي السيف وقفوا بين يديه، فقال لهم انزلوا في هذه الساعة إلى دار علي بن خاقان وانهبوها واهدموها وائتوني به وبالجارية مكتفين واسحبوهما على وجوههما وائتوا بهما بين يدي».

---

(1) م ن، ٣/ ١٩٥.

(2) م ن، ١/ ١٩٧.

(3) م ن، ١/ ١٩٧-١٩٨.

- ويتوالى السرد في الحكاية ليرتحل إلى بغداد (دار السلام)، حاملاً أنيس الجليس وعلي نور الدين، وهناك في بغداد ينصفهما الخليفة هرون الرشيد، وينتقم لهما من الوزير المعين بن ساوي، ومن سلطان البصرة محمد بن سليمان الزيني.

- م ن، ١/ ٢١٦.

إن حكام البصرة ليسوا الظلمة والطغاة الوحيدين في ليالي ألف ليلة وليلة، بل تمتلئ كل مدن ألف ليلة وليلة بالحكام والولاة الظلمة، لكن الرواة لا يجعلونهم يستكملون مسيرة ظلمهم، فهناك إما اللذات ومفرق الجماعات، بتعبير شهرزاد، الذي ينهي حالة الظلم، وإما ظالم آخر ينهي حياتهم انتقاماً، وفقاً لنسق الظلم الذي يستمر مع استمرار الحكايات، أو عادل آخر يحقق تزامن ثنائية العدل والظلم، استكمالاً لفك عقدة الحكايات في ما بعد.

هذه هي أهم ملامح مدينة البصرة في الليالي، والتي هي في التاريخ «أعز مدن العالم قوة وثروة»[(١)]، ومن أكثرها تطوراً معرفياً، وتأليفاً للكتب، ووضعاً لقواعد النحو[(٢)]. ومن أنشطها تجارة خارجية بعيدة ومزدهرة[(٣)]. وهي الغنية بمياهها وأنهارها، والأرض التي «لا يدخلها عقرب ولا حية»، كما يذكر المسعودي[(٤)]. وهي المدينة التي كانت، قبل أن تشتعل فيها ثورة الزنج بقيادة علي بن محمد[(٥)] في السابع من رمضان ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م، قبة الإسلام، وفرضة البلدان، ومدينة السفن التجارية الكبيرة، والقصور والدور والأسواق المزدحمة على حد

---

(١) العش، د: يوسف: تاريخ عصر الخلافة العباسية، راجعه ونقحه د. محمد أبو الفرج العش، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ١٢٧.

(٢) م ن، ص ٢٣٦.

(٣) ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، الجزء الرابع، ص٣٤٣.

(٤) هن / السابق، ص ٥١٨.

(٥) علي بن محمد: (صاحب الزنج ... -٢٧٠هـ/ ... -٨٨٣م): ثائر قاد ثورة الزنج على العباسيين وأقام شبه نظام عسكري اشتراكي. شيد مدينتي المختارة والمنيعة سنة ٨٦٩م، واحتل جنوبي العراق وأحرق البصرة. عجزت الخلافة في بغداد عن قهره مدة ١٤ عاماً حتى أنزل به «الموفق بالله» في أيام «المعتمد على الله» ابن المتوكل، الضربة القاضية.

- المنجد في الأعلام، ص ٤٧٥.

أوصاف ابن الرومي[1] (علي بن العباس، ت ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م)، حين يقول في رثائها:

لهف نفسي عليك يا قبة الإسـ	ـلام لهفاً يطول منه غرامي
لهف نفسي عليك يا فُرْضَة البلـ[2]	ـدان لهفاً يبقى على الأعوام

إلى أن يقول:

أين ضوضاء ذلك الخلق فيها	أين أسواقها ذوات الزحام؟
أين فلك منها وفلك إليها	منشآت في البحر كالأعلام؟
أين تلك القصور والدور فيها	أين ذاك البنيان ذو الإحكام؟.

إن بغداد والبصرة ليستا المدينتين العراقتين الوحيدتين في حكايات ألف ليلة وليلة، بل لقد ذكرت الحكايات مدناً أخرى، لكنها لا تشكل أهمية من حيث مركزية الحدث، أو ارتحالات السرد وحركة أبطاله، وتنامي الفضاء المكاني، بعلاقاته السوسيولوجية، والمعرفية، وتركيبته السلطوته، لأنها ليست إلا محطات عابرة، يمر فيها الأبطال مروراً عابراً، ودون توقف. هذا إذا استثنينا مدينة الكوفة، ونساءها العجائز المحتالات، ورجال سلطتها النصابين والظلمة، وجواريها المتألقات سحراً وجمالاً، وأصواتاً عذبة[3].

(١) ديوان ابن الرومي، شرح: محمد شريف سليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ، الجزء الثاني، ص وكذلك: الملوحي، عبد المعين: مواقف إنسانية في الشعر العربي، دار الحضارة الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، ص ٤٩-٥٠.

(٢) فرضة البلدان: الفرضة من النهر: الثُلْمة ينحدر منها الماء وتصعد منها السفن، ويُستقى منها، ومن البحر محط السفن.

- المنجد في اللغة، مادة: فرض، ص٥٧٧.

(٣) لمزيد من الاطلاع تراجع «حكاية نعمة ونعم» في المجلد الثاني من ص ٣٢٣ إلى ص ٣٤٢.

أما المدن المحطات العابرة في حركة السرد، فهي: الموصل[1]، والأنبار[2]، وواسط[5]. ويشير الراوي إشارات سريعة إلى البلد الكبير العراق[4]، دون أن يذكر أية مدينة في هذه الإشارات.

وتبقى بغداد درة مدن العراق وسيدتها، وهي أهم فضاء مكاني وجمالي وحميمي تتحرك فيه الشخوص، وتحلم، وتبكي وتعاني. وكونها حميمة بالنسبة للمحبين والأثرياء، والتجار ورجال السلطة، والجواري الجميلات، وعاشقي الخمور والنساء، لا يعني أنها بالنسبة للطبقات الفقيرة تشكل هذا الفضاء الآسر، بل هي فضاء للفقر والاغتراب والوحشة والحزن والخوف من كابوس السلطة السياسية، كم تشير إليه حكاية «**السندباد البحري**»، وحكاية «**غانم بن أيوب وقوت القلوب**».

---

(١) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٤٥.

- ويقول ياقوت الحموي عن الموصل: «إحدى قواعد بلاد الإسلام، وهي محط رحال الركبان ومنها يُقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العراق ومفتاح خراسان، ومنها يُقصد إلى أذربيجان وسميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل وصلت بين دجلة والفرات، وهي مدينة قديمة على طرف دجلة، ومقابلها من الجانب الشرقي نينوى».

- معجم البلدان، ٥/ ٢٢٣.

(٢) ألف ليلة وليلة ٢/ ٢٤٤.

- والأنبار: مدينة على الفرات في غربي بغداد. وبينهما عشرة فراسخ، وأول من عمرها سابور بن هرمز، ثم جددها أبو العباس السفاح أو خلفاء بني العباس، وبنى بها قصوراً، وأقام بها إلى أن مات.

- معجم البلدان، ١/ ٢٧٥.

(٣) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٤٣٧.

- وسميت واسط، لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة، لأن منها إلى كل واحدة منهما خمسين فرسخاً.

- معجم البلدان، ٥/٣٤٦.

(٤) ألف ليلة وليلة ٤/ ٣٩، ٤٨.

الفصل الثاني

القاهرة ودمشق ومدن أخرى
في ألف ليلة وليلة

- مدخل

١ - القاهرة

ا - لمحة تاريخية عن القاهرة

ب - القاهرة في ألف ليلة وليلة

٢ - دمشق

آ - لمحة تاريخية عن دمشق

ب - دمشق في ألف ليلة وليلة

٣ - مدن أخرى في ألف ليلة وليلة

مدخل

إن أهم المدن التي ذكرتها ألف ليلة وليلة هي المدن الحضرية القريبة من البحار والأنهار، والمليئة بالعمران والبساتين، والحمامات والأسواق والخانات التجارية. وحكايات ألف ليلة وليلة هي حكايات المدينة العربية الإسلامية في أوج نموها المعرفي والحضاري في العصر الوسيط، ومثاقفتها وعلاقاتها مع المدن الأخرى، والحضارات الأخرى الهندية والفارسية والصينية، وإن ابتعدت هذه الحكايات عن المدن المزدهرة، فإنها لا تبتعد عن بنية هذه المدن إلا لتنتقل إلى مدن أسطورية وجزر تبدو غاية في الجمال، وكأنها الصورة الندية بهذه المدن. يقول أحد الرواة واصفاً إحدى هذه الجزر: «فنظروا إلى تلك الجزيرة فرأوا فيها أشجاراً وأنهاراً وثماراً وبساتين، وفيها من جميع الفواكه والأنهار من تحت تلك الأشجار، وهي كأنها الجنة»[1] وعموماً تبدو المدن التي يصل إليها الرواة كأنها جنان الأرض، من حيث التشكيل العمراني، ونشاط الحركة التجارية، وجمال النساء اللاتي يصفهنّ الرواة بالأقمار المشعة.

غير أن المدن التي وصفتها حكايات ألف ليلة وليلة ليست مدناً مدينية تماماً، بل تبدو علاقاتها علاقات بدوية، علي الرغم من استهجان الراوي المديني لعلاقات البادية، فحتى بغداد المركزية أو البصرة المدينة الحضرية المهمة في الليالي لا تخلو من علاقات البداوة وقيمها.

---

(١) ألف ليلة وليلة، ٣/٣٢٧.

لقد كان رواة ألف ليلة وليلة ولَعين بوصف المدن الكبيرة والارتحال إليها، في حين أن المدن الصغيرة لم تكن إلا محطات سفر، يرتاح فيها الأبطال والتجار، أو طرقاً إجبارية يضطر السرد للمرور بها للوصول إلى المدينة المركز الحلم، التي تحتضن الأبطال وتعطيهم المال والشهرة والنساء، وكل ما لذّ وطاب.

لخراسان وبغداد والبصرة الصدارة في الليالي، وتأتي بعدها من حيث الأهمية القاهرة ودمشق، هاتان المدينتان المهمتان اللتان لعبتا أدواراً سياسية وتجارية مهمة في الدولة العربية الإسلامية. فدمشق كانت عاصمة للدولة العربية -أيام الأمويين - التي بسطت هيبتها على جميع بلاد أواسط آسية (في التركستان)، وغربي الهند (باكستان اليوم)، وعلى شمال القارة الأفريقية، وعلى شبه جزيرة إيبيرية (إسبانية والبرتغال)، حتى أن الزحف العربي اجتاز جبال البرانس إلى فرنسة، ووصل إلى مدينة تور في الشمال الغربي من فرنسة(١).

أما القاهرة فقد «مثلت عاصمة المدنية» في ليالي ألف ليلة، إذ كانت «مصر تجذب التجار لا ليثروا من التجارة فيها ولكن ليروا مظاهر المدنية والخصب والثراء»(٢). إلا أن مركزية القاهرة في الليالي أهم بكثير من دمشق، على الرغم من أن دمشق في التاريخ كانت عاصمة للخلافة الإسلامية، وكانت أكثر مركزية من القاهرة. ولا ندري ما السبب الرئيس الذي جعل الرواة يحتفون بالقاهرة أكثر من دمشق، إلا أنه يمكن القول: إن «الإضافات الأخيرة التي أضيفت إلى هذا الكتاب [كتاب ألف ليلة وليلة] الضخم حدثت في مصر، والراجح أن ذلك كان في أواخر عهد المماليك(٣)، ولعلها وَضِعت في القاهرة (...) وهذا الرأي يمكن استنتاجه

---

(١) حتي. فيليب: الإسلام منهج حياة، ص ١٧١-١٧٢.

(٢) القلماوي، د. سهير: ألف ليلة وليلة، ص ٢٣١.

(٣) يؤكد أحمد حسن الزيات أن حكايات ألف ليلة وليلة جُمِعت بصيغتها النهائية بين عامي ٩٢٣-٩٣٣هـ، وهما يوافقان عامي ١٥١٧-١٥٢٦م.

- ينظر: «ألف ليلة وليلة» في «ألف ليلة وليلة»، كتب دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة إبراهيم خورشيد، ود. عبد الحميد يونس، وحسن عثمان، دار الكتاب اللبناني/ مكتبة المدرسة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢م، الكتاب العاشر، ص ٩١.

(...) من لغة هذا الجزء [الإضافات] فهي تشبه اللغة العربية في عصورها المتأخرة وتقرب في كثير من الوجوه من اللغة المصرية الدارجة»[1]. ولأن هذه الإضافات حدثت في القاهرة، فقد كان نصيب القاهرة في هذه الحكايات أكبر من نصيب دمشق، لأنه من الطبيعي أن يسجل الرواة أخبار مدينتهم قبل المدن الأخرى، وعلى الرغم من ذلك فإذ ثمة إشارات غير قليلة في الليالي إلى أهمية دمشق ومركزيتها أيام الدولة الأموية، وهذه الإشارات تجعلها تتفوق على مدن أخرى كثيرة، ومنها: الكوفة والقدس والإسكندرية وحلب وصنعاء وفاس، وغيرها من المدن العربية والأجنبية الأخرى الواردة في الليالي، والتي لا تتعدّى أن تكون محطات لاستراحات قصيرة جداً.

ويُلاحظ أنه حكايات القاهرة لا تنتمي تحديداً إلى فضاءات القاهرة، بل إن الرواة كانوا يعرفون أهمية بغداد المركز، ولذا فقد بدأوا بسرد الحكاية من القاهرة، ثم ارتحل أبطالهم مع ارتحال السرد إلى بغداد المركز. وهكذا تنتهي بعض حكايات (القاهرة) في بغداد، كحكاية «**علاء الدين أبي الشامات**»، وحكاية «**علي الزيبق المصري**»، وحكاية «**علي المصري وزواجه ببنت ملك بغداد**».

وقد اعتبر الدارسون أن الحكايات المصرية أضافها رواة محترفون إلى كتاب ألف ليلة وليلة، وقد عمل هؤلاء الرواة على تضخيم حجم الكتاب بقصص عربية فيها الكثير من التقاليد الإسلامية، والأساطير الفرعونية والسير اليهودية في آن[2]، واعتبروا أن هذه الحكايات مرت في ثلاثة أطوار:

١- الطور الفاطمي: وفيه رُوِيت حكايات متأثّرة بالطّلاسم والسحر والجن.

---

(١) ماكدونالد، د.ب: «ألف ليلة وليلة»، في: «ألف ليلة وليلة»، م ن، ص ٣١.

(٢) طرشونة، د. محمود: مدخل إلى الأدب المقارن وتطبيقه على ألف ليلة وليلة، ص ٩٥.

٢- الطور الأيوبي: وفيه رويت قصص البطولة والحروب.

٣- الطور المملوكي: وتسجل حكايات هذا الطور أخبار المدن والشطّار[١].

ولم تسهم الإضافات الأخيرة إلى كتاب ألف ليلة وليلة، من قبل الرواة المصريين، في ترجيح كفّة القاهرة على بغداد، لأن بغداد تمثل الكل الحضاري والمعرفي المزدهر للدولة الإسلامية، ولأنها تتربع على عرش المجد السياسي في التوسع والنفوذ والقوة، يضاف إلى ذلك «أن القصاص المصري إذا تحدث عن مصر -وهو منها وفيها- تحدث عما يرى، وعبر عما يسمع (...) أما إذا تكلم عن بغداد فإنما يتأثر بعوامل أربعة: يتأثر بما وُضع من الأقاصيص الجميلة في بغداد، ويتأثر بما ملأ الآذان وشغل الأذهان عن عظمة بغداد وأبهة الخلافة، ويتأثر بما ركب اللّه في طباع الناس من تقديس الماضي، وتعظيم البعيد، ويتأثر بجهله أحداث التاريخ وتطور الأمم، فيأبى وهو في القرن العاشر من الهجرة أن يعترف بموت «الرشيد» ومصرع «بغداد» ونكبة المجد الأثيل»[٢].

ومن البديهي أن نقول إنّ بغداد المركزية في الليالي، والأولى في الحضارة العربية الإسلامية، في العهد العباسي، تتفوق على دمشق، لا من حيث عدد الحكايات فحسب، بل من مستويات عديدة أخرى، كنمو الأحداث وتشعبها، وحركة الأبطال، وحركة الوحدات السردية منها وإليها، وتشعب الملامح الاجتماعية والسياسية والثقافية التي امتازت بها بغداد، وتعدد الفضاءات المكانية وأهميتها في بناء حكايات بغداد، وقدرة بغداد هذه المدينة المنفتحة حضارياً على استيعاب الأقوام والشعوب ومن جنسيات مختلفة، وعلى التفاعل معها، واحتضانها.

وقد أسهم انزياح دمشق عن مركزيتها بعد أفول الدولة الأموية، في تقليل

(١) م ن، ص ٩٥.

(٢) الزيات، أحمد حسن: «ألف ليلة وليلة -تاريخ حياتها»- في: محاضرات المجتمع العلمي العربي، دمشق، طبعة ١٩٥٤م، المجلد الثالث، ص ٤٥١.

أهميتها في حكايات ألف ليلة وليلة عن أهمية بغداد، وانزياحها عن أن تكون مركزية في هذه الحكايات، هذا إذا عرفنا أن معظم رواة حكايات الليالي في جزئها العربي، وفي طبقتها البغدادية تحديداً، هم من العباسيين، ومنهم إسحق الموصلي[1]، ومحمد البصري[2]، وإبراهيم بن المهدي عم الخليفة المأمون بن هرون الرشيد[3]، والقاضي أبو حسان الزيادي، أيام المأمون[4]، وأبو سعيد بن سالم الباهلي، أيام هرون الرشيد[5]. وآخرون، وأن رواة آخرين هم من الفرس الأعاجم، مثل علي العجمي الذي يروي لهرون الرشيد[6]. مع ملاحظة أن هؤلاء الأعاجم كانوا يكرهون النظام الأموي، ويتمنون زواله، لأن هذا النظام اعتبرهم مواطنين من الدرجة الثانية، ولا يحق لهم للعرب، وبالتالي طبق عليهم سياسة التميز العنصري، مما جعل «نقمتهم تتعاظم كلما فكروا في خضوعهم لسلطانه. و[قد] طما سيل الاستياء، أكثر مما طما، حول مدينة دمشق»[7]. وهنا يبدو من غير المستحب أن تروى الحكايات التي تمجد دمشق بحضور خلفاء لا يحملون لتلك الدولة الأموية الآفلة أي مظهر من مظاهر الاحترام، أو لا يعترفون لها بالحق في خلافة خلفاء رسول الله (ص)، وقيادة زمام الدولة الإسلامية. فـ

«على أثر قيام الدولة العباسية، تسقط مدينة دمشق، وينتهي عصرها الذهبي وتدخل عهد الانحطاط ذلك أن ذِكر الأمويين كان ثقيل الوطأة على الخلافة الجديدة، فصبوا [أي العباسيون] على المدينة غضبهم وحقدهم، وخربوا القصور، وانتهكوا حرمة قبور

(١) ألف ليلة وليلة، ٢/٤١٦.

(٢) م ن، ٣/ ٧١.

(٣) ألف ليلة وليلة، ٣/١١٩.

(٤) م ن، ٣/ ١٢٤.

(٥) م ن، ٣/ ١٧٢.

(٦) م ن، ٢/ ١٤٤.

(٧) روم، لاندو: الإسلام والعرب، ص ٧٠.

الخلفاء،وهدّموا أسوار المدينة، رغبة منهم في أن يحرموا السكان ما يتحصّنون به إذا ثاروا عليهم. وإذا كان الجامع الأموي قد سَلِم من هذا التخريب فالفضل في ذلك يرجع لما كان يتمتع به من احترام في نفوس المسلمين، ولا عجب بعد ذلك، أن تنحطّ دمشق إلى مصاف المدن الثانوية، فتنتقل منها دار الخلافة وتغدو قصبة ولاية تعمل فيها عناصر الانحلال لتفكيك عُرى ذلك النظام القديم»[1].

وفي هذا الفصل أحاول أن أتبيّن ملامح القاهرة، التي لا يذكرها الرواة تحديداً، بل يستبدلونها بمدينة مصر التي هي مدينة القاهرة، لأن الرواة عندما يذكرون مدناً مصرية أخرى فإنهم يحدّدونها، كالإسكندرية والقليوبية ودمياط، وأن أتبيّن ملامح مدينة دمشق، وبعضاً من بنيتهما المعرفية والاجتماعية والسياسية والتجارية، منطلقاً من نص الليالي نفسه، ومعتمداً في آن بعض الخلفيات المرجعية التاريخية التي تذكر هاتين المدينتين.

---

(١) منيمنة، د. سلرة حسن: «مورفولوجية مدينة دمشق»، مجلة الفكر العربي، العدد ٢٩. ص ٢٤٠.

١ - القاهرة

آ - لمحة تاريخية عن القاهرة:

بعد الفتح العربي لمصر(١)، وضماناً لسيطرة العرب المسلمين عليها، ونظراً لأن بُعدها عن أرض الجزيرة العربية يجعل من استردادها، إن هي سقطت، أمراً صعباً، قرر الفاتحون الاستقرار فيها، وكان عليهم أن يختاروا عاصمة لها، فقد أراد عمرو بن العاص أن يتخذ من الإسكندرية قاعدة لحكمه نظراً لشهرتها وثرائها، لكن الخليفة عمر بن الخطاب رفض أن يترك قواته في مدينة تفصلها عن أرض الجزيرة العربية في كل عام(٢).

ويروي ياقوت الحموي(٣) أن عمرو بن العاص بعد أن فتح مصر مضى إلى الإسكندرية، وأقام عليها ستة أشهر حتى فتحها الله عليه، عندها: «كتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في سكناها فكتب إليه: لا تنزل بالمسلمين منزلاً يحول بيني وبينهم فيه نهر ولا بحر، فقال عمرو لأصحابه: أين ننزل؟ فقالوا: نرجع أيها الأمير إلى فسطاطك فنكون على ماء وصحراء، فقال للناس: نرجع إلى موضع الفسطاط، فرجعوا وجعلوا يقولون: نزلت عن يمين الفسطاط وعن شماله،

---

(١) ذكر ياقوت الحموي أن فتحها كان يوم الجمعة مستهل المحرم سنة ٢٠ للهجرة
- ينظر: معجم البلدان، ٤/ ٢٦٣. .

(٢) فولكف، أولج: القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سلسلة الألف الكتاب (الثاني) الكتاب الثاني عشر، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، ص ١١-١٢.

(٣) معجم البلدان، ٤/ ٢٦٣.

فسميت البقعة بالفسطاط لذلك». لكن المسلمين لم يتفقوا على اختيار الموقع الفعلي لمدينة الفسطاط، فهل يكون على الضفة الشرقية أو الغربية؟ فقد رأى الأتقياء في جيش عمرو بن العاص أن يجعلوها على الضفة الغربية تيمّناً بما يروى عن رسول الله (ص): «أن الجيزة بها روضة من رياض الجنة»، لكن عمرو بن العاص كان عملي التفكير، وانطلاقاً من رؤيته العسكرية فقد فضّل الضفة الشرقية حتى يكون الخليفة على اتصال قوي بجيشه، وهكذا وقع الاختيار على الضفة الشرقية في الأرض المجاورة لحصن بابليون، المهيمن على الطرق المؤدية إلى الصعيد(١).

وحول موقع مدينة الفسطاط يروي الطبري(٢) قصة ربما تكون حقيقية، وربما تخيلية، لكنها في بنيتها العامة تلتقي مع قصص الأساطير العربية، التي كانت تجد صدىً واسعاً لدى عامة الناس في العصر الجاهلي، وحتى في العصور الإسلامية اللاحقة له، فعندما عزم عمرو بن العاص السفر إلى الإسكندرية لفتحها، أمر «بفسطاطه أن يُقوَّض فإذا بيمامة قد باضت في أعلاه. فقال: لقد تحرَّمت بجوارنا أقرّوا الفسطاط حتى تنفقَ وتطير فراخها، فأُقرّ فسطاطه ووكّل به من يحفظه». وعندما رجع عمرو من الإسكندرية بنى المدينة مكان الخيمة التي بنت اليمامة عشّها عليها.

وتشير الدراسات إلى أن الفسطاط قد امتدت «في القرن الثاني الهجري وأنشئت كذلك مدينة «العسكر»، وكان امتدادها نحو الشمال، حيث أنشأ أحمد بن طولون مدينة «القطائع» التي انتهت عند ميدان المنشية. وهذه هي المدن الثلاث التي أنشأها العرب في مصر قبل إنشاء القاهرة»(٣).

---

(١) فولكف، أولج: القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، ص ١٢.

(٢) عن/ معجم البلدان، ٤/ ٢٦٣.

(٣) حمّاد، د. محمد: تخطيط المدن الإنساني عبر العصور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، طبعة ١٩٩٥م، ص ١٣٥.

أسّس القاهرة القائد جوهر الصقلّي في عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، في عهد الخليفة الفاطمي المعزّ لدين اللّه[١]. وأحاطها بالأسوار والأبواب المحصنة كباب الفتوح وباب زويلة، وأنشأ فيها شارعاً رئيسياً عظيماً سمي فيما بعد بشارع المعز لدين اللّه الفاطمي، وقد أُنشِئ هذا الشارع بطريقة فنية متعرجة، بحيث يهدف إلى حماية رواده من أشعة الشمس في صيف القاهرة، وقد كان هذا الشارع المركزي مصباً للأسواق الفرعية، والمساجد والحمامات والخانات والأسبلة والمدارس[٢]. ويبدو أن بناء القاهرة كان نتيجة حتمية لاتساع حاجات الدولة الفاطمية إلى مدينة كبيرة تستوعب الجيوش التي قدمت معها، وتراعي زيادة عدد السكان الجدد، وهو في المحصلة النهائية نتيجة طبيعية أفرزها التطور العمراني في المدن الإسلامية.

عُرِفت القاهرة في البداية باسم «المنصورية»، تبركاً باسم مدينة «المنصورية» التي أنشأها خارج القيروان، المنصور باللّه والد المعز، ولكن الخليفة [المعز لدين اللّه] الذي جاء ليستقر في مصر عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م، غير اسمها إلى «القاهرة»[٣].

وتشير إحدى الدراسات إلى أن هنالك مجموعة من الدوافع دفعت القائد جوهر الصقلي لبناء هذه المدينة، ومنها:

١- الدوافع الجغرافية: قربها من مدينة الفسطاط واتصالها بها.

٢- الدوافع الاستراتيجية: كون القاهرة أول مدينة يصل إليها المسافر بعد خروجه من الشام.

٣- الدوافع العسكرية: حينما بنى جوهر الصقلي مدينة القاهرة أراد أن يكون وأصحابه وأجناده في منأى عن العامة.

---

(١) حلاق، د. حسان: مدن وشعوب إسلامية ١/ ٣٨.

(٢) نبيل، مصطفى: «يوم كانت القاهرة عاصمة الدنيا»، مجلة الهلال، دار الهلال، القاهرة، العدد الرابع، أبريل ١٩٩٣م، ص ٨٣.

(٣) الصاوي، أحمد: «القاهرة مجمع أسواق الشرق»، مجلة الشاهد، شركة الشاهد للنشر المحدودة، ليماسول/ قبرص، السنة الخامسة، العدد السابع والخمسون، أيار/ مايو، ١٩٩٠م، ص ٧٨.

٤- الدوافع الاقتصادية: اختيار موقع للمدينة أقرب إلى نهر النيل، بحيث يكون النيل طريق نقل للبضائع والركاب، إذ تصعد فيه المراكب إلى الصعيد، وتنحدر إلى الإسكندرية[١].

إلا أن هذا الموقع الذي رآه جوهر الصقلي موقعاً متميزاً، لم يعجب المعز لدين الله لأنه رآه بلا ساحل. عندها نبّه قائد جوهر الصقلي، قائلاً: «فاتك بناء القاهرة على النيل عند المقس (ميدان المحطة)، فهلا كنت بنيتها على الجرف... ؟ (منطقة الرصد)»[٢]. لكن الدراسات الجغرافية المعاصرة فيما بعد أثبتت أن جوهر الصقلي «كان موفقاً في اختيار موقع القاهرة، حيث يضيق عنده مجرى النيل، وحيث تتخلل الجزر المكان الذي الذي تشرف عليه القاهرة والتي هي أشبه بممر طبيعي يسهل الانتقال من ضفة إلى أخرى ويهون عليهم أمر ذلك كثيراً»[٣].

وإذا كان القائد جوهر الصقلي قد فاته ما قاله المعز لدين الله، انطلاقاً من رؤيته العسكرية لموقع القاهرة الذي ظن أنه يحقق موقعاً مهماً لجنوده، وذلك من خلال الميدان الفسيح الذي كانت تُقام فيه حفلات استعراض الجيش والذي يتسع لعشرة آلاف ما بين فارس وراجل[٤]، فإن «الخلفاء الفاطميين لم تفتهم النظرة إلى مواطن الجمال في أطراف القاهرة والفسطاط والجيزة، فانتقلوا بها إلي شاطئ النيل وحافتي الخليج، وشبرا حيث كانت الخضرة والماء، فأنشئوا [كذا] المناظر والحدائق وكانوا يقضون فيها أوقاتاً سعيدة»[٥].

---

(١) العلواني، نوري عباس: مراجعة لكتاب: «دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية» لعبد الجبار ناجي، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد، بيروت، السنة الثانية، العدد السابع، ربيع ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ٣١٠.

(٢) حماد، د. محمد: تخطيط المدن الإنساني عبر العصور، ص ١٣٨.

(٣) عثمان، د. محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ٩٩.

وأخذ عن / مصطفى، د. نيازي: القاهرة -دراسات تخطيطية في المرور والنقل والمواصلات، ص ٩-١٠، دون أن يذكر دار النشر وتاريخ الطبعة.

(٤) حماد، د. محمد: تخطيط المدن الإنساني عبر العصور، ص ١٣٧.

(٥) م ن، ص ١٣٨.

وقد قسمت المدينة لأن تتوزع فيها الطبقات بحسب موقعها في الهرم السلطوي، بحيث يكون قصر الخليفة بعيداً عن قصور الطبقات الشعبية، وهذا ما يلاحظ في معظم المدن الإسلامية التي شكلت مدناً مركزية وعواصم للدولة الإسلامية، فالشارع المركزي -المشار إليه سابقاً- كان طوال العصر الفاطمي مقصوراً «على سكن الخليفة ورجاله (...) وقصر السلطان هو مركز القاهرة، ويحيط به قصور الأمراء والقادة، وفي الدائرة الأوسع التجار والعامة. وعند هوامش القاهرة يعيش المزارعون»[1]. وقد احتلت مدينة القاهرة مكانة مهمة بين مدن مصر. ولم تنازعها مكانتها هذه في تاريخ مصر سوى مدينتي طيبة والإسكندرية. والقاهرة أقدم مدينة في العالم باعتبارها وريثة «منف» القديمة[2].

ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي، أشار الشعراء الجوالة إلى القاهرة باسم بابليون Babilone، وقد انتقلت هذه التسمية للاستعمال العام في أوروبا إلا أن المؤلفين الأكثر اطلاعاً بجغرافية المدن وتاريخها رأوا أنه من الضروري التمييز بين بابليون التوراتية[3]، وبين عاصمة مصر، التي ميزوا فيها بين مدينتين: هما بابليون التي تحمل اليوم اسم مصر العتيقة وبين القاهرة الحقيقية التي أسسها الفاطميون في القرن العاشر الميلادي[4].

---

(١) نبيل، مصطفى: «يوم كانت القاهرة عاصمة الدنيا»، ص ٨٣..

(٢) م ن، ص ٧٥.

(٣) أما مدينة بابليون التوارتية القديمة فقد «نمت في العصور القديمة بجوار الحصن الروماني الذي دعي «قصر الشام». وفي زمن الفتح العربي توسعت بمعسكر الفسطاط الذي أقامه الفاتح عمرو بن العاص شمال شرق الحصن. وبعد قليل نمت العاصمة القديمة أيضاً في اتجاه الشمال أثر ظهور «حي العسكر»، وعلي أيدي العباسيين في القرن الثامن، وحي «القطائع» في القرن التسع (الميلادي) بجهود الفاطميين. وفي عام ٩٦٩م تأسست (...) نواة، القاهرة الحديثة إلى الشمال أيضاً وتوسعت وتحصنت على يد صلاح الدين الأيوبي».

- ينظر: دوب، ب. هـ: «القاهرة كما رآها الرحالة الغربيون في العصر الوسيط»، ترجمة عبد الرحمن حميدة، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، السنة الخامسة عشرة، العددان ٤٩/ ٥٠، آذار/ حزيران ١٩٩٤م، ص ٦٤.

(٤) م ن، ص ٦٣.

وتعد القاهرة من أهم المدن الإسلامية التي تمتاز «بثقل ثقافي وحضاري وتاريخي، حيث تتجمع فيها مختلف المظاهر العمرانية والتراثية عبر مراحل تاريخها، وذلك منذ تأسيسها عام ٩٦٩م شمالي الفسطاط»(١). ويرى أحد علماء الجغرافية العرب أنه لو حُصِرت العواصم المخضرمة العربية في الدنيا، فلعل القاهرة هي أهم المدن جميعاً(٢). وموقع القاهرة هو موقع فريد في مصر وخارجها، فهو موضع التقاء الدلتا بالصعيد في عقدة الوادي(٣).

ويرى أحد الدارسين أن المميزات المادية لموقع القاهرة جذب العديد من السكان في حين أن بواعث دينية أخرى أسهمت في جلبهم(٤). إذ إن الأقاصيص الدينية نسجت هالة قدسية حول هذا الموقع، فقد ساد بين الناس «أن الدعوات التي تؤدى على جبل المقطم مجابة، وأن الله قد وعد بأن يجعل من السفح [سفح المقطم] روضة من رياض الجنة، وأن هذا السفح يتمتع بخاصية خارقة للطبيعة مباركة، فالجثث التي تُدفن فيها لا تبلى لوقت طويل (...) وقد أعتقد أن من يدفن في نهاية الطرف الجنوبي يبعث أيام الأربعاء والخميس والجمعة المقدسين..»(٥).

من الملاحظ أن المصادر القديمة، والتي جاءت بعد تأسيس القاهرة، لم تذكر القاهرة تحديداً، بل ظلت تطلق عليها اسم الفسطاط تارة ومصر تارة أخرى، فياقوت الحموي(٦) المتوفي ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م، بالرغم من استفاضته بالحديث عن الفسطاط ومصر بكثير من التفاصيل، فإنه لا يذكر القاهرة إلا مرة واحدة قائلاً: «ثم

---

(١) حلاّق، د. حسان: مدن وشعوب إسلامية، ١/ ٣٨.

(٢) حمدان، د. جمال: «القاهرة الكبرى -دراسة في جغرافية المدن»، مقدمة كتاب: القاهرة، لـ: ديزموند ستيورات، تزجمة يحيى حقي، دار المعارف، القاهرة، طبعة ١٩٨٧م، ص ١٢.

(٣) م ن، ص ١٩.

(٤) فولكف، أولج: القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، ص ١٥.

(٥) م ن، ص ١٥-١٦.

(٦) معجم البلدان، ٤/ ٢٦٦.

اتفق في سنة ٥٦٤ [هـ] نزول الإفرنج على القاهرة فأضرمت النار في مصر لئلا يملكها العدو» . ويبدو أن هذه المصادر ظلت تعد القاهرة هي مصر والفسطاط ، حيث يغلب الاسم القديم للبلد الكل (مصر) على الجزء المحدث (القاهرة)[١] . وقد ظل اسم مصر أو الفسطاط غالباً أيضاً على الاسم الجديد (القاهرة في حكايات ألف ليلة وليلة .

وتبقى القاهرة في المحصلة النهائية المدينة الجديدة المتطورة التي احتوت وضمت إليها بعد التجديد في بنائها ، المدن الصغيرة السابقة لها المسماة بـ : بابليون Babilone والقطائع والعسكر والفسطاط ، والتي يمكن عدها أحياء كبيرة مجاورة للقاهرة ، وفي ما بعد ذابت ملامحها في القاهرة تماماً ، وبقي الملمح الكل الجامع لها ملمح القاهرة المزدهرة عمرانياً وحضارياً ، المليئة بالمساجد والشوارع ، كما يروي ياقوت الحموي[٢] عن القاضي أبي عبد اللّه القضاعي ، أنه «كان في مصر من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد وثمانية آلاف شارع مسلوك وألف ومائة وسبعون حماماً» .

وفي المصادر التاريخية تبدو مصر بلداً مباركاً وطيباً ، وعمرانها أبعد العمران عن الخراب ، إذ يروي ياقوت الحموي[٣] عن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص أنه قال عن مصر : «وهي اليوم أطيب الأرضين تراباً وأبعدها خراباً لن تزال فيها بركة ما دام في الأرض إنسان (...) وقالوا : مثلت الأرض على صورة طائر ، فالبصرة ومصر الجناحان فإذا خربتا خربت الدنيا» .

---

(١) وهذا ما يلاحظ حتى الآن بين سكان مصر ، فالرجل من الإسكندرية أو من المنصورة أو من طنطا أو من الصعيد ، وغيرها من مدن مصر ، عندما يذهب إلى القاهرة يقول : أنا نازل مصر .

(٢) معجم البلدان ، ٤/ ٢٦٦ .

(٣) معجم البلدان ، ٥/ ١٣٧ .

إلا أن حوادث التاريخ المعاصر تثبت بطلان هذا الرأي ، فمصر مثلها مثل كل البلدان المعرضة للخراب بفعل الكوارث الطبيعية ، وما الزلازل والفيضانات التي حدثت في الأعوام العشرة الأخيرة في مصر ، والتي فتكت بمئات الناس إلا الدليل على بطلان رأي عبد الرحمن بن العاص .

إن القاهرة التاريخية سليلة الحضارات القديمة الفرعونية والرومانية هي «مدينة تجمع بين القديم الوسيط والحديث بل إنها مدينة تجمع التاريخ كله»[1]. وقد تحدث الرحالة عن هذه المدينة بإعجاب ودهشة، يصلان حد التبجيل، فها هو يعقوب الفيرونيJ.de Véroné، يأتي من البندقية وعندما يصل إلى القاهرة في آخر أيلول ١٣٣٥م، يصفها قائلاً[2]: «وصلت إلى القاهرة، المدينة التي تحوي الكثير من العجائب التي تستحق الذكر، لأنها زعيمة كل مصر وفلسطين والأرض المقدسة، وكل بلاد الآشور حتى أرمينية (...) والهواء فيها عذب وخال من أي شكل من أشكال الوخامة، والسكان أغنياء جداً بفضل تجارة الهند». ويصفها رحالة آخر بأنها «بندقية الشرق»[3]. ويبدي أحد الرحالة المعاصرين إعجابه الشديد بها، فيصفها بأنها «المدينة، التي نطق فيها السيد المسيح أول كلماته»[4]. و«هي قطب العالم العربي، خاصة في مجال الثقافة الشعبية»[5]. وهي «الخلية العامرة بالحياة والتي لا مثيل لها»[6]، وهي المدينة الآمنة التي توفر ملاذاً أميناً للاجئين إليها منذ أيام الملك هيرود، حتى المجاعة على الساحل الأفريقي، إلى الأيام المعاصر[7].

وبعد انهيار بغداد العباسية وأفول عزها، وسقوط الخلافة العباسية فيها سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، ستصبح القاهرة مدينة مركزية مزدهرة بالنسبة للدولة الإسلامية، مثلها مثل دمشق أيام الخلافة الأموية، ومثل بغداد أيام الخلافة العباسية. ونظراً للدور الجديد الذي ستلعبه مصر، وللمركزية السياسية التي تحتلها

---

(١) حلاق، د. حسان: مدن وشعوب إسلامية، ١/ ٤٣.

(٢) عن/ دوب، ب. هـ: «القاهرة كما رآها الرحالة الغربيون في العصر الوسيط»، ص ٦٨، ٧٠.

(٣) ستيورات، ديزموند: القاهرة، ص ١٣٥.

(٤) ثورو، بيتر: «القاهرة قلب مصر المضيء»، مجلة الجيل، مؤسسة الجيل للصحافة، باريس، المجلد السادس عشر، العدد الحادي عشر، تشرين الثاني/ نوفمبر، ١٩٩٥، ص ١٠.

(٥) م ن، ص ١٤.

(٦) م ن، ص ١٧.

(٧) م ن، ص ١٥.

في ظل دولة المماليك، فإن القاهرة ستصبح في ظل هذه الدولة: «القلب من الجسم بعد أن تكونت للعروبة معالم واضحة فامتدت حدود هذه الدولة من اليمن جنوباً حتى نهر الفرات وجبال طوروس شمالاً، وعلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط من خليج الإسكندرية حتى بلاد برقة، وعلى ضفاف النيل حتى أعالي النوبة»[1].

هذه هي بعض ملامح القاهرة عبر التاريخ، كما وصفتها المصادر والمراجع. فما هي أهم ملامحها الإنسانية والاجتماعية في حكايات ألف ليلة وليلة؟. هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال الصفحات الآتية.

ب - القاهرة في ألف ليلة وليلة

يتّفق الدارسون على أنّ كتاب ألف ليلة وليلة يتكون من طبقات متعددة، وإحدى هذه الطبقات كُتبت في بغداد وأخرى كتبت في مصر [2]. والطبقة المصرية أُضيفت إلى الكتاب في زمن متأخر [3]، فـ«الأقاصيص الهيّنة الجيدة السبك التي تمثّل حياة الطبقة الوسطى وتقوم على مشكلة من مشكلات الحب ويكون حلّها على يد الخليفة هي من الطبقة البغدادية، وأمّا حكايات الصعاليك وحكايات الجن- وهذه في الغالب ضعيفة الأسلوب- فهي من طبقة مصرية متأخرة» [4]. إنّ ما يميّز حكايات ألف ليلة وليلة في طبقتها المصرية كما يرى أحد الدارسين، وجود عنصر

---

(١) نبيل، مصطفى: «يوم كانت القاهرة عاصمة الدنيا»، ص ٧٩.

(٢) ميلر، أوغست؛ Muller, August، عن/ أويسترب، ج، Oestrup.J: «أف ليلة وليلة»، في: «ألف ليلة وليلة»، كتب دائرة المعارف الإسلاميّة، ص ١٧.

- وكذلك: الموسوي، د. محسن جاسم: الوقوع في دائرة السحر- ألف ليلة وليلة في النقد الأدبي الإنكليزي، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، طبعة ١٩٨٧م، ص٨.

- وكذلك: القلماوي، د. سهير: ألف ليلة وليلة، ص ٨٤.

(٣) أويسترب، ج: «ألف ليلة وليلة»، م س، ص١٧.

(٤) م ن، ص ٢٨.

المغامرات في بنية أحداثها «التي تعتمد المكر والحلية من جانب والمنافسة السياسيّة الحادة من جانب آخر»[1]. على أن الدارس، مهما كان دقيقاً، لا يستطيع أن يصنّف خصائص معينة ودقيقة للطبقة المصرية، تميّزها عن البغدادية أو الهندية أو الفارسية، لأنّ معظم الحكايات تلتقي في معظم بنياتها التركيبية، التي تتشابه من حيث الحيلة والمكر والقتل والدهاء والجواري الجميلات، ورجال السلطة السفّاحون، والملوك والأمراء الذي يتطاحنون حروباً مدمّرة في تنافساتهم السياسيّة. فالطور البغدادي يتداخل مع الطور القاهري، ويتزامن معه، والسارد الذي يكون في بغداد سرعان ما ينتقل إلى القاهرة، وبالعكس، كما في حكاية «علي الزيبق المصري ودليلة المحتالة». والذي يكون في القاهرة سرعان ما ينتقل إلى بغداد، بوحداته السردية كما في حكاية «علاء الدين أبي الشامات»، وقد «كان القصاص المصري يعتمد على ما يصدر عن بغداد من الأقاصيص الموضوعة والمنقولة، والرّوايات القديمة الصحيحة والمدخولة، ثم يضيف إلى ذلك ما تُنوقل في مصر وما تجمّع من الأخبار من التجار والرحالين والبحارين، فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة يدوّنون ما رأوا من الأعاجيب»[2].

ويمكن بشيء من التقريب القول: إنّ الطريقة التي يمكنها أن تلقي الضوء لمعرفة الطور القاهري، ولو بشكل نسبي، هي متابعة السارد وهو يحدد الأماكن الواقعية التي يصل إليها الأبطال، أو يسمّي بعض أحيائها، أو يحدد أسماء حكّامها الحقيقيين في الأزمنة التي حكموا فيها، وسيساعدنا أيضاً، في تحديد هذه الحكايات لغة الحكاية التي تنهل في تركيبتها من لهجة المدينة، لأنّ هذه اللهجة من شأنها «أن

(١) الموسوي، د. محسن جاسم: الوقوع في دائرة السحر، ص٩.

(٢) الزيّات، أحمد حسن: «ألف ليلة وليلة»، في: «ألف ليلة وليلة»، كتب دائرة المعارف الإسلامية، ص٨٣.

تقودنا إلى أصل النص»[1]، فالحكايات التي تذكر المدن المصرية تحتفظ بلهجة عاميّة، لا تزال معروفة في مصر حتى الآن. على أنّ ذكر الشخصية المقرونة بمكان معين، أو بزمان يدور الأبطال في فضائه التاريخيّ، ليس دليلاً كافياً لمعرفة أصل الحكاية، أو الطبقة التي تنتمي إليها، فعلى سبيل المثال نجد أن الحكاية التي «تُقال عن الرشيد قد تكون أُلّفت بعده بقرون، أو حتى أُلِفت قبله بقرون وأضيف إليها اسمه إضافة مفتعلة عندما أراد القاصّ أن ينزل هذه القصّة القديمة إلى جوّ المسلمين فسمّى الملك القديم هرون الرشيد، ولم يجد من سامعيه تحرّجاً ولم يقدّر أن قوماً سيتساءلون ويخضعون قصصه، الذي ألفّه ليؤدي غرضاً آخر، لقوانين العقل والواقع والحق»[2].

وفي دراستي لملامح القاهرة في حكايات ألف ليلة وليلة التي وصفتها، سأعتمد بالدرجة الأولى، في تحديد حكايات الطبقة المصرية، المسمّيات المكانية للمدن المصرية وأحيائها، من دون أن أجدني مضّطراً للخوض في الآراء الكثيرة المتشعّبة والمتضاربة التي تؤكّد أو تنفي أو ترجّح أنّ هذه الحكاية أو تلك قاهرية أو بغدادية، أو هندية أو فارسية، لأن دراستي ستنطلق من الفضاء المكاني، وأهمّ ملامحه، وعلاقات شخوصه، ودور هؤلاء الشخوص في تحديد سمات المكان وهم يصفونه، أو يتعايشون معه. وفي البداية تجدر الإشارة إلى أنّ الرّواة لا يذكرون القاهرة في جميع الحكايات إلا مرتّين[3]، وهم يستعيضون عنها باسم مصر، أو مصر القديمة، وهم يعنون بها القاهرة، لأنهم عندما يذكرون مصر فإنّهم يذكرون أحياء حقيقية لا تزال معروفة حتى الآن بالأسماء نفسها في القاهرة المعاصرة،

---

(١) الموسوي، د. محسن جاسم: م س، ص١١.

(٢) القلماوي، د. سهير: م س، ص٨٤.

(٣) وذلك في حكاية الملك الناصر والولاة الثلاثة، ألف ليلة وليلة: ٣/ ١١٤، وفي حكاية الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدي: م ن، ٤/ ٤٣١.

ومن هذه الأحياء: القليوبيّة[1]، وخان مسرور، وباب زويلة، والحبّانيّة، وبين القصرين [2]، وحي البنداقيّين، وحارة اليمانيّة والجودريّة[3]، وميدان الفيل [4]، وباب النصر، وحي العادليّة [5].

أمّا حكايات القاهرة في الليالي فهي: حكاية «**الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين**»، وهي داخلة ضمن حكاية «**هرون الرشيد مع الصياد**» [6]، وتجري حوادثها في مصر والبصرة، وحكاية «**النصراني لملك الصين**»، وهي ضمن حكاية «**الأحدب وملك الصين**» [7]، وحكاية «**علاء الدين أبي الشامات**» [8]، وهي مصرية وبغدادية في آن، وحكاية «**وردان الجزّار**»[9]، وهي في زمن الحاكم بأمر اللّه، وحكاية «**الملك الناصر والولاة الثلاثة**»[10]، وحكاية «**علاء الدين والي قوص مع أحد اللصوص**»[11]، وحكاية «**الرجل البغدادي الذي سافر إلى مصر لأجل ما رآه في الحلم**»[12]، وفيها يرتحل السرد من بغداد إلى القاهرة، ثم يعود إلى بغداد، وحكاية «**الحاكم بأمر اللّه مع الرجل الكريم**» [13]، وحكاية «**علي المصري وزواجه**

---

(١) ألف ليلة وليلة، ١/ ٩٥.

(٢) م ن، ١/ ١٣٠.

ويطلق بعض المصريين المؤمنين بكرامات الأولياء على باب زويلة في هذه الأيام اسم: باب المتوليّ.

(٣) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٩٠.

(٤) م ن، ٤/ ١٩٥.

(٥) م ن، ٤/ ٣٧٤.

(٦) م ن، ١/ ٩٣.

(٧) م ن، ١/ ١٢٨.

(٨) م ن، ٢/ ٣٤٧.

(٩) م ن، ٣/ ٨٢

(١٠) من، ٣/ ١١٤.

(١١) م ن، ٣/ ١١٨.

(١٢) م ن، ٣/ ١٢٨.

(١٣) م ن، ٣/ ١٢٩.

ببنت ملك بغداد» [1]، وكما يظهر من عنوان الحكاية، فإن الشخصية المصرية فيها ترتحل من القاهرة لتستقرّ ببغداد، وحكاية «**جودر ابن التاجر عمر وأخويه**»[2]، وحكاية «**علي الزيبق المصري ودليلة المحتالة**» [3]، وحوادثها في القاهرة وبغداد، وحكاية «**سيف الملوك وبديعة الجمال**» [4]، وهي داخله ضمن حكاية «**التاجر حسن مع الملك محمد بن سباتك**»، وحكاية «**معروف الإسكافي وزوجته فاطمة العرّة**»[5]، وحكاية «**الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدي**» [6].

إذا كانت بغداد في ألف ليلة وليلة قد نالت حظوة كبيرة عند الروّاة، باعتبارها مدينة مركزيّة للسياسة والسطوة والعلم والمعرفة والترف والرفاهية، فإن حظّ القاهرة بالرّغم من حكاياتها الكثيرة أقلّ من حظّ بغداد، إذ يصورّها الرّواة على أنّها مدينة «للاحتيال والشطارة والشعوذة والجهل» [7]، ويمكن القول إنها تحتل المرتبة الثالثة بين فضاءات المدن العربية في ألف ليلة وليلة، بعد بغداد والبصرة، لكنّ هذه المدينة بالرّغم من أنها فضاء للاحتيال بامتياز، فإنّ عليها قسمات وملامح جماليّة غير قليلة، فهي قريبة إلى القلب وعزيزة على النفس، وفضاء لمتعة العين والقلب: «فليس على وجه الأرض أحسن منها» [8]. ومن ملامحها: أنّ الحياة فيها طيّبة،

---

(١) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٢٠٨.

(٢) م ن، ٤/ ٥٣.

(٣) م ن، ٤/ ١١١.

(٤) م ن، ٤/ ١٨٤.

(٥) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٣٧٠.

(٦) م ن، ٤/ ٤٣١.

(٧) الزيّات، أحمد حسن: «ألف ليلة وليلة» - تاريخ حياتها»، في: محاضرات المجمع العلمي العربي، ٣/ ٤٥١.

(٨) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٤٥.

وأنها تجمع كل ما تطمح إليه ملذّات النفس البشريّة، التقيّة والمارقة، وسكانها محلّ صدق، كما يذكر أحد الشعراء [1]:

أأرحل من مصر وطيب نعيمها ... وأي مكان بعدها لي شائق؟
بلاد تشوق العين والقلب بهجة ... وتجمع ما يهوى تقي ومارق
وإخوان صدق يجمع الفضل شملهم ... مجالسهم مما حووه حدائق
أسكان مصر إن قضى الله بالنوى ... فثمّ عهود بيننا ومواثق.

ومن صفاتها، أنها «مدينة مصر المحروسة» [2]، و «مدينة مصر السعيدة» [3]، والمدينة التي يقصدها الراوي هنا، هي القاهرة تحديداً.

والقاهرة في بعض حكايات ألف ليلة وليلة مدينة تجاريّة مزدهرة، وتجّارها أثرياء مترفون حتى التخمة: «كان بمدينة مصر رجل تاجر، وكان عنده شيء كثير من مال ونقود وجواهر ومعادن وأملاك لا تُحصى» [4]. لكنّ الرّاوي العاشق لبغداد ذات الشهرة التجاريّة التي لا تُضاهى، لا يستطيع أن يتخلّص من سحرها وجاذبيتها، وهو يصف ثراء التّجار في القاهرة، بل يؤكّد أنهم يعودون بجذورهم إلى أصول بغدادية. فالتاجر المصري الغني صاحب الأموال التي لا تحصى «كان اسمه حسناً الجوهري البغدادي» [5].

ومن مظاهر ثراء التّجار في مصر وأبهتهم، ما نقرؤه عن شمس الدين والد علاء الدين أبي الشامات، فهو «صاحب خدم وحشم وعبيد وجوار ومماليك ومال كثير» [6]. وما يُلاحظ على أولاد هؤلاء التّجار أنّ فضاء القاهرة بكلّ شساعته

(١) م ن، ١/ ١٤٥.
(٢) م ن، ٤/ ٣٧٠.
(٣) م ن، ٤/ ٣٧٥.
(٤) م ن، ٣/ ٢٠٨.
(٥) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٢٠٨.
(٦) م ن، ٢/ ٢٤٧.

وجمال نسائه لا يغريهم بدوام العيش فيه، فابن التاجر حسن البغدادي، المدعو بـ«علي المصري»، وعلاء الدين أبو الشامات ابن التاجر شمس الدين، يرفضان العيش في القاهرة بالرغم من ثرائها الأسطوري، ويرتحلان إلى بغداد المركز ليستقرّا هناك بقيّة حياتهما. وهذا الارتحال عائد إلى أضواء الشهرة والثراء التي عاشتها بغداد المركزيّة.

ويقدّم الرّاوي تجّار مصر في صورة مليئة بالكرم، وبخاصة في علاقاتهم المتميّزة مع رجال السلطة. فها هو أحد تجّار مصر الأثرياء الذي يملك مائة جارية[1]، يكرم الخليفة الحاكم بأمر اللّه وجنوده، عندما ينزلون في بستانه، ويطعمهم جميعاً مما أرسلته إليه جواريه المائة من طعام، إذ أخرج الرجل: «مائة بساط ومائة نطع ومائة طبق من الفاكهة، ومائة جام ملآن حلوى ومائة زبديّة ملأى بالشرابات السكريّة»[2]، ثم قدّمها للخليفة وحرّاسه. ويقول الرّاوي[3]: إنّ الخليفة بأمر اللّه سجد «شكراً للّه تعالى وقال: الحمد للّه الذي جعل في رعايانا من وسّع اللّه عليه حتى يطعم الخليفة وعسكره من غير استعداد لهم، من فاضل طعامه».

وصعايدة مصر هم الآخرون كرماء في ألف ليلة وليلة، ويذكر الرّاوي أن متولّي القاهرة الأمير شجاع الدين محمد نزل وأعوانه عند رجل من أهل الصعيد، وباتوا عنده فأكرمهم خير إكرام، وقدّم لهم كل ما يليق بهم[4].

إنّ صورة رجال مصر الكرماء في الليالي لها خلفيّة تاريخيّة واقعية تسجّلها بعض المصادر التاريخيّة والاجتماعيّة، إذ يذكر ابن خلدون[5] أنّ أهل مصر «أكثر

---

(١) م ن ٣/ ١٦٩.

(٢) م ن، ٣/ ١٦٩.

(٣) م ن، ٣/ ١٦٩.

(٤) م ن، ٤ / ٤٣١.

(٥) مقدّمة ابن خلدون، ٢/ ٨٧٤.

صدقة وإيثاراً من جميع أهل الأمصار». ويتعاطف الرّاوي مع رجال مصر، وبطبيعة الحال يفضّلهم على رجال الإفرنج، انطلاقاً من إيديولوجيته الإسلاميّة، ويدفع نساء رجال الإفرنج إلى ترك أزواجهنّ محبّة برجال مصر، ففي حكاية «**الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدي**»، يتزوّج أحد رجال الصعيد امرأة إفرنجية جميلة، من سبايا نساء الإفرنج- أيام الحروب الصليبية- وعندما تُعقد الهدنة بين المسلمين والإفرنج لتبادل سبايا الطرفين وفقاً لمعاهدات وقف الحرب، يُحضرون المرأة الإفرنجية، ويسألها رسول ملك الإفرنج، بحضور الملك الناصر وزوجها الصعيدي: «أتروحين إلى بلادك أم إلى زوجك فقد فكّ اللّه أسرك أنت وغيرك. فقالت للسلطان: أنا قد أسلمت وتزوّجت وحملت كما ترون وما بقيت الإفرنج تنتفع بي، فقال الرسول: أيُّما أحبّ إليك أهذا المسلم أو زوجك الفارس فلان؟ فقالت كما قالت للسلطان» (١).

أمّا الصورة النقيضة لصورة ثراء التجار الفاحش في القاهرة، فهي صورة المهمّشين اقتصادياً ومالياً، فمقابل الثراء الفاحش هناك الفقر المدقع، فأرباب المهن الدونيّة يتضوّرون جوعاً، مقارنة بالتجار الأثرياء، ولعلّ صورة معروف الإسكافي تجسّد حال هؤلاء المهمّشين، فقد «قعد في الدكان إلى نصف النهار، فلم يأته شغل [و] لم يكن معه من حق الخبز شيء ثم إنه مرّ على دكان الكنافي ووقف باهتاً واغرورقت عيناه بالدموع» (٢).

إنّ دراسة نصوص الليالي المتباعدة في الزمان والمكان، والعادات والطباع والأخلاق، من شأنها أن تجعل الباحث لا يركن إلى نتائج دقيقة وثابتة أو متشابهة، لأنّ رواة الليالي المتعددين متناقضون في رؤيتهم للحياة بعلاقاتها وقيمها، وكذلك

---

(١) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٤٣٥.

(٢) م ن، ٤/ ٣٧١.

نجد أنّ المدن والشخوص التي يصفونها، هي الأخرى مليئة بالتناقض أيضاً. وربما قد تكون ثمّة قواسم مشتركة بين الحكايات من حيث الأحداث، والغايات، من جهة، وبين ملامح الشخوص ورؤيتها من جهة أخرى، لكنّ هذه القواسم تظلّ قابلة لشروخ وثغرات عديدة. ومن هذه الثغرات يبرز المتغاير، فإذا كان أحد الرّواة قد وقف مع الأمراء والأميرات، والأبطال التجار المغامرين، وحقّق لهم كل ما يطمحون إليه، فإنّ راوياً آخر وقف مع إسكافي فقير (معروف الإسكافي)، ونقله من حيّه الفقير بمصر، إلى مدينة (اختيان الختن)، وأكرمه وسخّر له خاتم «شبيك لبيك أنا بين يديك»، ثم جعله ملكاً على مدينة (اختيان الختن) [1]. وإذا كان راوٍ آخر قد رأى أنّ المرأة شرّ مطلق، فهي الزانية في طبعها، والماكرة في حياتها، فإنّ راوياً آخر راها مليئة بالنبل والكرم والطهارة.

وإذا كان أحد رواة ألف ليلة وليلة يذكر أنه «كان في مصر سلطان عدل وإحسان» [2]، فإنّ راوياً آخر، انطلاقاً من فكرة الثنائيات الضدّية التي يركّز عليها معظم رواة ألف ليلة وليلة، يذكر أنه كان في مصر ملك يسمى شمس الدولة، يعذّب الناس ظلماً، ويغتصب ممتلكاتهم قهراً، إذ أرسل هذا الملك «إلى أخوي جودر وجاء بهما ورماهما تحت العذاب، (...) وأخذ الخرجين منهما ووضعهما في السجن» [3]. وإذا كان ظلم الحكام مستشرياً في مصر، شأنها شأن كل مدن ألف ليلة وليلة وبلدانها، فإنّ هذا لا يمنع من آن تكون هناك شريحة تنتمي إلى السلطة، وتتحلّى بالكرم والنبل، ويؤلمها ما يعاني منه المظلومون والبؤساء في مصر، وهذا ما نلمسه في حكاية: **«معروف الإسكافي وزوجته اطمة العرة»**، إذ إنّ القاضي فطن إلى مكر زوجة معروف الإسكافي، فأنصفه منها، وتصدّق عليه: «وكان ذلك

---

(١) هذا ما تحكيه حكاية «معروف الإسكافي مع زوجته فاطمة العرّة»، في المجلد الرابع، من ص ٣٧٠ إلى ص ٤١٩.

(٢) ألف ليلة وليلة، ١/ ٩٤.

(٣) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٧٨.

القاضي من أهل الخير، فأخرج له ربع دينار»[1]. ولا يعني إذا كان هذا القاضي عادلاً، أنّ أعوانه عادلون، بل هم ظلمة، مثلهم مثل طبقة الحاشية التي تحيط بالرجل السلطوي الكبير في الليالي، سواء أكان خليفة أم سلطاناً، أم قاضياً أم وزيراً، إذ يذكر الراوي في الحكاية السابقة أن رسل القاضي، بعد أن أفرج هذا عن معروف الإسكافي، ذهبوا ليأخذوا منه أتاوة غضباً، على الرغم من أنه بريء ومظلوم: «وإذا بالرسل أتوا إليه وقالوا له: هات خدمتنا؟ فقال لهم: إنّ القاضي لم يأخذ مني شيئاً بل أعطاني ربع دينار. فقالوا: لا علاقة لنا بكون القاضي أعطاك أو أخذ منك، فإن لم تعطنا خدمتنا أخذناها قهراً عنك»[2].

ومن الملامح الاجتماعية في قاهرة ألف ليلة وليلة: ملمح المرأة الشريرة والمتعهّرة والشاذّة جنسياً، وربما يكون هذا الملمح أهم ملمح لنساء ألف ليلة وليلة بعامة، ولنساء القاهرة بخاصة، «وشيء طبيعي أن يكثر الشرّ الصادر عن المرأة في الليالي هذه الكثرة، وتعجّ به الصفحات فقد قامت هذه الحكايات على أساس من خيانة زوجة لزوجها، وتسببت في تعقيده وسفكه للدماء»[3]. وتمثّل فاطمة العرّة، في حكاية **«معروف الإسكافي»**، المرأة في أبشع صورها الشريرة والمحتالة. فقد كانت، كما يقول الرّاوي[4]: «فاجرة شرّانية قليلة الحياء كثيرة الفتن، وكانت حاكمة على زوجها، وفي كل يوم تسبّه وتلعنه ألف مرة».

ومن صور هذه المرأة الشريرة، شراهتها في طلب الطعام، وإصرارها على أن يجلب لها زوجها كنافة خاصة بعسل النحل، وعندما لم يجد في المدينة إلا كنافة

---

(١) م ن، ٤/ ٣٧٣.

(٢) م ن، ٤/ ٣٧٣.

(٣) حمّاد، د. هيام علي: المرأة في ألف ليلة وليلة، مكتبة نهضة الشرق/ جامعة القاهرة، القاهرة، طبعة سبتمبر ١٩٧٩م، ص٧٢.

(٤) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٣٧٠.

بعسل القصب اضطرّ أن يحضرها، وعند ذلك انفجرت زوجته شراً وسفهاً: «وغضبت عليه وضربته بها في وجهه وقالت له: قم يا مغفّل هات لي غيرها، ولكمته في صدغه، فخلعت سناً من أسنانه ونزل الدم على صدره (...) وقبضت على لحيته»[1]. ولم تكتف هذه المرأة بذلك بل حاكت له مكيدة كادت تودي به، لأنه لم يستطع أن يشبع رغباتها المسعورة في الحصول على الحلوى الفاخرة غالية الثمن، إذ إنها ربطت رباطاً على ذراعها ولوّثت ثيابها بالدم، وذهبت باكية إلى القاضي مدّعية أن زوجها معروف الإسكافي ضربها، وكسر ذراعها وقلع سنّها[2]. وعندما يصلحها القاضي تذهب إلى قاضٍ آخر وتشكو زوجها، مدّعية أنّه ضربها للمرّة الثانية[3]. فيصلحهما القاضي، وعندما يعجز الزوج عن شراء الحلوى تصمّم على الانتقام منه وإذلاله، فتذهب إلى الباب العالي لتشكو زوجها للمرة الثالثة[4]. فما كان من هذا الزوج المخذول إلاّ أن ترك القاهرة هارباً منها إلى مدينة أسطورية بعيدة اسمها «اختيان الختن»[5].

وتمعن بعض نساء القاهرة، في ألف ليلة وليلة، في التهتك والشذوذ الجنسيّ، الذي يصل إلى حدّ ممارسة الجنس مع الحيوانات، فها هي المرأة في حكاية **«وردان الجزّار»**- لا يذكر الراوي اسماً لها- تلوذ بجسد دبّ ضخم في دهليز بعيد عن القاهرة، وتشتري كل يوم خروفاً من وردان الجزّار، وتطعمه لهذا الدبّ. يصف الرّاوي حالتها مع هذا الدبّ: «فلما فرغت [من إطعامه] أكلت كفايتها، ووضعت الفاكهة والنقل وحطّت النبيذ وصارت تشرب بقدح وتسقي الدب بطاسة

(١) ألف ليلة وليلة. ٤ / ٣٧١.
(٢) م ن، ٤/ ٣٧٢.
(٣) م ن، ٤/ ٣٧٣.
(٤) م ن، ٤/ ٣٧٤.
(٥) م ن، ٤/ ٣٧٧.

من ذهب، حتى حصلت لها نشوة السكر، فنزعت لباسها ونامت، فقام الدبّ وواقعها وهي تعاطيه من أحسن ما يكون لبني آدم، حتى فرغ وجلس، ثم وثب إليها وواقعها. ولما فرغ جلس واستراح. ولم يزل كذلك حتى فعل فيها عشر مرات ثم وقع كل منهما مغشياً عليه، وصارا لا يتحركان»(١).

قد يبدو الفعل الجنسيّ هنا أسطورياً في عدد مرّاته، وفي الفضاء الواقع فيه (فضاء الدهليز)، لكنه ليس مستحيلاً، من حيث كونه تعبيراً عن إحدى حالات الشذوذ التي لم تسلم منها أية مدينة من المدن العربية الإسلاميّة، إذ شهدت العلاقات الجنسية انحرافاً، و «زحف الشذوذ الجنسيّ على المجتمعات العربية»(٢)، وعلى الرغم من محاربة الفقهاء والمتشدّدين، للشذوذ الجنسيّ في المدينة الإسلاميّة، إلا أنّه «استمر رغم كل المراقبة والتحذيرات»(٣).

ويبدو أنّ مدينة القاهرة في أزمنة الليالي كانت أكثر المدن فضاءً للحريّات والعلاقات الجنسيّة، ويبدو أنّ سلطاتها في تلك الأزمنة كانت غير صارمة في تطبيق الحدود على العلاقات الجنسيّة، أو هي غير قادرة على تطبيقها، نظراً للكمّ الكثير من الأجناس البشرية التي وفدت إلى القاهرة. (٤) وهنا تتشابه القاهرة مع بغداد إلى حدّ بعيد من حيث الجنسيّات المتعددة التي دخلتها عبر التاريخ.

---

(١) م ن، ٣/ ٨٣-٨٤.

(٢) بو حديبة، د. عبد الوهّاب: الإسلام والجنس، ترجمة هالة العوري، مكتبة مدبولي، القاهرة، طبعة ١٩٨٧م، ص ٢٧٢.

(٣) م ن، ص ٢٣٢.

(٤) تشير الدراسات التاريخية إلى أنّ القاهرة كانت غاصّة بالسكان من الجنسيّات المتهددة، فقد «طرق أبوابها الرقيق الأبيض من القوقاز، الذين صاروا فيما بعد حكّام البلاد تحت اسم المماليك، والرقيق الأسود من السودان (...) إلى جانب أولئك جميعاً تجار من جاوة والصين وعلماء وفقهاء من تونس ومراكش وأكثر من هؤلاء عدداً وتدفقاً حشود الفلاحين المصريين من الدلتا وجنبات الوادي، تجري في عروقهم آثار دماء فرعونية يضاف إليهم طوائف من أهل ليبيا والنوبة واليونان والصومال والحبشة».
- ينظر: ستيورات، ديزموند: القاهرة، ص ١٤١.

ويُلاحظ أن الشخوص إذا ما تعرّضت في بعض مدن ألف ليلة وليلة إلى الكبت والحرمان الجنسيّ، فإنها تهرب من مدنها إلى فضاء مصر لتحقيق لذّاتها الجنسيّة، كما في حكاية «**داء غلبة الشهوة عند النساء ودواؤها**»، إذ تَولّع إحدى الشابات الأميرات بنكاح قرد، وعندما يكتشف والدها السلطان أمرها، يقرّر أن يقتلها خوف الفضيحة، فتهرب مع قردها إلى فضاء مصر الآمن لتحقيق الفعل الجنسيّ الشاذ معه: «فتزيّت بزيّ المماليك وركبت فرساً وأخذت لها بغلاً حمّلته الذهب والمعادن والقماش ما لا يوصف، وحملت القرد معها وسارت حتى وصلت به مصر، فنزلت في بعض بيوت الصحراء»[1]. ولا يقصد الراوي بالصحراء تلك البعيدة عن مصر، بل يقصد الفضاء المحيط بمدينة القاهرة، والبعيد نسبياً عن الازدحام، لأنّ هذه الأميرة كانت تشتري كل يوم «لحماً من شاب جزّار»[2]. هذا إذا عرفنا أنّ المرافق التجاريّة في تلك الأيام لم تكن موجودة في الصحراء، باستثناء بعض الخانات التي شكّلت محطّات استراحة على الطرق الصحراوية، التي تربط بين المدن.

ونساء القاهرة متحررات وجريئات، إذ يخرجن إلى الأسواق ويلتقين بالرجال، ويبدو هذا طبيعياً في مدينة تغصّ أسواقها بالازدحام، ويلتقي فيها الرجال بالنساء، من دون كبير عناء، فـ«تزاحم البشر في القاهرة [عبر تاريخها الطويل] يجعل الفصل بين الجنسين مستحيلاً»[3]. ويبدو أنّ مظاهر الترف التي عرفتها بعض أسر القاهرة الأرستقراطية، دفعت هاته النسوة للتحرّر، والاحتكاك

---

(١) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٨٦.

(٢) م ن، ٣/ ٨٦.

(٣) ستيورات، ديزموند: القاهرة، ص ١٥١.

بالرجال، والخروج من فضاءات المنازل إلى فضاءات المتاجر والأسواق المزدحمة بالمارين من الجنسيّات المتعددة [1].

وتشير حكاية «**النصراني لملك الصين**» الداخلة ضمن حكاية «الأحدب وملك الصين» إلى أنّ إحدى نساء القاهرة الجميلات المتحرّرات التقت بتاجر بغدادي شاب في سوق قيصرية جرجس» بالقاهرة، وسرعان ما أعلنت له حبّها، وواعدته على اللقاء بمنزلها، المليء جمالاً وأبّهة، بحي الحبّانيّة. يصف الرواي لقاءهما بمنزل المرأة: «لم أشعر إلاّ و الصبية أقبلت وعليها تاج مكلّل بالدر والجوهر، فلما رأتني تبسّمت وحضنتني ووضعتني على صدرها، وجعلت فمها على فمي وجعلت تمصّ لساني وأنا كذلك (...) وتمكن حبّها عندي وهان عليّ جميع المال. ثم أخذنا نلعب ونتهارش مع العناق والتقبيل إلى أن أتى الليل..» [2].

ويسجّل التاريخ بعضاً من ملامح نساء مصر المتحرّرات واللواتي يخرجن إلى الأسواق بحرّية [3]، من دون أن يثير خروجهن حفيظة مجتمعهن وأزواجهن وآبائهن. وعلى ما يبدو كان هذا الخروج الحرّ مثيراً ومغرياً للطامعين والمغامرين بغزو البلدان واغتصابها، ودافعاً لغزو مصر، إضافة إلى ذلك حالة الترف والبطر التي عاشتها مصر، والتي كانت هي الأخرى مغرية للاندماج فيها، ولحصاد نعيمها. ويروي تقي الدين أحمد بن علي المقريزي [4] الخبر الآتي: «أرسل أحد

---

(١) يقول ابن خلدون عن القاهرة: «فانتقلت إلى القاهرة (...) فرأيت حضرة الدنيا. وبستان العالم. ومحشر الأمم (...) وكرسيّ الملك. تلوح القصور والأواوين في جوّه (...) ومرت في سكك المدينة تغصّ بزحام المارة. وأسواقها تزخر بالنعم».
- مقدمة ابن خلدون، ١/ ٨٥- ٨٦.

(٢) ألف ليلة وليلة، ١/ ٣٣- ١٣٤.

(٣) ومما يشير إليه خروج النسوة إلى الأسواق وحريّة حركتهنّ في المجتمعات الإسلاميّة- دون أن يثير حفيظة الرجال- أنّ هنالك خلفية اجتماعية ومعيشيّة منفتحة على الآخر بحسها المدنيّ، ومغموسة بالترف والبطر.

(٤) عن/ فولكف، أولج: القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، ص ٤٤- ٤٥.

المغاربة جارية إلى مصر لتباع بألف دينار. فأتت سيدة وساومت على شرائها بعد أن فحصتها ثم اشترتها بستمائة دينار. وكانت السيدة ابنة الأخشيد محمد بن طغج ملك مصر حينذاك. وعندما عاد التاجر إلى وطنه روى الحكاية للمعزّ». فما كان من المعزّ لدين الله الفاطمي، إلاّ أن أغرته هذه الحكاية، فاستدعى الشيوخ، وطلب من التاجر أن يحكي لهم الحكاية، وعندها قرّر أن يغزو مصر قائلاً: [1] «يا إخواننا انهضوا إلى مصر، فلن يحول بينكم وبينهم شيء فإن القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشتري جارية لتتمتع بها وما هذا إلا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم [2] فانهضوا لمسيرنا إليهم». فأجاب الشيوخ: «سمعاً وطاعة».

وإذا أخذنا بصحّة هذا الخبر، فإنّه يمكن اعتبار أنّ إيديولوجيا غزو مصر من قبل المعزّ لدين الله كانت تستتر خلف نوايا عدوانية مبيّتة، تطمح لتحقيق مكاسب خاصة، يحققها احتلال مصر، هذا البلد الذي يعني بالنسبة للمعزّ الرفاهية وملذّات العيش، وفضاء حراً تحقق النفس فيه ما تصبو إليه من ثراء وامتلاك وملذّات لا يستطيع فضاء القيروان أن يحققها للمعزّ وقادته وأركان دولته. وإذا كانت جيوش المعزّ لدين الله زحفت من القيروان إلى مصر واستطاعت أن تحتلها، فإنّ هذا الاحتلال لم يكن ناتجاً عن ضعف نفوس رجال مصر، ولم يكن ناتجاً عن الحريات الاجتماعيّة العامة التي أعطت المرأة نوعاً من الاستقلالية في تصرفاتها،

(١) م ن، ص ٤٥.

(٢) ولا يخفى على القارئ أنّ رأي المعزّ متشكّل من الموروث الرجولي المتسلّط، الذي يرى في خروج المرأة عيباً، وخوفاً للرؤية الجمعية المتشدّدة التي انتشرت في بعض المجتمعات الإسلامية المتزمّتة، وأنّ هذا الرأي فيه الكثير من الإجحاف بحقّ المرأة، وبحقّ الرجل الذي تعدّه هذه الرؤية ضعيف النفس، إن هو أعطى ابنته أو زوجته الحريّة، ووثق بها حين خروجها من منزلها. إضافة إلى احتمال أن يكون ما قد رُوي عن المعزّ مجرد افتراء، أو هو من جملة الأكاذيب التي حُشِرت داخل التاريخ العربي. منذ بدايات تشكلّه حتى زمننا الراهن.

بعيداً عن سلطة الرجال وجبروتهم، بل لأن سياسة الغزو كانت مهيّأة نفسياً لأن ترى في مصر فضاء جميلاً، تتحقّق فيه أحلام الغزاة الجامحة صوب الرفاهية وامتلاك الأموال والابتناء بالجواري، إضافة إلى ذلك الاستعدادات الحربية لجيش غازٍ ضخمٍ «بلغ تعداده مائة ألف مقاتل مجهّزين بخير عتاد وبصحبتهم ألف جمل وعدد لا يُحصى من الخيول التي حُمّلت بالفضّة والمؤن والذخائر»(١).

وإذا كانت مصر في بعض حكايات الليالي فضاء حراً تتحقق فيه حرية الفعل الجنسيّ، باعتباره فضاءً مفتوحاً على الموبقات والمعاصي- وهي في هذا تشبه بغداد إلى حد بعيد، بل هي تفوقها- فإنه من الطبيعي أن يكون من بين هذه المعاصي شرب الخمرة. ففي حكاية **«الملك الناصر وولاته الثلاثة»**(٢)، يعترف والي القاهرة للملك الناصر بأن رجلين من رجال سلطته القضائية كانا ولعين بالخمرة، وما استطاع أن يضبطهما متلبّسين بالجرم، عندها احتال عليهما، وعندما ضبطهما عفا عنهما مقابل تقديمهما له رشوة مالية(٣)، على أنّ والي القاهرة لم يكن معنياً في الحكاية بمنع الناس من شرب الخمرة(٤)، لأنه كان هناك دكاكين «للخمارين»(٥)،

---

(١) فولكف، أولج: القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، ص ٤٥.

(٢) الملك الناصر: (محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي، ٦٨٤- ٧٤١هـ/ ١٢٨٥- ١٣٤١م): هو أحد سلاطين المماليك، تولى عرش مصر ثلاث مرّات مختلفة ما بين عامي ١٢٩٣م و ١٣٤١م، وقد تطوّرت العمارة في عهده وازدهرت، وأشهر منجزاته القناة التي شقّها من الإسكندرية إلى النيل.
- عن/ لاندو، روم: الإسلام والعرب، ص١٠٠.

(٣) ألف ليلة وليلة، ٣/ ١١٥.

(٤) في مدينة القاهرة التي عاشت رفاهية وثراء واسعاً في عهد المماليك بسبب «نجاحهم في جذب تجارة شرق حوض البحر المتوسط إلى القاهرة التي صارت مركزاً للنقل التجاري»، [فولكف، أولج، م س، ص٩٦]، يبدو طبيعياً أن تنتشر الحوانيت التي تبيع الخمور، هذا إذا عرفنا ميل المماليك- تاريخياً- على اللذائذ، والإمعان في اللهو وطلب المتعة، فقد «كان المماليك والأمراء في مقدمة صفوف الشعب إقبالاً على الفنون والملاهي ومتع الحياة ولذّاتها».
- ينظر: البقيلي، محمد قنديل: الطرب في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سلسلة المكتبة الثقافية، العدد ٣٨٩، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، ص ٤٤.

(٥) ألف ليلة وليلة، ٣/ ١١٤.

كما تذكر الحكاية، بل كان همّه أن يضبط هذين الرجلين من رجال سلطته حتى ينتقم منهما[1]، من دون الآخرين، ويقدّمهما إلى القضاء.

وفي حكاية «النصراني لملك الصين» يرتحل بطل الحكاية، وهو شاب بغدادي، - لا يذكر الراوي اسماً لهذا الشاب- إلى القاهرة، وينزل في أحد الخانات بحي «بين القصرين»، ويبيع تجارته، ويمعن في ملذّات الطعام والشراب: «وأقمت أياماً كل يوم أفطر على قدح الشراب وأحْضِر اللحم الضاني والحلويات»[2]. وعندما يتعرّف إلى إحدى السيدات القاهريات الثريات، فإنها تدعوه إلى منزلها، وهناك يغيبان في حمّى الشراب والجنس كل ليلة: «فقدّمت لنا الجواري الطعام والمدام فإذا هي حضرة كاملة فشربنا إلى نصف الليل ثم اضطجعنا، ونمنا فنمت معها إلى الصباح، فما رأيت عمري مثل هذه الليلة»[3].

ونظراً لثراء القوم وبطرهم في القاهرة، وميلهم إلى اللذائذ والمتع، فإنّ حفلات شرابهم تكون عامرة بالطعام الفاخر. ويصف الرّاوي العشاء الذي أعدّه الشاب التاجر البغدادي، وأرسله إلى عشيقته القاهرية: «وجهّزت العشاء، فعملت جوزاً ولوزاً وتحتها أرز مفلفل، (...) وأخذت فاكهة ونقلاً ومشمشاً وأرسلتها»[4]. وإذا كانت عشيقة هذا الشاب (القاهرية) في إحدى صفاتها مخلّة بالعرف الاجتماعيّ باعتبارها هي الباحثة عن الرجال، الطالبة لهم، والفاعلة في علاقاتها الجنسيّة، لأنها هي التي تطلب من الشاب تحقيقها، وهي التي تبتزّه، لأنها تقبض منه بعد كل لقاء جسدي «خمسين ديناراً»[5]، فإنها، وعندما يفتقر هذا الشاب ويصرف كل أمواله عليها، تبدي نبلاً عميقاً وأخلاقاً كريمة، إذ تعيد له كل أمواله،

---

(١) م ن، ٣/ ١١٤.
(٢) م ن، ١/ ١٣١.
(٣) م ن، ١/ ١٣٤.
(٤) م ن، ١/ ١٣٤.
(٥) م ن، ١/ ١٣٤.

وتملّكه كل أموالها، وتتزوّجه حلالاً. يقول الشاب [1]: «وأرسلت إلى الشهود فحضروا فقالت لهم اكتبوا كتابي على هذا الشاب واشهدوا أن جميع مالي الذي في هذا الصندوق وجميع ما عندي من المماليك والجواري لهذا الشاب فشهدوا عليها، وقبلت أنا التمليك وانصروفوا بعدما أخذوا الأجرة، ثم أخذتني من يدي وأوقفتني على خزانة وفتحت صندوقاً كبيراً، وقالت لي انظر هذا الذي في الصندوق، فنظرت فإذا هو ملآن مناديل، فقالت هذا مالك الذي أخذته منك (...) فخذ مالك فقد ردّه الله عليك».

إنّ هذا الملمح النبيل لصورة الأنثى في الليالي لا يتكرّر كثيراً، لأنّ الغالبية العظمى من نساء الليالي محتالات وداعرات، ومبتزّات لأموال الرجال، وهذا ما تثبته البنية الفكرية والإيديولوجية لمجمل الرّواة الذين أضفوا على نساء الليالي مزيداً من الدونية والمكر والخداع ونقص العقل [2].

ومن وجوه القاهرة في ألف ليلة وليلة: وجه الاحتيال واللصوصية، وهو الوجه الأبرز لهذه المدينة، فهناك المرأة المحتالة، وهناك الرجل المحتال، سواء أكان لصاً أم فقيراً صعلوكاً، أم ملكاً كبيراً.

ومن لصوص القاهرة المحتالين، ما ذكره الراوي في حكاية **«الملك الناصر وولاته الثلاثة»**، فبينما كان والي بولاق يوماً من الأيام جالساً في داره مهموماً، من جرّاء دَين أصابه: «ثلاثمائة ألف دينار» [3]، وإذا بمجموعة من اللصوص يطرقون بابه، ويقولون له: [4] «إننا لصوص وغنمنا هذه الليلة غنيمة عظيمة وجعلناها برسمك لتستعين بها على هذه القضية التي أنت مهموم بسببها وتسدّ بها الدّين الذي

---

(١) م ن، ١/ ١٣٧.

(٢) لمزيد من الاطلاع على آراء هؤلاء الرّواة الإيديولوجية المعادية للمرأة، ينظر: ألف ليلة وليلة، ٢/ ٢٩٣، ٢٩٩. و: ٣/ ١٧١.

(٣) م ن، ٣/ ١١٦.

(٤) م ن، ٣/ ١١٦.

عليك». فـمـا كـان من الوالي إلاّ أنّ قـدّر الموقف الذي عـدّه كـريماً من هؤلاء اللصـوص، وأعطاهم المئة ألف دينار، التي كان قد ادّخرها لرد دينه، كما يذكر الراوي [١]، معتبراً أنّ هذا المبلغ جزء من ثمن هذه الغنيمة التي ظنّ أنها كافية لردّ كل ديونه، إلا أنّ اللصوص لم يكونوا أصحاب مروءة، فهم مجرّد لصوص محترفين [٢]، ومحتالين مهرة، وتنطلي الحيلة على والي بولاق، ويفاجئنا راوي الحكاية بمكوّنات هذه الغنيمة، على لسان الوالي نفسه: «فلما أصبح الصباح رأيت ما في الصندوق نحاساً مطلياً بالذّهب والقصدير يساوي كله خمسمائة درهم. فعظم عليّ ذلك وضاعت الدنانير التي كانت معي، وازددت غماً على غمّي» [٣].

ويبقى سرد الراوي لهذه الحكاية ليس بريئاً، و«ليست هناك حكايات بريئة» [٤] في ألف ليلة وليلة، فهذا الراوي يُدين بشكل غير مباشر سلوك والي بولاق المتعاطف مع الظَلَمة في مدينته من جهة، تشير من جهة أخرى إلى الجهل الذي تغرق فيه السلطة، فبدلاً من أن يقبض الوالي على هؤلاء اللصوص، ويردّ ما سرقوه إلى أصحابه، ويكشف ما في الصندوق قبل ذهابهم، فإنه يعطيهم مائة الألف دينار، ويتركهم يمضون «تحت الليل إلى حال سبيلهم، ولم يعلم بهم أحد» [٥].

---

(١) م ن، ٣/١١٦.

(٢) وعبر تاريخها الطويل عانت القاهرة من اللصوص الكثر الذين انتشروا في أزقتها ومقابرها، ونظراً لكثرة اللصوص في القاهرة المملوكيّة، والذين شكّلوا خطراً على الحوانيت التجاريّة، وبخاصة في الليل، فقد انتشر في القاهرة «حراس موكّلون بحراسة الحوانيت يقومون بأعمال الدورية».

- ينظر: فرلكف، أولج: القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، ص ١٠٣.

(٣) ألف ليلة وليلة، ٣/١١٦.

(٤) هذا هو جزء من عنوان كتاب:

Miquel, André: Sept contes des mille et une nuits, ou il n'ya pas de conte inncocent, paris, Editions Sindbad, 1981.

(٥) ألف ليلة وليلة، ٣/١١٦.

وقد كان فقراء القاهرة في الليالي قادرين أيضاً، على حبك الحيلة في أعلى تقنياتها. فها هو معروف الإسكافي، بعد أن يهرب من القاهرة ويلجأ إلى «اختيان الختن»، يمارس الاحتيال ويدّعي أنه تاجر ثري كبير، وأنّ حملته التجاريّة الكبيرة ستصل بعد أيام إلى المدينة، ويصدّقه الناس، ويقرضونه «ستين ألف دينار» (١)، ويوهم الناس بأنّ أمواله الكثيرة جداً القادمة مع الحملة قادرة على تبديد فقر المدينة، فيقوم بتوزيع المبلغ الذي اقترضه على فقراء المدينة (٢)، ومن ثم لتكون هذه الحيلة طريقاً إلى كسب ودّ الملك، فما كان من الملك إلا أن قربّه، ورغب في تزويجه ابنته الجميلة (٣). ووفق النسق السحري الذي يحكم بنية السرد والفضاءات المكانية، التي يرتحل إليها السرد، يضفي الراوي على سلوك معروف الإسكافي هالة من الثراء الأسطوري، فيبدأ بتشكيل حالات من التخيّل الكاذبة، تقوم بدورها في حبك حيلة جديدة على الملك وابنته، إذ يدّعي أنه سيقدّم لابنة الملك مهراً يليق بمكانتها السياسيّة والاجتماعيّة. يقول معروف الإسكافي (٤): «لابدّ أن أدفع صداقها خمسة آلاف كيس، وأحتاج إلى ألف كيس أفرّقها على الفقراء والمساكين ليلة الدخلة، وألف كيس أعطيها للذين يمشون في الزّفة، وألف كيس أعمل بها الأطعمة للعساكر وغيرهم؟ وأحتاج إلى مائة جوهرة أعطيها للملكة صبيحة العرس، ومائة جوهرة أفرّقها على الجواري والخدم، فأعطي كل واحدة جوهرة تعظيماً لمقام العروسة؟ وأحتاج إلى أن أكسو ألف عريان من الفقراء».

---

(١) م ن، ٤/ ٣٨١.

(٢) م ن، ٤/ ٣٨٢.

(٣) م ن، ٤/ ٣٨٣.

(٤) م ن، ٤/ ٣٨٥.

وهكذا وردت إشارات الاستفهام في النص، فآثرت أن أتركها كما هي.

إنّ هذا التخيّل السحريّ الخارق، الذي يحلم به رجل إسكافي فقير، هو بنية تتكرر في غير حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، فعندما يجد هذا الفقير أنّ الواقع الذي يعايشه لا يحقق ما يصبو إليه، فإنه يتحايل على من حوله، ويضفي على حيلته تخيّلات لا تتحقّق إلا بالمصادفات الغرائبية السحرية الموجودة في ألف ليلة وليلة، فـ «في النصوص العجائبية- وألف ليلة وليلة من أهمها- يروي المؤلف أحداثاً غير قابلة للوقوع في الحياة» (١). وطالما أنّ الراوي الشعبي يعايش واقعاً أسود، ويتموضع في طبقة دونية مهمّشة منه، فإنه شكّل بطلاً شعبياً كمعروف الإسكافي، جعله يتجاوز هذه الطبقة الدونية وفق عمليات التخيّل، وصولاً إلى الطبقة العليا، والزواج بإحدى نسائها، وحمّل هذا البطل أحلامه الملغاة وأوهامه التي يستحيل أن تتحقق في واقعه الأسود، ففي الأدب الشعبي «سبق لأقدم الشعوب بحقّ أن حقّقت رغباتها في حكاياتها، وهي تلك الرغبات التي لم تظفر بتحقيقها قطّ في الحياة» (٢).

ويبقى فضاء مصر من أهم الفضاءات المكانية التي يعتمد فيها الناس، من خلال علاقاتهم الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، على الحيلة لتحقيق مآربهم. وعلى الرغم من أنّ بغداد كانت حقلاً خصباً للشطّار والمحتالين، إلاّ أن القاهرة فاقتها في خبرات الاحتيال في بعض الأحيان، فها هو علي المصري ابن التاجر حسن الجوهري يأتي إلى القاهرة، وعندما يصل إلى مدينة بغداد يحتال على بوّاب مدينتها وعلى سكانها مدّعياً أنه تاجر كبير، ويوهمهم أنّ حملته التجاريّة الكبيرة

---

(١) تودروف، تزفيتان: مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصديق بوعلام، مراجعة د. محمد برّادة، دار شرقيات، القاهرة، الطبعة العربية الأولى، ١٩٩٤م، ص٤٩.

(٢) ديرلاين، فردريش فون: الحكاية الخرافيّة، ترجمة د. نبيلة ابراهيم، مراجعة د. عزّالدين اسماعيل، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، نيسان/ أبريل ١٩٧٣، ص ١٣١.

ستصل إلى بغداد بعد أيام قليلة [1]، وها هو علي الزيبق المصري يبزّ كل محتالي بغداد، ويتفوّق على حيلهم بحيل أشدّ ذكاء ومهارة منها [2].

لقد كان «القصاصون العرب [في ألف ليلة وليلة] مدينين للمصريين بأعمال اللصوص الماكرة وبالحيل» [3]. وقد ظهرت معظم أشكال المكر والاحتيال في كل مدن ألف ليلة وليلة - العربية وغير العربية- وبخاصة في مدينتي القاهرة وبغداد. ولم تقتصر الحيلة على مذهب دون آخر، فهي عند المسلمين والمسيحيين واليهود والمجوس، وهم مواطنو مدن ألف ليلة وليلة. وقد تورّط فيها أهم ملوك مصر في الليالي، وهو الملك الناصر (أشهر سلاطين المماليك)، إذ احتال هذا الملك على وزيره، أبي عامر بن مروان، لكي يأخذ منه غلاماً جميلاً من غلمان النصارى كان قد أُهدي إليه، وبعد أن يأخذه حيلة، يشي أعداء أبي عامر عند الملك الناصر بأن «عنده من الغلام بقية حرارة وأنه لا يزال يلهج بذكره حين تحركه الشمول فيقرع السنّ على إهداء الغلام» [4]. وعندما سمع الملك الناصر هذه الوشاية قرر أن ينتقم من وزيره أبي عامر، بعد أن يحتال عليه ليكشف مدى إخلاصه وولاته له، بكتابة رسالة مزوّرة عن لسان الغلام، يطلب فيها من مولاه الوزير أن يتحايل في استدعائه من عند الملك، لأنه لا يطيق الصبر على مفارقته، وأنّه غير راغب بالبقاء في دار الناصر، لكن الوزير وبفطنته السياسيّة اكتشف أنّ هذه الرسالة ما هي إلا مكيدة من

(١) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٢١٣- ٢١٤.

(٢) وقد احتال هذا الرجل على طبّاخ دليلة المحتالة- وهي أشهر امرأة محتالة، هي وابنتها زينب النصّابة في جميع حكايات ألف ليلة وليلة- وعلى عبيدها وكلابها، وذلك بأن سقى الطباخ خمراً، ثم وضع في الطعام الذي ستأكل منه العبيد والكلاب، ودليلة وابنتها زينب، حتى يتمكّن من سرقة جميع الثياب التي سرقتها دليلة من متاجر بغداد.

- لمزيد من الاطلاع ينظر: ألف ليلة وليلة، ٤/ ١٥٢، ١٥٤.

(٣) دير لاين، فردريش فون: الحكاية الخرافية، ص ٢١٧.

(٤) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٤٤٦.

الملك لاكتشاف مدى إخلاصه، فأخذ رسالة الغلام، وكتب على ظهرها هذه الأبيات: (١)

أمن بعد أحكام التجارب ينبغي ... لذي الحزم أن يسعى إلى غابة الأسد

ولا أنا ممن يغلب الحبّ عقله ... ولا جاهل ما يدّعيه أولو الحسد

فإن كنت روحي قد وهبتك طائعاً ... وكيف ترد الروح إن فارقت جسدي

ويتابع الراوي قائلاً: (٢) «فلما وقف الناصر على الجواب تعجّب من فطنته ولم يعد إلى استماع واشٍ فيه بعد ذلك».

وقد كان ملوك مدن الليالي، سواء أكانت عربيّة أم أجنبيّة، يستشيرون ويقرّبون أصحاب الحيل الأذكياء، وعندما يجدون أنفسهم عاجزين عن حلّ مشكلة مهيّنة، فقد كانوا يأخذون بآرائهم، وبخاصة آراء العجائز الماكرات اللواتي يفقن رجال زمانهنّ مكراً ودهاءً وخبرةً معرفيّة. فعلى سبيل المثال نجد أنّ الملك أفريدون ملك القسطنطينية، عندما تهزمه الجيوش الإسلاميّة- جيوش الملك شركان حاكم دمشق، وأخيه ضوء المكان حاكم بغداد- يلجأ إلى العجوز شواهي ذات الدواهي (أم حليفه الملك حردوب)، لكي تخطط له كيف يحارب ويحتال على الجيوش الإسلاميّة، (٣) أي أنّ أصحاب الحيل والمكر والمكيدة- في الليالي- لم يكونوا يحتالون من أجل كسب العيش أو إشباع شهواتهم الجنسيّة، أو من أجل الحصول على منصب يقرّبهم من السلطان فحسب، بل كانت لديهم معارفهم في خطط الحروب العسكرية، وكانت لهم نظرتهم الثاقبة، لما يجري في مدنهم، وعلاقاتها الطبقيّة والاقتصادية والاجتماعية والسياسيّة، وقد تعلّموا الحيلة وأتقنوها وتفننوا في حبكها.

---

(١) م ن، ٤/ ٤٤٦.

(٢) م ن، ٤ / ٤٤٦.

(٣) ألف ليلة وليلة، ١/ ٣٥٧.

إنّ القاهرة التي تبدو واقعية في الليالي تمتزج بكثير من اللوحات السحريّة، والتخيّليّة (١)، التي أضفاها الرواة عليها، وهذه حال معظم مدن الليالي. فالمدينة الواقعية لا تتشكل من فضاءاتها وعاداتها وملامحها التاريخية الواقعية فحسب، بل توغل بعيداً في السحر والخرافة إذا ما رأى الرّواة أنّ ثمّة ضرورة لهذا السحر، لأنّ الحدث الواقعي لا ينمو مكتفياً بذاته في مدن الليالي، بل يحتاج إلى حوافز سحريّة لاستكمال بنائه.

ويحفل الفضاء السحريّ للقاهرة، في حكايات الليالي، بالجان وبأولاد ملوك الجان. ومن ملامح العوالم التخيّليّة والسحريّة تحتفي بالجان واالعفاريت ما يسجّله الراوي في حكاية «**معروف الإسكافي مع زوجته فاطمة العرّة**»، فعندما يهرب معروف من شرّ زوجته وظلمها يجلس باكياً عند إحدى الدور الخربة المهجورة بحي العادلية، وإذا بحائط الدار ينشقّ، ويبرز منه مارد «طويل القامة رؤيته تقشعر منها الأبدان» (٢)، ويطلب منه أن يخبره بقصته حتى يساعده، وعندما يعرف قصّته مع زوجته يقول له (٣): «أتريد أن أوصلك إلى بلاد لا تعرف لك زوجتك فيها طريقاً؟ قال له: نعم. قال: اركب فوق ظهري. فركب وحمله وطار به بعد العشاء إلى طلوع الفجر، وأنزله على رأس جبل عالٍ». ولأنّ معروفاً الإسكافي يعيش في فضاء شعبي مصري يؤمن بالسحر والقدرات الخارقة للجان والعفاريت، فإنّ الرّاوي- في ما بعد- يقدّم له كل الحوافز (الموتيفات) السحريّة التي

---

(١) وتذكر المصادر التاريخية أنّ القادمين إلى القاهرة كانوا يشاهدونها مقارنة بمدنهم، وكأنها منسوجة من عوالم خيالية، بل هي تصل في غرابة حياتها إلى حد يفوق التخيل، ويُروى عن الفقيه الكاتب أبي القاسم البَرْجي قاضي العسكر بفاس، أنه قال عن القاهرة: «إنّ الذي يتخيّله الإنسان فإنّما يراه دون الصورة التي تخيّلها لاتساع الخيال عن كل محسوس، إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتخيّل فيها.»

- عن/ ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون. ١/ ٨٦.

(٢) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٣٧٤.

(٣) م ن، ٤/ ٣٧٤.

تجعله غنياً في مدينة «اختيان الختن» الأسطورية، ثم ملكاً عليها، إذ يقدّم له كنزاً أسطورياً في طريق رجوعه من «اختيان الختن»، بعد أن هبطت عليه المواجع والأحزان. ويذكر الراوي أنه بينما كان عائداً شاهد رجلاً مسكيناً يحرث أرضه في إحدى القرى الصغيرة، فعرض عليه أن يساعده في الحراثة، ومن خلال حراثته وجد كنزاً كبيراً غاصاً بالأموال والجواهر الثمينة (١).

إن الراوي الشعبي، وهو يقدّم هذا الكنز الكبير لبطله معروف الإسكافي، لن يعرّضه لهجمات اللصوص وقطّاع الطرق، وهو في طريق عودته إلى «اختيان الختن»، بل سيقدّم له - حتى تصل الحكاية إلى ذروتها- حرّاساً لهذا الكنز، ولأنّ حراس هذا الكنز الكبير قد يعجزون عن الدفاع عنه، فيما إذا كانوا بشراً عاديين، فإنه وفقاً للنسق السحريّ الغرائبي، سيقدّم له خاتماً سحرياً يخدمه مارد من الجان(٢)، وستسهم هذه الأداة السحريّة في نمو الحكاية، لأنّها ستعيد معروفاً الإسكافي إلى مدينة «اختيان الختن» مكللاً بالمال والمنعة، ومن شأن هذه الأداة السحريّة أنّها تساعد البطل «في النهاية [على] التخلص من سوء الطالع، ولكن قبل استلام الأداة السحريّة يصبح البطل عرضة لعدد مختلف من الأحداث التي تؤدي كلها، على أية حال، إلى نتيجة حصوله على تلك الأداة» (٣). ولم تسهم هذه الأداة

---

(١) لمزيد من الاطّلاع على محتويات هذا الكنز الأسطوري ينظر: ألف ليلة وليلة، ٤/ ٣٩٥.

(٢) يقول، الراوي: «ثم إنه فتحها [العلبة الذهبية] فرأى فيها خاتماً من الذهب مكتوباً عليه أسماء وطلاسم مثلاً دبيب النمل فدعك الخاتم وإذا بقائل يقول لبيك يا سيدي فاطلب تعط؟ هل تريد أن تعمّر بلداً أو تخرّب مدينة، أو تقتل ملكاً أو تحفر نهراً أو نحو ذلك؟ فمهما طلبته فإنّه قد صار بإذن الملك الجبّار خالق الليل والنهار.».

- م ن، ٤/ ٣٩٥.

(٣) بروب، فلاديمير: مورفولوجيا الحكاية الخرافيّة، ترجمة وتقديم أبو بكر أحمد باقادر وأحمد عبد الرحيم نصر، منشورات النادي الأدبي الثاني جدّة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ١٠٠.

- وهذه الأحداث التي أشار إليها فلاديمير بروب تتشكّل أيضاً في حكاية معروف الإسكافي، ولعلّ أهمها: ادعاء معروف الإسكافي بأنه تاجر ثريّ، وأنّ حملته التجارية لم تصل بعد إلى المدينة [٤/ ٣٨٨]، ثمّ=

السحريّة في تخليص معروف الإسكافي من سوء طالعه فحسب، بل قذفت به إلى أعلى المراتب الاجتماعية والسياسيّة وتوّجته ملكاً على «اختيان الختن»، بعد أن أثبت للناس جميعاً أنّه صادق في ثرائه، وأثبت لوالد زوجته الملك أنه كفؤٌ لابنته الجميلة.

ويتكرر إسعاف البطل في حكايات ألف ليلة وليلة المصرية بالأداة السحريّة التي تنقله من وضع طبقيّ دوني إلى وضع آخر متميّز، سلطوي وثري، أو تزيل عنه همّاً أو ظلماً حلّ به، وبخاصة إذا كان هذا البطل من أفراد الطبقة الشعبيّة، فالراوي في حكاية «جودر وأخويه»، يجعل التاجر المغربي يقدّم لجودر- عندما لقيه في الحجّ- خاتماً سحرياً، وذلك بعد أن كان أخواه سالم وسليم قد تآمرا عليه وباعاه إلى رئيس بحر السويس، ولهذا الخاتم خادم من الجان اسمه الرعد القاصف، يقوم بمساندة البطل، ويتكفّل بنقله إلى مصر [1]، وهنا يمكن القول: إنّه لا غرابة- وفق المنطق السحريّ العجائبي الذي يتحكم في علاقات الأبطال وارتحالاتهم- في أن ينقل العفريت- خادم الخاتم السحريّ- جودر بن عمر من مكّة إلى مصر، لأنّ المعتقد الشعبي «يجعل للجان من القوى والسمات الفائقة ما يقدّمهم على الإنسان ذاته، فلا يعود الإنسان مركز المخلوقات، ولا هو الذي أمر الله الملائكة أن يسجدوا له ففعلوا إلا إبليس فقد أبى واستكبر، وإنّما هو أدنى قوة وأقلّ سلطاناً من الجان..» [2]. وستسهم هذه الأداة السحريّة (الخاتم) في ما بعد [3]، في أن تقدّم

= زواجه بابنة ملك اختيان الختن [٤/ ٣٨٨]، ثمّ شكّ وزير الملك بمعروف، ومحاولة التآمر عليه عند الملك [٤/ ٣٨٩]، ثمّ اعترافه أخيراً أمام زوجته (ابنة الملك) بأنه رجل إسكافي وهارب من زوجته الشريرة بمصر [٤/ ٣٩١]، ثم خروجه من المدينة حزيناً باكياً على فراق زوجته بنت الملك [٤/ ٣٩٣].

(١) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٨٠.

(٢) صالح، أحمد رشدي: الأدب الشعبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالة ١٩٧١م، ص١٥٣- ١٥٤.

(٣) وقبل أن يُقتَل جودر بفعل السمّ الذي دسّه له سالم وسليم، في مأدبة الطعام التي أقاماها له.
- ألف ليلة وليلة، ٤/ ٩١.

لجودر أجمل امرأة في المدينة، وهي الأميرة آسية بنت الملك شمس الدولة (١)، وفي تتويجه ملكاً على مصر، بعد أن يموت ملكها شمس الدولة (٢).

إذا كان الراوي في بعض الحكايات المصرية لا يقدّم لأبطاله الفقراء الأداة السحريّة التي ستجعلهم يتجاوزون مدنهم ومواطنيهم مالاً وسلطة، فإنه لا يحرمهم من الكنوز الأسطورية (٣) التي تجعلهم في مصافّ الملوك ثراءً. ويبقى تقديم هذه الكنوز لهؤلاء الأبطال المهانين اقتصادياً، نوعاً من التعويض والسمّو على الواقع الرثّ وتجاوزه بالاتكاء على الحلميّ والتخيّليّ الذي يحقّق الإنسان فيه كل ما يصبو إليه، «ففي المجتمع الذي لا تتاح فيه الحياة المنطلقة يهرب العامّة من مواجهة مشاكلهم ومنها مسألة الحصول على الثروة- إلى تخيّلات وأوهام، فما أيسر أن يعيش الوهم باستطاعة الحصول على كنز متى ألقيت التعزيمة المناسبة» (٤). إلا أنّ الرّاوي، في موضع آخر، قدّم الأداة السحريّة (خاتم شبيك لبيك) إلى البطل

(١) م ن، ٤/ ٨٩.

(٢) م ن، ٤/ ٩٠.

(٣) في حكاية «وردان الجزّار» يكتفي الراوي بتقديم الكنز إلى وردان دون الأداة السحريّة، يقول وردان: «وبعد ذلك نظرت في المحل [دهليز تحت الأرض] فوجدت فيه من الذهب والفصوص واللؤلؤ مالا يقدر على جمعه أحد من الملوك». [٣/ ٨٤]. ولماذا لم يقدّم الراوي الأداة السحريّة لوردان الجزّار؟ لأن الحكاية وقعت في زمن الحاكم بأمر الله (*)، وهو شخصية تاريخية حقيقيّة حكمت مصر، ولو أنه قدّم هذه الأداة لجعل وردان الجزّار حاكماً على مصر بدلاً من الحاكم بأمر الله، وهذا سيجعل الحكاية تفتقد إلى مصداقيتها التاريخيّة، وبخاصة إذا عرفنا أنّ هذا الرّاوي يحاول أن يوهم قارئه بواقعية حكايته، وصحّة تاريخها، حين يقول: «وهذا السوق موجود إلى الآن ويُعرف بسوق وردان». [٣/ ٨٥].

(٤) صالح، أحمد رشدي: الأدب الشعبي، ص ١٣٩.

(*) - الحاكم بأمر الله: (منصور بن العزيز، ٣٧٥- ٤١١هـ/ ٩٨٥- ١٠٢١م): هو الخليفة الفاطميّ الذي حكم مصر من سنة ٩٩٦م إلى سنة ١٠٢١م. تردّت الدولة في عهده. وقد أمر بتدمير كنيسة القيامة في بيت المقدس عام ١٠٠٩م، وقتل بعض وزرائه بدون سبب، وزعم أنّ الله تجسّد فيه. كان متطرفاً في التعصب وعدم السماح مع غير المسلمين.

- عن/ روم، لاندو: الإسلام والعرب، ص ٩٥، ١١١.

الشعبي جودر ابن التاجر عمر، لأنّ زمان الحكاية أسطوري تخيّليّ، وملك مصر في هذا الزمان هو ملك أسطوريّ، واسمه «شمس الدولة»، وهو غير معروف تاريخياً من بين الملوك الذي حكموا مصر في الدولة الإسلاميّة.

ويُلاحظ أنّ الكنوز في الحكايات المصرية مرصودة بأسماء أبطال مصريين محددين [1]، ولا يمكن أن تفتح أبوابها إلا لهؤلاء الأبطال، وها هو الحاكم بأمر الله يقول [2] لوردان الجزّار: «إنّ هذا الكنز لا يقدر لأحد أن يفتحه غيرك، فإنه مرصود باسمك وصنعتك (...) وهو عندي مؤرّخ وكنت أنتظر وقوعه حتى وقع».

إنّ فضاءات مصر في حكاية «جودر ابن التاجر عمر» هي فضاءات سحريّة يسكنها ملوك الجان، ففي بركة «قارون» [3] يسكن الجان أولاد الملك الأحمر الذين أتوا من فاس [4]. وهذه البركة مرصودة أيضاً باسم الصياد «جودر»، إذ إنّ ملوك الجان الذين يعيشون على هيئة أسماك في هذه البركة لا يُنتصر عليهم إلا بشخص جودر ابن التاجر عمر باعتباره التعويذة القادرة على فكّ سحرهم، كما يؤكد الساحر الكهين الأبطن للمغربي عبد الصمد: «فرأيت أن هذا الكنز لا يُفْتَح إلا على

(١) ولا يرصد الرّواة الكنوز المصرية للأبطال المصريين فحسب، بل يرصدون كنوزاً أخرى بأسماء هؤلاء الأبطال، كما في حكاية «جودر ابن التاجر عمر»، إذ نجد أنّ كنز الكهين «الشمردل» في مدينة فاس المغربية مرصود باسم «جودر»، مما جعل التاجر المغربي يأتي مصر ليطلب من جودر أن يفتحه له [٤/ ٦٣]، وكذلك نجد أنّ الكنز البعيد في القرية الأسطورية التي يصل إليها معروف الإسكاف- لا يحدّد الراوي اسماً لها- هو مرصود باسم معروف الإسكافي الهارب من فقره وزوجته في مصر. [٤/ ٣٩٦].

(٢) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٨٥.

(٣) قارون: وزير فِرعون الذي رفض أن يؤمن بما جاء به موسى عليه السلام، وقد طغى وتجبّر بسبب ثروته الهائلة التي كان يزعم أنه حصل عليها بسبب علمه وبراعته في الكيمياء. وقد خسف الله به وبداره الأرض. ويرتبط قارون ببحيرة في مصر باسم بِركة قارون في الفيّوم. ويقول المقريزي في كتاب «الخُطط» إنّ كافوراً شيَّد داراً بجانبها فطرده منها الجن.

- يونس، د. عبد الحميد: معجم الفولكلور، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٣م، ص ١٧٥.

(٤) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٦٢.

وجه غلام من أبناء مصر اسمه جودر بن عمر، فإنه سيكون سبباً في قبض أولاد الملك الأحمر وذلك الغلام يكون صياداً، والاجتماع به يكون على بركة قارون ولا ينفعك هذا الرصد إلا إذا كان جودر»[1].

هذه هي بعض ملامح مصر والقاهرة في ألف ليلة وليلة، وإن غابت القاهرة في معظم الأحيان تسميةً في الليالي واستُبدلت بمصر، فإنها هي المعنيّة في أغلب الحكايات، لأنّ الرّواة يذكرون أحياء حقيقة عرفتها القاهرة قديماً، ولا تزال هذه الأحياء تحتفظ بأسمائها حتى وقتنا الراهن. كما أُشير إلى ذلك سابقاً.

إنّ القاهرة مدينة السحر، وهي تحتلّ في الأدب الشعبي مكانة مهمّة ومتميّزة، وهي «البلاد المليئة بالعجائب فحكاياتها الخرافية التي وصلت إلينا قد دُوِّنت في (...) أسلوب فني، وهي إلى ذلك تُعدّ ينبوعاً للتراث الشعبي والعقائد القديمة البالغة في القدم. وما يزال بعض هذه الحكايات يعيش في الحكايات الشعبية لدى كثير من الشعوب»[2]. ولا تزال فضاءات القاهرة الشعبية هي الفضاءات العربية الأولى- إذا ما استثنينا فضاءات مدن المغرب التي تضاهيها- المغلّفة بنكهة السحر والأساطير والحيل والتمائم والحُجُب، والأولياء الصالحين، والحشيش والجوزة (النارجيلة)، والمقاهي التي لا تزال تحتفظ بطعم حكايات ألف ليلة وليلة، والنساء اللواتي يقرأن الكفّ ويفتحن المندل، ويغامرن في شعاب الحياة كما الرجال، بل ربما أكثر. ويبدو أنّ هذه المدينة الثّرية البطرة، التي تعاقبت عليها حضارات ومدنيّات وأمم كثيرة، كان لها حظّ وافر من الموسيقى والخمور والجواري والملاهي والنساء. والاحتفالات بأعياد الفرح، وإقامة طقوس لهوها الخاصة[3]، والمعارف والعلوم والطب والسحر وفنون الاحتيال.

---

(١) م ن، ٤/ ٦٢.

(٢) دير لاين، فردريش فون: الحكاية الخرافية، ص ١٧٨.

(٣) لمزيد من الإطلاع ينظر: صالح، أحمد رشدي: الأدب الشعبي من ص ١٢٨ إلى ص ١٣١.

وكما كانت حكايات مدينة القاهرة وغيرها من مدن ألف ليلة وليلة محكومة بثنائية الواقعيّ والتخيليّ، فإنّ حكايات القاهرة المعاصرة هي الأخرى لا تزال موشومة بكثير من الواقعية السحريّة والتخيّل الغرائبي [(١)].

وأحب أن أشير في نهاية هذا العنوان إلى أن القرآن الكريم لم يذكر أي بلد عربي باسمه في كل آياته سوى مكة ومصر[(٢)].

وإذا كانت مصر في الأدبيات الكلاسيكية وكتب الرحالة مثالاً للرخاء، الرفاهية، والدولة العامرة بالحياة، والرافلة بالترف، كما يذكر ابن خلدون[(٣)] نقلاً عمن تحدّث عنها: «ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى

---

(١) يزعم ديزموند ستيورات العاشق للقاهرة الجميلة أنّه لا تزال بعض النساء الأجنبيات اللواتي عشقن الطبّ الفرعوني، تمارس بعض فنون السحر في قصور القاهرة الفارهة، حتى وقت متأخر، ويروي القصة الآتية: «في أحد القصور المطلّة على النهر [نهر النيل] كان يقيم باشا مصري متزوّج من سيّدة يونانية، ويبلغ من غرامها بالطب الفرعوني القديم أن خصصّت له ثلاثة معامل. وفي إحدى المناسبات عارضها صديق ثري قتله السأم يريد أن يملأ فراغه بشيء ما ولو كان شراً فتحدّاها أن تُظهر قدراتها، فحبست عنكبوتاً سامّاً في آنية زجاجية (برطمان) مع تمثال من الطين على هيئة هذا المستهزئ الساخر وأودعته بعضاً من شعره وأظافره. ولم يحدث شيء، ثمّ اضطرت الساحرة إلى السفر إلى سويسرا لبعض الأمور العاجلة، وبينما هي هناك وصلتها برقية تفيد أن صديقها هذا في المستشفى على وشك الموت- فيما يبدو- بالسرطان فاتصلت من زيوريخ بالتلفون لتقوم بعملية إنقاذ، وأمرت خدمها بأن يفتحوا المعمل، فوجدوا أن العنكبوت الذي على وشك الموت جوعاً داخل البرطمان قد فرض طريقاً عميقاً داخل التمثال، ربما سعياً وراء قطع الأظافر، فأمرت الساحرة خدّامها النوبيين بأن يغسلوا التمثال في ماء النيل تحت ضوء القمر (وكان القمر لحسن الحظ مكتملاً) فما إن تمت العملية حتى شفي صديقها الضحية في الحال.».

- القاهرة، ص ١٦١- ١٦٢.

(٢) والآيات الكريمة التي تشير إلى مصر هي: آية٦١ سورة البقرة، اية ٨٧ سورة يونس، آية ٩٩ سورة يوسف، آية ٥١ سورة الزخرف.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ٢/ ٨٧٣- ٨٧٤.

في عوائدهم ما يقضي منه العجب، حتى إن كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى النُقْلَة إلى مصر لذلك، لما يبلغهم من أن شأن الرَّفْه بمصر أعظم من غيرها.»، فإنها لم تسلم من هجاء بعض الشعراء، الذين رأوها داراً للفسق والبغاء. يقول أحد الشعراء فيها(٤):

مصر دار الفاسقينا	تستفزّ السامعينا
فإذا شاهدتَ شاهد	تَ جنوناً ومجونا
وشيوخاً ونساء	قد جعلنَ الفسق دينا
فهي موت الناسكينا	وحياة النائكينا

(٤) عن / الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ٥/ ١٤١. ولمزيد من الاطلاع على ما قيل في هجاء مصر يُنظر هذا المصدر ٥/ ١٤١- ١٤٢.

٢- دمشق -

أ- لمحة تاريخية عن دمشق

لا تتّفق معظم الدّراسات التي أرّخت لدمشق على تاريخ محدّد لبنائها وظهورها، بل نجد تبايناً واضحاً في معظم الدّراسات التي حاولت أن تحدّد مسيرتها عبر تاريخها الطويل. إلاّ أن معظم هذه الدّراسات تتّفق على أن المدينة قديمة جداً.

ويرى الباحث في علم الآثار عفيف البهنسي[١]، أنّه في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد ابتدأ اسم دمشق بالظهور، ولكنّ هذا لا يعني أنّ دمشق ابتدأت منذ ذلك التاريخ، بل ورد اسمها (دامسكي) في وثائق ايبلا التي تعود إلى عام ١٢٣٠ ق. م.

ويُروى عن كعب الأحبار أنه قال[٢]: «إنّ أول حائط وُضِعَ في الأرض بعد الطوفان حائط دمشق وحرّان».

ويرى الباحث محمد حمّاد[٣] أنّ دمشق من أقدم المدن التاريخية في العالم، وقد بنيت قبل مولد السيد المسيح بثلاثة آلاف سنة.

ويرجع المؤرخ القديم يوسفوس تاريخ إنشاء مدينة دمشق إلى عهد عزّ بن آرام بن سام بن نوح[٤].

---

(١) «دمشق أقدم مدينة في العالم»، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، السنة الرابعة عشرة، العددان ٥٥/ ٥٦، أبريل/ يونيو، ١٩٩٤م، ٢٣٣.

(٢) الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ٢/ ٤٦٤.

(٣) تخطيط المدن الإنساني عبر العصور، ص١٢٣.

(٤) البهنسي، د. عفيف: «دمشق أقدم مدينة في العالم»، ص ٢٣٢.

وتشير الدّراسات الأثرية إلى أن اسم دمشق ورد في ألواح فرعون مصر تحوتمس الثالث[1] بلفظ «تيماسيك» مع أسماء المدن التي احتلّها، وهذا ما تشير إليه جدران معبد الكرنك في الأقصر (القرن الرابع عشر قبل الميلاد)[2].

وترى العالمة الأثريّة (جارود)[3] أنّ دمشق تعود إلى العصر الحجري الذي يعود إلى مئات ألوف السنين، وقد كانت مأهولة جداً بالسكّان الذين انتشروا في المرتفعات المحيطة بها، وعلى ضفاف نهريّ بردى والأعوج.

لقد توالت على دمشق عبر تاريخها الطويل أقوام غازية، واستوطنت فيها، وتولّت شؤونها وأمور الحرب والسلم فيها، فقد استوطنها الآراميون[4] خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، وفي هذه الفترة انتشر اسم (آرام) أو مملكة آرام وعاصمتها دمشق، وتعني كلمة آرام الأعالي، واسم آرام كما ورد في النّصوص يعني أيضاً دمشق[5].

وكانت دمشق في المعهد الآرامي منيعة وقويّة وقادرة على فرض «سيطرتها على مملكة إسرائيل المجاورة في أكثر الأحيان، بل إنّها كانت تقاوم دولة الأشوريين نفسها وتنتصر عليها أحياناً. وقد اقترنت هذه السطوة السياسيّة بالازدهار التجاريّ

---

(١) تحوتمس الثالث: (نحو ١٥٠٤ – ١٤٥٠ق.م): من أعظم ملوك مصر القدماء. غزا البلاد السورية ١٧ مرّة، وأنشأ إمبراطورية بين الفرات ومصر.
- العلايلي، عبد الله، وآخرون: المنجد في الأعلام، ص ١٨٤.

(٢) البهنسي، د. عفيف: «دمشق أقدم مدينة في العالم»، ص ٢٣٣.

(٣) عن / م ن، ص ٢٣٥.

(٤) الآراميّون: شعب ساميّ بدويّ النشأة، ظهرت قبائله حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، في شمال بلاد ما بين النهرين وعلى الفرات الأوسط، حيث استقرّ بعضهم وتحضّر، والبعض الآخر أسّس ممالك مستقلّة في سورية، أهمّها حماة وتل برسيب ودمشق، وقد زالت كلّها بعد سقوط دمشق في أيدي الأشوريين.
- المنجد في الأعلام، ص ٣.

(٥) البهنسي، د. عفيف: «دمشق أقدم مدينة في العالم»، ص ٢٣٤.

فاتّصلت بفينيقيا وبلاد الجليل وصدّرت إليهما القمح والخمر كما كانت فوق ذلك، مركزاً دينياً يتمتّع معبدها بنفوذ واسع لم يفقده إلاّ في أواخر عهد الوثنية»[1].

ونظراً لأهميّة المدينة، ولطمع الغزاة في خيراتها، فقد تصارع هؤلاء الغزاة الكثر من أجل السيطرة عليها، فقد سيطر عليها الأشوريّون[2] «بعد أن أخضعوها بقيادة «تيجلات - بايلسر الثالث» عام ٧٣١ ق. م (...) كما خضعت للكلّدانيين[3] تحت قيادة «نبوشاد رزار الثاني حوالي عام ٦٠٤ ق. م»[4]، واحتلّها الفرس (الأخمينيّون)[5] من عام ٥٣٨ إلى عام ٣٣٣ ق. م[6]، وذلك في عهد الملك

---

(١) منيمنة، د. سارة حسن: «مورفولوجية مدينة دمشق»، ص ٢٣٦.

(٢) الأشوريون: يرجّح المؤرّخون أنّ الجماعة الأشورية قد خرجت من الجزيرة العربية مع الأكاديين والهجرات الأولى حوالي ٣٠٠٠ ق. م، أو قبل ذلك. لكنّها نزلت في الشمال في سهول دجلة حيث ظهر كيانها، ثمّ أنشأت الدولة الأشورية (عاصمتها أشور) التي خضعت أول الأمر للسيطرة البابلية. وقد اكتسب الأشوريون الكثير من ثقافة جيرانهم السومريين والحثّيين، كما تمرّسوا بحياة الحرب والقتال.

- نخبة من أساتذة الجامعات: موسوعة بهجة المعرفة - مسيرة الحضارة، النيهوم، الصادق، ترجمة د. ماجد فخري، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طبعة إيطاليا، ٢٣/ ١١/ ١٩٨٢م. المجلد الأول، المجموعة الثانية، ص ١٠٦.

(٣) الكلدانيّون: ينتسب الكلدانيون إلى قبيلة ساميّة تسمى كالدو وربما كانت إحدى القبائل التي استوطنت في منطقة الأهواز [بالعراق] عند سواحل الخليج العربي في القرن التاسع قبل الميلاد.

- عثمان، د. عبد العزيز: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار الفكر الحديث، بيروت، طبعة ١٩٦٦م، ص ٣٧٥.

(٤) حمّاد، د. محمد: تخطيط المدن الإنساني عبر العصور، ص ١٢٥.

(٥) الأخمينيون: سلالة فارسية أسّسها قورش الأول (القرن السابع قبل الميلاد)، من أشهر ملوكها قمبيز الثاني وداريوس الأول وأحشورش. امتدّت إمبراطوريتهم إلى بلاد اليونان الآسيوية والساحل الفينيقي وفلسطين ومصر. انقرضت بموت داريوس الثالث.

- المنجد في الأعلام، ص ٢٧.

(٦) البنّي، د. عدنان: «دمشق من ٥٣٨ قبل الميلاد إلى آخر القرن الثالث الميلادي»، مجلة التراث العربي، العددان ٥٥/ ٥٦، نيسان/ أبريل، تموز/ يوليو، ١٩٩٤م، ص٢٤٧.

الفارسي «قمبيز Cambyes»[1]. ويُلاحَظ أنّه في عهد الاحتلال الأشوري والفارسي لم يحدث شيء ذو بال في حياة دمشق العمرانيّة[2].

وفي عام ٣٣٣ قبل الميلاد فتحها الإغريق اليونانيّون بقيادة الإسكندر المقدوني[3]، وقد أضفى اليونانيّون (٣٥٦ - ٣٢٤ق. م) على دمشق نظاماً جمالياً عمرانياً يشبه نظام مدنهم في التخطيط والتنظيم، إذ تشير الدّراسات إلى أنّ شوارع دمشق في المعهد اليوناني أصبحت مستقيمة ومتقاطعة، وحُصِرت في ما بينها وحدات سكنيّة على هيئة الجزر التي تشبه في مجموعها رقعة الشطرنج، وقد أشارت الدّراسات الطبوغرافية إلى أنّ هذه الأحياء السكنيّة أقيمت إلى الجانب الشرقيّ من دمشق القديمة.[4]

وفي عام ٦٤ قبل الميلاد استولى على دمشق القائد الرومانيّ «بومبي Pompee»، ولكن قبل هذا التاريخ ظهرت قوّة «الأنباط»[5] قوّة وطنيّة في

(١) حمّاد، د. محمد: تخطيط المدن الإنساني عبر العصور، ص ١٢٥.

(٢) منيمنة، د. سارة حسن: «مورفولوجية مدينة دمشق»، ص ٢٣٧.

(٣) حمّاد، د. محمد: تخطيط المدن الإنساني عبر العصور، ص ١٢٥.

والإسكندر المقدوني: (٣٥٦ - ٣٢٤ ق. م) الملقّب بذي القرنين: ولد في مقدونية وتوفي في بابل. تعلّم على أرسطو. خلف أباه فيلبس وعزم على فتح إمبراطورية الفرس فانتصر عليهم في إيسوس ٣٣٣ ق. م. ثم في سواحل فينيقيا بعد أن حاصر صور سبعة أشهر، ثم في مصر حيث أسّس الإسكندريّة ٣٣٢ ق. م.

- المنجد في الأعلام، ص ٤٣.

(٤) منيمنة، د. سارة حسن: «مورفولوجية مدينة دمشق»، ص ٢٣٧.

وأخذت منيمنة عن / الريحاوي، عبد القادر: مدينة دمشق، طبعة ١٩٦٩م، ص ٤٦. دون أن تحدّد دار النشر واسم المدينة.

(٥) الأنباط: قبائل بدويّة عربيّة، كانت لا تزال رحّالة حتى القرن الرابع قبل الميلاد. استوطنت جنوب فلسطين. اتّخذوا البتراء عاصمة لهم لحصانتها. ظهروا لأول مرّة في التاريخ عندما صدّوا هجمات القائد السلوقي أنتيغونس ٣١٢ ق. م. أشهر ملوكهم: الحارث الأول، والحارث الثاني، والحارث الثالث، وعبيدة الأول.

- المنجد في الأعلام، ص ٧٠٦.

المنطقة، وكوّنوا دولة عربيّة في الأردن وحوران (٨٥ -٧٢ ق. م)، وكانت «البتراء» عاصمتهم، وقد نجح الأنباط في الوصول إلى دمشق، والسيطرة عليها مرتين، الأولى في عهد ملكهم (الحارث الثالث) عام ٨٥ قبل الميلاد والثانية في عهد (الحارث الرابع) عام ٣٧ بعد الميلاد [١]. وتثبت المصادر أن الدمشقيّين رحبّوا بالملك الحارث وقلّدوه الملكيّة عليهم، وضربوا النّقود باسمه، ووضعوا صورته عليها[٢].

وفي العهد الرومانّي (٦٤ق. م -٣٢٥م) عرفت دمشق ازدهاراً اقتصادياً وتضاعف عدد سكانها، وشهدت حركة عمرانية واسعة، وأنشأ فيها الرومان[٣] مشروعين مهمّين، وهما بناء سور يحيط بالمدينة، وفتح قناة جديدة لمياه الشرب[٤]، وما إن أتى عهد الإمبراطور الروماني (ديوكلتيان Diocletian) الذي حكم ما بين ٢٨٤ -٣٠٥م، حتى تصبح دمشق أهمّ المراكز الحربيّة للجيوش الرومانيّة، وقد أولاها الإمبراطور هدريان (Hadrin) -الذي تولّى عرش روما ما بين (١١٧ -١٣٨م)- أهمية خاصة، إذ منحها لقب «متروبول»، ويعني مدينة رئيسيّة[٥]. وفي عهد هذا الإمبواطور أصبحت دمشق إحدى المدن العشرة (الديكابوليس)، الأكثر أهمية في العالم الروماني[٦]. وما بين عامي ٢٢٢ -٢٣٥م، حكمها الإسكندر سيفيروس (Alexander Severus)، الذي ينحدر من أصول

---

(١) حمّاد، د. محمد: تخطيط المدن الإنساني عبر العصور، ص١٢٥.

(٢) البني، د. عدنان: «دمشق من ٥٣٨ ق. م إلى آخر القرن الثالث الميلادي»، ص٢٥٠.

(٣) الرّومان: هم السكان الذين سكنوا مدينة روما. وقد تأسست روما في مقاطعة لاسيوم الإيطالية ٧٥٣ ق. م. وكانت أول عهدها مملكة ٧٢٣ -٥٠٩ ق. م. ثم أصبحت جمهورية ٥٠٩ -٣١ ق. م. اشتد فيها النزاع بين الأشراف والعامّة إلى أن بلغ العامّة سائر الوظائف في القرن الثالث قبل الميلاد. ولما قويت المدينة الدولة بدأت الفتوحات فضمّت إليها أقاليم إيطاليا، ٤٩٦ -٢٦٤ق. م. ثم دمرت قرطاجة ١٤٦ ق. م. واحتلّت مكدونيا واليونان وآسيا الصغرى وسورية وحولّتها إلى أقاليم رومانية.
- المنجد في الأعلام، ص٣١٣.

(٤) منيمنة، د. سارة حسن: م س، ص٢٣٧.

(٥) حمّاد، د. محمد: تخطيط المدن الإنسانيّ عبر العصور، ص١٢٥.

(٦) البهنسي، د. عفيف: «دمشق أقدم مدينة في العالم»، ص٢٤٠.

سورية، وقد نالت في حكمه بعض الامتيازات التي سمحت لها أن تلعب دوراً نشيطاً في الحياة الرومانيّة[١].

وسميّت دمشق في العهد الرومانيّ «مدينة الأعمدة» لأنّ المباني العامّة فيها امتازت بالأعمدة الكثيرة التي بناها المهندس «أبولودرس الدمشقيّ»[٢].

وقد شهدت دمشق في عهد الغساسنة[٣] نشاطاً عمرانيّاً مزدهراً بلغ أوجه خلال القرن السادس الميلادي، وذلك نظراً لما وصلت إليه دولة الغساسنة من رقيٍّ حضاريّ، وقد كان ببلادها كثير من الحصون والبيع والكنائس، وكانت مبانيها مجلّلة بالحجر الأبيض المأخوذ من الجبال القريبة منها[٤]، وقد بنى الغساسنة قصراً كبيراً في دمشق، وأطلقوا عليه «البريص»، وكان يقصده زعماء العرب، وينزلون فيه ضيوفاً على أمراء الغساسنة، وقد ذكره حسّان بن ثابت (ت ٥٤هـ/ ٦٧٤م) في شعره، ومدح أمراءه قائلاً[٥]:

لله دَرُّ عِصابة نادمتهم | يوماً بجِلّق، في الزمان الأوّلِ
يَسْقُون مَن وَرَدَ البَريص عليهم | بردى، يُصفّق بالرّحيق السّلسل
يُغشَون، حتى ما تَهرُّ كلابُهم | لا يَسألون عن السّواد المُقْبِلِ
بيض الوجوه، كريمة أحسابهم، | شُمُّ الأنوف، من الطراز الأول.

(١) حمّاد، د. محمد: تخطيط المدن الإنسانيّة عبر العصور، ص١٢٥.

(٢) م ن، ص١٢٦.

(٣) الغساسنة: سلالة عربية يمنية الأصل. هجرت بلادها عند انفجار سد مأرب في القرن الثالث الميلادي. استوطنت بلاد حوران وشرقيّ الأردن وفينيقيا اللبنانية وفلسطين قبل الإسلام. اعتنقوا المسيحية في نهاية القرن الثالث. عملوا في الجيش البيزنطي وعهد إليهم حماية الحدود السورية. أشهر ملوكهم: الحارث بن جبَلة (٥٢٩ -٥٦٩م)، المنذر بن الحارث (٥٦٩ -٥٨١م)، والنعمان بن المنذر (ت حوالي ٥٩٥م).
- المنجد في الأعلام، ص٢٠٧.

(٤) حسن، د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت / مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة عَشْرة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، الجزء الأول، ص٤٠.

(٥) الأندلسي، ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٤/ ٨٨ -٨٩. =

وفي رجب سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م، أنهى العرب المسلمون الفاتحون النفوذ الأجنبي على دمشق. ويروي ياقوت الحموي[1]، أنّه نزل على كل باب من أبواب دمشق أمير من أمراء المسلمين، ونزل خالد بن الوليد على الباب الشرقي، ثم افتتحه عنوة، فأسرع أهل دمشق «إلى أبي عبيدة بن الجرّاح ويزيد بن أبي سفيان وشُرحَبيل بن حسنَة، وكان كلّ واحد منهم على ربع من الجيش، فسألوهم الأمان فأمّنوهم وفتحوا لهم الباب، فدخل هؤلاء من ثلاثة أبواب بالأمان، ودخل خالد من الباب الشرقيّ بالقهر، وملكوهم وكتبوا إلى عمر بن الخطاب، (...) بالخبر وكيف جرى الفتح، فأجراها كلّها صلحاً».

هذا وقد أظهر الجيش الإسلاميّ الفاتح لدمشق موقفاً إنسانياً حضارياً، إذ حافظ على معالم المدينة التاريخية، غير الإسلامية، ولم يغصب أحداً على ترك منزله، وأعطى الفاتح خالد بن الوليد (ت ٢١هـ/ ٦٤٢م) لسكّان دمشق أماناً على أنفسهم وأموالهم.[2]

ثم صارت دمشق في ما بعد عاصمة للدولة الأمويّة، وشهدت في هذه الدولة ازدهاراً تجارياً وصناعياً وحربياً، بدءاً من عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤٠ - ٦٠هـ/ ٦٦٠ - ٦٨٠م) مؤسس الخلافة الأموية بدمشق[3]، وأصبحت في عهد المدينة الأولى في الشرق.[4]

= و: البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: من كتاب فتوح البلدان، اختار النصوص وعلّق عليها د. شوقي أبو خليل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة ١٩٩٧م، ص١٩٩٧.

(١) معجم البلدان، ٢/ ٤٦٥.

(٢) ويورد أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري نصّ عهد خالد بن الوليد لأهالي دمشق، والذي يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها: أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يُهدم ولا يُسكن شيء من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، والخلفاء والمؤمنين. لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية.». من كتاب فتوح البلدان، ص١٩٦.

(٣) حتي، فيليب: الإسلام منهج حياة، ص١٦٥.

(٤) منيمنة، د. سارة حسن: «مورفولوجية مدينة دمشق»، ص٢٣٨.

وتمضي دمشق في تطورّها العمرانيّ والحضاريّ حتى تبلغ أوج عزّها ومجدها في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ -٨٦هـ/ ٦٨٥ -٧٠٥م). وتتّسع الدولة الإسلاميّة في عهد ابنه هشام بن عبد الملك (١٠٥ -١٢٥هـ/ ٧٢٤ -٧٤٣م)، أقصى اتّساعها، وتصبح دمشق عاصمة مرموقة لإمبراطورية إسلاميّة لا نجد لها مثيلاً في الاتّساع، وذلك «في العصور القديمة ولم تبلغه في العصور الحديثة إلاّ الإمبراطوريتان البريطانية والروسية.»[1]

وقد كانت دمشق في عصرها الأموي تعجّ بالمنشآت العمرانيّة الكثيرة التي تبدو غاية في الجمال، ومنها المسجد الأمويّ الذي بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان (٨٦ -٩٦هـ/ ٧٠٥ -٧١٥م)، الذي يصفه محمد بن عبد اللّه القلقشندي[2]، بأنّه «أعظم مساجد الدنيا احتفالاً، وأتقنها صناعة، وأبدعها حسناً وبهجة وكمالاً، ولا يُعلَم له نظير، ولا يوجد له شبيه». وهذا الجامع هو إحدى عجائب الدنيا التي يحددها ياقوت الحموي[3] بـ«قنطرة سنجة ومنارة الإسكندرية وكنيسة الرّها ومسجد دمشق».

و دمشق في العصر الأمويّ مليئة بالحمّامات والفنادق والقيساريّات، والمشافي، وفيها دار للبريد ودار لضرب النقود، ودار للإمارة، وثكنات للجيش، ودار للخيل، وقصور فخمة، ومنها قصر الخضراء[4]، (قصر معاوية بن أبي سفيان).

وتنتهي فترة الخلافة الأمويّة بمقتل الخليفة الأمويّ مروان بن محمد(١٢٧ -١٣٢هـ/ ٧٤٤ -٧٤٩م)، بعد أن هزمته الجيوش العبّاسيّة وتبعته إلى

---

(١) البهنسي، د. عفيف: «دمشق أقدم مدينة في العالم»، ص٢٤١.

(٢) «دمشق في القرن الثامن للهجرة»، ضمن كتاب: درر وتحف من تراث السلف، اختار النصوص: محمد علي السرّاج، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، الجزء الثاني، ص١٧٩.

(٣) معجم البلدان. ٢/ ٤٦٥.

(٤) البهنسي، د. عفيف: «دمشق أقدم مدينة في العالم، ص ٢٤٢ -٢٤٣.

مصر وقتلته بقرية بوصير من قرى الصعيد سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م[١]. وتفتح دمشق أبوابها أمام المغيرين العبّاسيّين بعد حصار قصير، ويدخلها هؤلاء، وينبشون قبور خلفائها، ويستأصلون الأحياء من سادة الأمويّين. إمّا غيلة وإمّا علناً[٢]، ولا عجب في أن تفقد دمشق مركزيّتها السياسيّة والدينية والتجاريّة أيام الأمويّين، و«أن تغدو مدينة ثانوية في إطار الإمبراطورية الجديدة التي غدت حاضرتها الكوفة أول الأمر، ومن ثمّ بنت حاضرتها الجديدة: بغداد، وعملت على أن تكون قبلة الأنظار في كل المجالات»[٣].

ولم يتوقف الصراع على دمشق، بعد زوال الخلافة العبّاسيّة، بل خضعت هذه المدينة «للطولونيين وللأخشيدين وللفاطميين، ثم آلت إلى الأيوبيين الذين حصّنوها في وجه الصليبيين في العصور الوسطى»[٤].

وتستمرّ دمشق في تراجعها، وفقدانها لأهميّتها السياسيّة، ليخيّم الظلام والفقر عليها. ويقول المؤرخ ابن الجوزي[٥] واصفاً الحال التي وصلت إليها في عهدها الفاطمي، وذلك أثناء حديثه عن حوادث العام ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م: «لم يبق من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف أفناهم الفقر والغلاء والجلاء، وكان بها مائتان وأربعون خبّازاً فصار بها خبّازان، والأسواق خالية، والدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار يُنادى عليها بعشرة دنانير فلا يشتريها أحد».

---

(١) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص١٣٨.

(٢) حتي، فيليب: الإسلام منهج حياة، ص١٧٦.

(٣) عاقل، د. نبيه: «دمشق. من الفتح وحتى العصر العبّاسيّ -دراسة في العمران»، مجلة التراث العربي، العددان ٥٥/ ٥٦، ص٨٣.

(٤) حلاّق، د. حسّان: مدن وشعوب إسلامية، ١/ ٤٦.

-والطولونيون في مصر: «٨٦٨-٩٠٥م». والأخشيديون في مصر: «٩٣٥-٩٦٩م». والفاطميون في تونس ومصر: ٩٠٩-١١٧١م». والصليبيون: «١٠٩٥م-١٢٥٤م».

(٥) عن/ عاقل، د. نبيه: م س، ص٨٤. ولم يذكر اسم المصدر الذي أخذ منه.

وفي عام ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م، تخضع دمشق لسلطة السلاجقة (الأتراك)[١]، وتحت حكم هذه السلطة تعود دمشق لتزدهر من جديد، ولتتطوّر عمرانياً وحضاريّاً، إذ تُبنى قلعتها الشهيرة بقلعة دمشق في عام ٤٧٠هـ/ ١٠٧٨م، وتُحصَّن بالأسوار والأبراج والخنادق، ويُشاد فيها الحمامات والمساجد والمدارس والقصور[٢].

ثم تخضع دمشق للأيوبيين (١١٧١ -١٢٥٠م)[٣]، وتستمرّ في ازدهارها الحضاريّ في هذه الفترة إذ تمثّل أهمّ مراكز النهوض الإسلامي[٤]، المعرفيّ والعمرانيّ. وقد أنشأ صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ -٥٨٩هـ/ ١١٣٨ -١١٩٣م) في دمشق المدارس والكليّات، وذكر أحد الزوّار الذين زاروا دمشق عام ١١٨٤م، «أنّ فيها عشرين مدرسة، ومستشفيين مجانيين، وعدداً كبيراً من الخانقاهات.»[٥]، ومن هذه المدارس: العادليّة الصغرى والعادليّة الكبرى، والبارادئيّة والناصريّة والقلجيّة والعزيزيّة، وقد كان فيها مائة حمّام وأربعون داراً للوضوء[٦].

---

(١) والسلاجقة: أمراء تركمانيّون (١٠٣٧ -١٣٠٠م)، جدّهم سلجوق. كان منهم عدة فروع أهمّها: السلاجقة الكبار، أنشأهم طغرل بك وجغري بك حفيدا سلجوق. سلاجقة كرمان، أسّسهم قرّة أرسلان. سلاجقة سورية، أسّسهم تتش بن أرسلان. سلاجقة العراق وكردستان، أسّسهم مغيث الدين محمود. سلاجقة الروم في آسيا الصغرى.
- المنجد في الأعلام، ص٣٦٠.

(٢) عاقل، د. بنيه: «دمشق.. من الفتح وحتى العصر العبّاسيّ -دراسة في العمران»، ص٨٤.

(٣) لاندو، روم الإسلام والعرب، ص١١١.

(٤) بيضون، د. إبراهيم: الحجاز والدولة الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٢٣.

(٥) عن/ لاندو، روم: الإسلام والعرب، ص٩٨.

والخانقاة: هي في الأصل لفظة معربّة عن الفارسيّة وهي البقعة التي يسكنها الصالحون ورجال الصوفيّة.

(٦) البهنسي، د. عفيف: «دمشق أقدم مدينة في العالم» ص٢٤٤.

وعندما يستولي المماليك على بلاد الشام عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م،[١] تدخل دمشق هي وغيرها من مدن الشام تحت سيطرتهم، وتصل إلى أقصى توسّعها في عهدهم، وتُبنى القصور الفخمة فيها، ومن هذه القصور: قصر الأبلق الذي أنشأه الملك الظاهر بيبرس[٢]، ويزداد عدد المدارس ومنها: دار الحديث، والمدرسة الخيضريّة، والجوهريّة، وتُشاد الجوامع، ومنها جامع هشام والقلعي، وجامع الأمير يلبغا، وتتسع ضواحيها، لتصبح في عهدهم من أجمل مدن العالم نضارة، ومن أكثرها ازدهاراً[٣]، ولتكون «مدينة عظيمة البناء، ذات سور الجابية وباب الفراديس والباب المسدود.»[٤]. وفي فترة حكم المماليك، وتحديداً في عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، تتعرّض هذه المدينة للتدمير والتخريب[٥]، إذ يغزوها هولاكو[٦] ويخرّبها، ثم تعود للازدهار ثانية بعد انتصار المماليك على المغول في

(١) زيادة، د. نقولا: «الحياة العلمية في بلاد الشام في أيام المماليك»، مجلة التراث العربي، العددان ٥٥/ ٥٦، ص٥٠.

(٢) الملك الظاهر بَيْبَرْس: (ركن الدين، ٦٢٥ -٦٧٦هـ/ ١٢٢٨ -١٢٧٧م): رابع سلطان المماليك ١٢٦٠ -١٢٧٧م، ومؤسس سلطان المماليك الحقيقي. من مماليك الملك الصالح الأيّوبي. قاد معركة المنصورة التي انتهت بأسر لويس التاسع. حارب في «عين جالوت» ضد التّتر بقيادة الملك المظفّر قطز، وحارب الصليبيين ١٢٦٥ -١٢٧١م، وانتزع قلاعهم الواحدة تلو الأخرى وكسر التّتر في الأناضول. توفّي في دمشق.

- المنجد في الأعلام، ص١٥٦.

(٣) البهنسي، د. عفيف: دمشق زقدم مدينة في العالم»، ص٤٤.

(٤) القلقشندي: «دمشق في القرن الثامن للهجرة»، في: درر وتحف من تراث السلف، ص١٧٣.

(٥) حلّاق، د. حسّان: مدن وشعوب رسلامية، ١/ ٤٧.

(٦) هولاكو: (نحو ٦١٤ -٦٦٣هـ/ ١٢١٧ -١٢٦٥): فاتح مغولي هو مؤسّس دولة المغول في إيران ١٢٥١ -١٢٦٥م. حفيد جنكيز خان، قضى على الخلافة العبّاسيّة ١٢٥٨م، واحتلّ سورية. عاد إلى إيران بعد موت أخيه، فهاجم المصريون جيشه في الشام وأبادوه ١٩٦٠م.

- المنجد في الأعلام، ص٧٣٤.

عين جالوت[1]، ثم تُدمّر مرّة أخرى في عام ٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م، ثم يحرقها تيمورلنك عام ٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م[2]، ويخرّب المراكز الصناعيّة الكبيرة فيها.[3]

أخذت دمشق عبر تاريخها الطويل أسماء عديدة، فالاسم القديم لدمشق هو «دمشقا»، أمّا في التسمية فتصبح «دار ميسيق»، أي الأرض المستقيمة[4]، وتأخذ في الآرامية اسماً آخر وهو «مشق»، ومعناها الأرض المزهرة أو الحديقة الغنّاء، وأطلق السريان عليها «درمسوق»[5]. أمّا المقدسي فإنّه يشتق اسم دمشق من اسم بن قاني بن مالك بن أرفخشد بن سام[6]، وفي ألواح أثرية قُرنت دمشق بـ «دومشقا أو تيماشكي»[7]. وفي التوراة تأخذ اسم: «داميّسيك ودوميّسيك ودراميسيك»، أمّا في النصوص الآشورية فقد سميت بـ: «دمشقا أو دمشقيّ أو دمشقو»، وفي وثائق إيبلا وردت دمشق تحت اسم «دامسكي» كما يقول بيتسيناتو[8]. أمّا الفاتحون

---

(١) منيمنة، د. سارة حسن: «مورفولوجية مدينة دمشق»، ص٢٤٤.

(٢) حلّاق، د. حسّان: مدن وشعوب إسلامية، ١/ ٤٧.

- وتيمور لنك أو تيمور الأعرج: (٧٣٦-٨٠٧هـ/ ١٣٣٦-١٤٠٥م): ملك المغول وحفيد جنكيز خان. ولد في كش بالغرب من سمرقند (تركستان). اعتلى العرش بدهائه وبطشه. فتح خوارزم وفارس وسورية ومصر. خرّب بغداد ١٣٨٦م، واحتلّ موسكو. دخل في صراع مع العثمانيين فانتصر عليهم في معركة أنقرة ١٤٠٢م. اتّخذ سمرقند عاصمة له وجاء إليها بالعمال والفنانين والعلماء، فازدهرت على أيامه.

- المنجد في الأعلام، ص٢٠٠.

(٣) بريجز، كريستي أرنولد؛ : تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة، ترجمة د. زكي محمد حسن، دار الكتاب العربي، دمشق/ مكتبة السائح، طرابلس (لبنان)، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، ص٣٢.

(٤) حمّاد، د. محمد: تخطيط المدن الإنساني عبر العصور، ص١٢٤.

(٥) منيمنة، د. سارة حسن: «مورفولوجية مدينة دمشق»، ص٢٣١.

(٦) عن/ ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام، القسم الأول والثاني، ص٢٥. وتتّفق هذه التسمية تماماً مع تسمية ياقوت الحموي لها في معجم البلدان، ٢/ ٤٦٣.

(٧) البهنسي، د. عفيف: «دمشق أقدم مدينة في العالم»، ص٢٣٣.

(٨) م ن، ص٢٣٣.

المسلمون فقد أُعجبوا بجمال دمشق، وأطلقوا عليها «شامة الدنيا»[1]، و«جلّق» لقب من ألقابها[2].

إنّ لدمشق أهميّة استراتيجية متميّزة بين مدن العالم الإسلاميّ، فهي تُعدّ بإجماع الجغرافيين القدماء، من بين المدن الكبرى في تاريخ الدولة الإسلاميّة[3]، وتأتي أهميتها الاستراتيجية من حيث موقعها في طرف بادية الشام، وعلى ملتقى الطرق العسكرية والتجاريّة القديمة[4]، بالإضافة إلى وجودها في المنطقة التي يرويها نهر «بردى»[5].

وعَرفت دمشق عبر مسيرتها التاريخية ازدهاراً وثراء وحركة تجاريّة نشيطة، بفضل موقعها الجغرافي الذي جعلها قادرة على أن «تتحكّم في عدد كبير من الطرق الحربيّة والتجاريّة في العالم القديم والوسيط، لأنّها باب إلى صحراء مأهولة، تقوم

---

(١) عاقل، د. نبيه: «دمشق.. من الفتح وحتى العصر العبّاسيّ -دراسة في العمران»، ص٧٤. ولم يذكر اسم المرجع الذي أخذ منه.

(٢) م ن، ص٧٧.

(٣) ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص٣٤٥-٣٤٦.
ويحدّد أندريه ميكيل الأقاليم التي تضمّ المدن الإسلامية الكبرى، استناداً إلى المصادر الجغرافية القديمة، بمايلي:

إقليم المغرب: قرطبة والقيروان	إقليم الديلم: شهرستان.
إقليم مصر: الفسطاط	إقليم الجبال: همدان.
إقليم جزيرة العرب: مكّة وزبيد	إقليم خوزستان: الأهواز.
إقليم الشام: دمشق	إقليم فارس: شيراز.
إقليم العراق: بغداد	إقليم كرمان: السيرجان.
إقليم أقور: الموصل	إقليم السند: المنصورة.
إقليم الرحاب: أردبيل	إقليم المشرق: نيسابور وسمرقند.

- ص: ٣٤٥-٣٤٦ من جغرافية دار الإسلام، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث.

(٤) حلّاق، د. حسّان: مدن وشعوب إسلامية، ١/ ٤٦.

(٥) حمّاد، د. محمد: تخطيط المدن الإنساني عبر العصور، ص١٢٤.

من ورائها مكّة واليمن وبغداد وفارس والهند، وتقع عندأفضل مخرج من الصحراء إلى البحر عبر الثلمة الواقعة فيما بين الحرمون وجبال لبنان الشرقيّة، ثم عبر البقاع وجبال لبنان الغربيّة. كما أنّها كانت صلة الوصل بين مهدي الحضارة القديمة في مصر وما بين النهرين»[1].

ولم تكن التجارة هي الحرفة الوحيدة النشطة في دمشق، والتي ساهمت في ثراء الناس ورفاهيتهم، بل شهدت حرفاً أخرى وصناعات كثيرة في عصورها التاريخية، فعلى سبيل المثال، كانت دمشق في عهد المماليك «تنتج السكر والنقولات وتصنع المنسوجات القطنيّة والحريريّة والزجاج والخزف والزخرفات الحديدية والكاغد[2] والصابون والعطور وماء الزهر والشموع والأحذية. وكانت المدينة مشهورة أيضاً بصياغة الذّهب والفضّة. وكانت تُقرن بالقاهرة، وكان بعض الأوروبيين يفضّلونها على باريس وفلورنسة. . »[3].

وتشير المصادر التاريخية إلى متاجر دمشق المملوكيّة العامرة بكل أصناف البضائع، حيث المصوغات الرائعة الأنيقة، والأقمشة الحريريّة مختلفة الأنواع، والكميات الكبيرة من الأقطان التي تعدُّ من أجمل ما في العالم من أقطان، من حيث نعومتها ولمعانها، والبروكار، وطسوت النحاس والأباريق التي تبدو كأنّها من الذّهب، والمزخرفة بنقوش من الأشكال والأوراق، إضافة إلى ما يُصنع من الفضة، بشكل فنّي جماليّ متميّز، تُسرّ العين لرؤيته. [4]

ولقد شهِدت دمشق عبر تاريخها نشاطاً علمياً ومعرفيّاً كبيراً في مختلف المعارف والعلوم، فقد بقيت طوال العهد الأمويّ، حتى عام ١٣٣هـ/ ٧٥٠م مركز إشعاع علميّ ومعرفيّ للعالم العربيّ والإسلاميّ. [5]

---

(١) منيمنة، د. سارة حسن: «مورفولوجية مدينة دمشق»، ص٢٣٢.

(٢) الكاغد: القِرْطاس (من الفارسية): الصحيفة التي يُكتب فيها.

- المنجد في اللغة، مادة: كغد، ص٦٨٩.

(٣) زيادة، د. نقولا: «الحياة العلمية في بلاد الشام في أيام المماليك»، ص٥١.

(٤) م ن، ص٥٢.

(٥) حمّاد، د. محمد تخطيط المدن الإنساني عبر العصور، ١٢٦.

وقد انتشرت في دمشق، في عهدها المملوكيّ، المدارس التي اختصّت بتدريس الفقه الإسلاميّ والحديث الشريف والقرآن الكريم وعلوم اللغة العربيّة، وكانت تُسمّى دور القرآن الكريم، ومن أشهرها: دار الجزريّة التي بناها قاضي الشام شمس الدين الجزري عام ٨٣٤هـ/ ١٤٣١م، ودار الدلاميّة التي بناها زين الدين دلامة، أحد أبرز أعيان دمشق عام ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م، ودار الخيضريّة التي أنشأها قطب الدين الخيضري، قاضي قضاة دمشق عام ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م[١]. ولم يقتصر التدريس في مدارس دمشق على العلوم النظريّة فحسب، بل شمل مختلف العلوم، كـ«الطبّ والصيدلة والفلك والكيمياء والأحياء، فكانت كلمة مدرسة تطلق على المدارس التي تهتمّ بالعلوم النظريّة في حين كانت كلمة بيمارستان تطلق على المدارس التي تهتمّ بالعلوم التطبيقيّة كالطبّ والأحياء والفلك (...) فكان البيمارستان النوري والبيمارستان القيمري.»[٢]. ورافق هذا النشاط المزدهر تأليف الكتب والموسوعات في مختلف ميادين المعرفة النظريّة والتطبيقيّة: في الفقه والتفسير والعقيدة والحديث والتصوّف واللغة والأدب والشعر والتاريخ والجغرافية والطبّ والعلوم والفلك والمواضيع المتفرقّة الأخرى[٣]، ولا نكاد نجد «مدينة في عهد المدينة الإسلاميّة حافلة بالمدارس والمساجد بقدر ما كانت عليه مدينة دمشق، وقلّما خلت مدرسة أو مسجد من مكتبة طافحة بالكتب المتعددة في فنون مختلفة.»[٤].

هذا وقد حظيت دمشق في الأدبيّات والمصادر التاريخية بإعجاب المؤرّخين[٥] والشعراء. وقال فيها بعض الشعراء مقطوعات شعرية كثيرة، تصف غوطتها

(١) الزوبي، ممدوح: «مدارس دمشق القديمة»، مجلة بناة الأجيال، نقابة المعلمين، دمشق، السنة الرابعة، العدد الخامس عشر، تموز ١٩٩٥م، ص١١٦.

(٢) م ن، ص١١٧.

(٣) زيادة، د. نقولا: «الحياة العلمية في بلاد الشام في أيام المماليك:، ص٦٣.

(٤) تيمور، أحمد: «خزائن الكتب العربية»، في: درر وتحف من تراث السلف الصالح، ص٢٠١.

(٥) ويصف ياقوت الحموي دمشق بالجنّة قائلاً: «وهي جنّة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ونضارة بقعة وكثرة فاكهة ونزاهة رقعة وكثرة مياه».
- معجم البلدان، ٢/ ٤٦٣.

وجمالها، وصفاء العيش فيها. يقول الشاعر أبو المطاع بن حمدان في وصف دمشق[1]:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها، فلي بجنوب الغوطتين شجون
وما ذقت طعم الماء إلّا استخفّني إلى بردى والنيريين حَنين
وقد كان شكّي في الفراق يروعني، فكيف أكون اليوم وهو يقين؟

ويقول الشاعر الصنَّوبري[2] في جمال دمشق:

صَفَتْ دُنيا دمشق لقاطنيها، فلست ترى بغير دمشق دُنيا
تفيض جداول البلّور فيها خلال حدائق يُنبتن وشيا.

ويروي ياقوت الحموي[3] أنّ عبد الله بن حَوَالة شكا إلى رسول الله (ص) الفقر والقلّة، فأكدّ له الرسول أنّ هذا الفقر سيظلّ مخيّماً على المسلمين إلى أن يفتحوا أرض فارس وأرض الروم، وإلى أن يصبح المسلمون أجناداً ثلاثة: جند بالشام وجند بالعراق وجند باليمن، عندها قال ابن حَوَالة: «اختر لي يا رسول الله إن أدركني ذلك، فقال: اختار لك الشام فإنها صفوة اللّه في بلاده وإليها يجتبي صفوته من عباده. يا أهل الإسلام فعليكم بالشام فإنّ صفوة اللّه من الأرض الشام».

وتبقى دمشق، مثلها مثل بقية المدن الإسلاميّة، ذات وجه قاتم بالنسبة لبعض مواطنيها الشعراء، أو القادمين إليها، إذ لم يرَ هؤلاء فيها إلاّ كلّ نقيصة وسوء، فليست ذات مياه عذبة وغزيرة كما يقول مادحوها، بل هي ذلك كما يرى أحد الشعراء وهو يذمّها[4]:

---

(١) عن/ معجم البلدان، ٢/ ٤٦٧.
(٢) عن/ معجم البلدان، ٢/ ٤٦٧.
- ولمزيد من الاطلاع على ما قيل في مدح دمشق، ينظر: السابق، ص٤٦٧ -٤٦٨.
(٣) م ن، ٣/ ٣١٤.
(٤) معجم البلدان، ٢/ ٤٦٨.

إذا فاخروا قالوا مياه غزيرة
عِذاب، وللظامي سُلافٌ مورّق

سلافٌ ولكنّ السراجين وزجُها
فشاربها منها الخرا يتنشق

وقد قال قومٌ جنّة الخلد جلّقٌ
وقد كذبوا في ذا المقال ومَخرقوا

فما هي إلاّ بلدة جاهلية
بها تكسد الخيرات والفسق يَنفُقُ.

والناس في دمشق قليلو الوفاء، على حدّ تعبير الشاعر محمد رحمة الله الأيّوبي حين يقول[1]:

قالوا دمشق حوت كل المنى وزهت
على البلاد، بها من كل مرغوب

فقلت: لكن بها قلَّ الوفاء فلا
يُرى بها ذو وفاء غير مغلوبِ.

وها هو الشاعر الدمشقي "فتيان الشاغوري"، لا يرى في أهل حيْه إلاّ اللصوص، والمال الحرام. يقول[2]:

وبين نُهيْرَي الشاغور[3] قومٌ
يرون الفخر كونهم لصوصا

فكلّهم متى يظفر بشاة
تحوّل شوحة تغتال صوصا

وما طبخت قُدُوْرُهُمُ حلالاً
فليتهم بها طبخوا مصوصا[4]

ولو أنّا نصافح خيِّريهم
لسَلّوا من خواتمنا الفصوصا.

هذه هي بعض ملامح دمشق التاريخية، التي تلتقي مع بعض ملامحها الحكائية في حكايات ألف ليلة وليلة، والتي نستعرض معظمها من خلال العنوان الآتي: دمشق في ألف ليلة وليلة.

(١) عن/ أرناؤوط، عبد اللطيف: «مراجعة كتاب: محمد المصري: الديوان الدمشقي، دار الفكر، دمشق دار الفكر المعاصر، بيروت، د.ت.» في: مجلة التراث العربي، العددان ٥٥ / ٥٦، ص٢٠٩.
(٢) عن / أرناؤوط، عبد اللطيف: «مراجعة كتاب: محمد المصري: الديوان الدمشقي»، م ن، ص٢٠٩، ص٢١٠.
(٣) أحد أحياء دمشق القديمة المعروفة.
(٤) المَصُوص: ج مَصَائص: لحم يُطبخ وينقع في الخل.
- المنجد في اللغة، مادة: مصّ، ص٧٦٤.

ب- دمشق في ألف ليلة وليلة:

ترتحل الوحدات السرديّة إلى دمشق في عدد من الحكايات التاريخية، التي تدور حوادثها في دمشق، ويعود سرد هذه الوحدات إلى زمان مرجعيّ يحدّد بفترة الخلافة الأمويّة (٤١- ١٤٢ هـ- ٧٥٠م)، باعتبار دمشق عاصمة مركزية للدولة الإسلاميّة أيام هذه الخلافة. وهذه الوحدات السرديّة لا تنهل من هذا الزمان المرجعي فحسب، بل من أزمنة أخرى، تكون دمشق فيها، قد فقدت مركزيتها السياسيّة، وذلك بانزياح هذه المركزية، وانتقالها إلى بغداد التي ستصبح هي العاصمة المركزية أيّام الدولة العبّاسية، كما أُشير إلى ذلك سابقاً[(١)].

أمّا الحكايات التي تجري أحداثها في دمشق، أو يتوقف أبطالها فيها، فهي حكاية **«الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»**[(٢)]، فدمشق في هذه الحكاية مركز بداية السرد، ثم تصبح بغداد هي المركز، وبعدها تنزاح دمشق لتبقى مجرد محطّات سريعة، وحكاية **«نعمة ونعم»**[(٣)]، وتبدأ حوادثها بالكوفة، ثم تصبح دمشق مركزاً رئيساً لاستكمال الوحدات السرديّة، وفكّ عقدة الحكاية، وحكاية **«عبد الملك بن مروان والقماقم السليمانية»**[(٤)]، وفيها يرتحل السرد من دمشق ليصبح فضاء المدن الأسطورية والتخييليّة محوراً لهذا السرد، بعد ذلك. وحكاية **«اليهود لملك الصين»** الداخلة ضمن حكاية **«الأحدب وملك الصين»**[(٥)]، فمعظم حوادثها تجري في دمشق، لكنها تُروى أمام ملك الصين. أمّا الحكايات التي

(١) وذلك عند الحديث عن بغداد في الفصل الأول من هذه الدراسة.

(٢) ألف ليلة وليلة، ١/ ٢٤٢.

(٣) م ن، ٢/ ٣٢٣.

(٤) م ن، ٤/ ٢٤.

(٥) م ن، ١/ ١٤٤.

لا تبدو فيها دمشق مركزاً، أو بؤرة للحكاية، بل محطة مؤقتة يتوقّف السرد فيها، ثم يعود سريعاً منها، فهي: حكاية «**علاء الدين ابي الشامات**»[1]، وحكاية «**سيف الملوك وبديعة الجمال**»[2]، وحكاية «الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين»[3]، الداخلة ضمن حكاية «هرون الرشيد مع الصياد». أما الحكايات التي تبدو دمشق فيها مجرد تسمية أو إشارة، ليس لها دور في بناء الأحداث، فهي: حكاية «**تودد الجارية**»[4]، وحكاية «**علي الزيبق المصري مع دليلة المحتالة**»[5]، وحكاية «**الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدي**»[6]. أما حكاية «**الحجاج بن يوسف الثقفي مع هند بنت النعمان**»[7]، فإنّ أحداث الحكاية تجري في دمشق، أيام الخليفة الأمويّ عبد الملك بن يروان، لكنّ الرّاوي لا يذكر دمشق تحديداً في الحكاية، بل يذكر لفظة (بلد عبد الملك بن مروان)، بدلاً من دمشق، وكذلك تنطبق الحال هذه على حكاية «**هشام بن بعد الملك مع غلام من الأعراب**»[8]، إذ تجري الحكاية في فترة خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ/ ٧٢٤- ٧٤٣م)، لكنّ الرّاوي لا يذكر دمشق في جميع المقاطع السرديّة، وكأن ذكر هشام بن عبد الملك كافٍ لتحديد الفضاء المكانيّ الذي نشأ فيه وحكمه.

---

(١) م ن، ٢/ ٣٧٤.
(٢) م ن، ٤/ ١٨٤.
(٣) م ن، ١ / ٩٣.
(٤) ألف ليلة وليلة، ٣ / ٢٢٩.
(٥) م ن، ٤ / ١١١.
(٦) م ن، ٤ / ٤٣١.
(٧) م ن، ٤ / ٩٢.
(٨) م ن، ٢ / ٤٠٤.

وتبدو دمشق في ألف ليلة وليلة مدينة جميلة غنّاء «ذات أشجار وأنهار وأثمار وأطيار كأنّها جنّة فيها من كل فاكهة»(١)، وهي الممدوحة في الشعر الذي يرويه أحد رواة الحكايات، حين يقول عنها(٢):

من بعد يومي في دمشق وليلتي	**حلف الزمان بمثلها لا يلغَط (٣)**
والطلّ في تلك الغصون كأنه	**دُرٌّ يصافحه النسيم فيسقط**
والطير يقرأ والغدير صحيفة	**والريح تكتب والغمام ينقُط (٤).**

إنّ هذه الصورة المشرقة لدمشق في الليالي لا تختلف عن صورتها التاريخية، كما وردت في المصادر التي وصفت معالم هذه المدينة الجماليّة، بأشجارها وأنهارها وغوطتها. يقول ياقوت الحموي عنها(٥): «ومن خصائص دمشق التي لم أرَ في بلد آخر مثلها كثرة الأنهار بها وجريان الماء في قنواتها، فقلّ أن تمرّ بحائط إلا والماء يخرج منه في أنبوب إلى حوض يُشرب منه ويستقي الوارد والصادر (...) وبها فواكه جيدة فائقة طيبة تُحمل إلى جميع ما حولها من البلاد من مصر إلى حَرّان».

وتذكرنا فواكه دمشق التي قال ياقوت الحموي إنها تُحمل إلى جميع ما حولها من البلاد، بحكاية «حمّال بغداد والبنات» في ألف ليلة وليلة، التي تجري

---

(١) م ن، ١/ ١٤٥.

- ويصف الراوي مدينة دمسق في موضع آخر بأنها مدينة تفيض طيباً وجمالاً، فها هو أحد المماليك سافر من خراسان حتى «وصل إلى مدينة دمشق فوجدهل مدينة طيبة أمينة ذات أشجار وأنهار وثمار وأطيار تسبّح الواحد القهار الذي خلق الليل والنهار».

- م ن، ٤/ ١٨١.

(٢) م ن، ١/ ١١٤.

(٣) يلغط: يصوت. المنجد في اللغة، مادة: لغَطَ، ص ٧٢٥.

(٤) وهذه الصورة الطيبة الآمنة، ذات الأشجار والغدران التي ذكرها رواة الليالي تشبه إلى حد بعيد ما قيل في هذه المدينة، في الأدبيان التاريخية، نثراً وشعراً.

- لمزيد من الاطلاع يُنظر: معجم البلدان، ٢/ ٤٦٧ - ٤٦٨.

(٥) ألف ليلة وليلة، ٢/ ٤٦٥.

حوادثها في زمن الخليفة هرون الرشيد، فخادمة البنات الثلاث نزلت إلى سوق بغداد، واشترت تفاحاً شامياً [١]، وطلبت من الحمّال أن يحمله إلى دار البنات، بأحد أحياء بغداد.

وفي دمشق ألف ليلة وليلة، توجد المطاعم الجميلة التي يثبت أصحابها قدراتهم المتميّزة في طهي أشهى أنواع الطعام، فها هو عجيب بن حسن الدين يقول[٢] لجدته: «رأينا في المدينة [دمشق] طبّاخاً طبخ حبّ رمّان ولكنّ رائحته ينفتح لها القلب، وأمّا طعامه فإنها تشتهيه نفس المتخوم، وأمّا طعامك بالنسبة إليه فإنه لا يساوي كثيراً ولا قليلاً».

إنّ الصورة الجماليّة لدمشق في الليالي، بأنهارها وجداولها وحدائقها الغنّاء، تغيب إذا ما تحدّث الرّواة عن تجّار دمشق، فدمشق في الليالي بلاد الربح الفاحش، والتلاعب بالأسعار. فها هو أحد التجّار الموصليين يزور دمشق مع أعمامه، ويقول إنّه باع بضاعته «فربح الدرهم خمسة دراهم» وفرح بالربح [٣]، وهاهو أحد شخوص التجار يقول [٤]: «وسافرت (...) إلى الشام، فربحت المثل مثلين».

لقد عرفت الولايات الإسلامية في الدولتين الأمويّة والعباسيّة توسّعاً مدهشاً في التجارة، وقد أوجد هذا التوسّع شبكة من المدن الإسلاميّة «ذات حياة مدنية بالغة التقدم، تقطنها فئات ثريّة من التجّار، تعرف أحوال العالم، وتمتلك الذكاء والجرأة والاستقلال، وكانت مصالح هذه الجماعات (كما هي العادة في الحضارات التجاريّة الزاهرة) دنيوية في أكثرها» [٥]. ولعلّ تجّار دمشق هم من أوائل تجّار

---

(١) م ن، ١/٤٦.

(٢) م ن، ١/١١٩.

(٣) م ن، ١/١٤٦.

(٤) م ن، ٢/٣٥٤.

(٥) جيب، هاملتون: التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، دون مترجم، المركز العربي للكتاب، دمشق، د. ت، ص ٢٤.

الولايات الإسلاميّة جميعها- كما تُصوّرهم ألف ليلة وليلة- الذين كانت مصالحهم دنيوية بالدرجة الأولى، وهم أكثر التجار قدرة على استغلال ذكائهم، في استثمار الأموال، وتنشيطها وتثمينها، سواء بالغشّ أو بالاحتكار. وأسهمَ الدّلالون في دمشق ألف ليلة وليلة، وهم من طبقة التجّار، في الغشّ وتقليل القيمة الحقيقيّة للسلعة التي يشترونها، لأجل الربح الفاحش، فها هو أحد الأبطال الغرباء يدخل دمشق، وبطريقة مصادفات ألف ليلة وليلة يحصل على عقد من الجوهر، ثم يضطرّ لأن يبيعه، فيذهب إلى السوق، ويسلّمه للدلال، ويتّفق الدلال مع أحد التجّار على أن يبيعه العقد بألفي دينار، لكنّه يدّعي أمام الشاب أنّ قيمته ألف درهم فقط. يقول الشاب (1): «فأخذت العقد الجوهر وتوجّهت به إلى السوق وناولته للدّلال، فقام لي وأجلسني بجانبه وصبر حتى عَمُرَ السوق وأخذه الدّلال ونادى عليه خفية، وأنا لا أعلم. وإذا بالعقد الثمين بلغ ألفي دينار، فجاءني الدّلال وقال لي إنّ هذا العقد نحاس مصنوع بصنعة الإفرنج، وقد وصل ثمنه إلى ألف درهم (...) فرح واقبض الألف درهم».

إذا كان من المعروف أنّ «التمتع الفردي بالمال في الإسلام أمر مباح، شريطة أن يكون اكتسابه بكيفية شرعيّة» (2)، فإنّ كثيراً من تجار ألف ليلة وليلة جمعوا المال وتمتّعوا به وكسبوه بطرق ملتوية. وهاهو أحد التجار يصل إلى دمشق، ويبيع بضاعته «بأقصى ثمن» (3)، وذلك لحاجة الناس في دمشق إليها من جهة، ولأن تجّار دمشق قد احتكروا البضائع من جهة أخرى.

ويسخر رواة الليالي من تجار دمشق، ويصوّرونهم بصورة الشاذين جنسياً، والعبيد لشهواتهم الجنسية. فها هو مقدّم شاه بندر التجّار الشامي، يعشق علي

(1) ألف ليلة وليلة، 1/ 147.

(2) حسني، د. عبد الطيف: «ترشيد مالية الدولة السلطانية»، مجلة الاجتهاد. دار الاجتهاد، بيروت، السنة التاسعة، العددان 34/ 35، شتاء وربيع 1417هـ/ 1987م، ص 226.

(3) ألف ليلة وليلة. 4/ 433.

الزيبق المصري. يقول الرّاوي [(١)]: «ففرح المقدّم الشامي بعلي وعشقه إلى أن أقبل الليل فنزلوا وأكلوا وشربوا فجاء وقت النوم فحطّه على جنبه وجعل نفسه نائماً وكان المقدّم قريباً منه، فقام علي من مكانه وقعد على باب صيوان التاجر، فانقلب المقدّم وأراد أن يأخذ علياً في حضنه فلم يجده، فقال في نفسه لعلّه واعد واحداً فأخذه ولكن أنا أولى !! وفي غير هذه الليلة أحجزه».

لقد أُتخم التجّار في ألف ليلة وليلة بالمال والثراء والجنس وأجساد الجواري، ووجدوا أنّ ما يكسر رتابة الحياة الجنسية، هو التجديد الدائم، فاقتنوا الجواري ويدلّوهنّ، وأقاموا علاقات جنسيّة مع الغلمان الظرفاء، الوسيمين، فعلي الزيبق المصري الذي عشقه التاجر الشامي كان: «أمرداً مليحاً [كذا]» [(٢)].

ولم تكن دمشق في الليالي مركزاً تجارياً مزدهراً فحسب، بل كانت أيضاً مركزاً صناعياً، فها هو أحد اليهود يقول لملك الصين [(٣)]: «إني كنت في دمشق الشام وتعلّمت منه [كذا] صنعة فعملت فيها».

ومن ملامح دمشق في الليالي، أنّ بها رجال سلطة ظلمة ومستبدّين. يقول أحد الشخوص عن شرطة دمشق التي احتجزته بتهمة سرقته عقد جوهر، وهو بريء من هذه التهمة: «ما أدري إلاّ وصاحب القاعة جاءني ومعه بعض الظلمة وكبير السوق وأدّعى عليّ أني سرقت العقد، فخرجت لهم وقلت ما الخبر، فلم يهلوني بل كتّفوني ووضعوا في رقبتي جنزيراً، وقالوا لي إنّ العقد الذي كان معك هو لصاحب دمشق ووزيرها وحاكمها» [(٤)]. وعلى كل حال ليس رجال سلطة دمشق هم الظلمة الوحيدين بين رجالات مدن الليالي، فقراءة نصوص ألف ليلة

---

(١) م ن، ٤/ ١٤٤.
(٢) ألف ليلة وليلة، ٤/ ١٤٣.
(٣) م ن، ١/ ١٤٤.
(٤) م ن، ١/ ١٤٨.

وليلة ستضعنا أمام حكّام ظلمة كثيرين، في كل المدن العربيّة والأجنبيّة التي وردت في الليالي، سواء أكان هؤلاء الرجال مسلمين أم مسيحيين أم يهوداً، أم وثنيين، أم من الجان الذين يحكمون مدن الليالي الأسطورية. وفي إحدى حكايات دمشق: حكاية «**هشام بن عبد الملك مع غلام من الأعراب**»، يصورّ الراوي الخليفةَ الأموي هشام بن عبد الملك، بصورة المستبدّ، الذي يفرض الطاعة المطلقة على رعايا مدينته وباديتها، ومن يخرج عن حدود هذه الطاعة ولو بكلمة جريئة، أو رأي مغاير، فإنّ القتل مصيره، حتى ولو كان هذا الخارج قاصراً، لا تطبق عليه القوانين نظراً لصغر سنه، وتقول الحكاية: إنّه وبينما كان هشام بن عبد الملك يصطاد في البراري، إذ يشاهد ظبياً فيلحقه، فينفر منه، عندها يطلب من أحد الغلمان البدو، الذي كان يرعى أغنامه، أن يلحق بالظبي ويصطاده له: «فقال له هشام: يا غلام دونك هذا الظبي فأتني به فرفع الصبي رأسه إليه وقال: يا جاهلاً بقدر الأخيار، لقد نظرت إليّ بالاستصغار وكلّمتني بالاحتقار، فكلامك كلام جبار وفعلك فعل حمار. فقال هشام: ويلك أما تعرفني؟ فقال: قد عرّفني بك سوء أدبك، إذ بدأتني بكلامك دون سلامك» (١). وتتمّ المخاصمة بينهما، إذ يظنّ الغلام أنّه يقيمها من باب المساواة والعدل، وانطلاقاً من الآية الكريمة التي يذكرها الراوي:

﴿**يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها**﴾ (٢). لكنّ الخليفة هشام بن عبد الملك وبنزق السلطة وصلفها يرفض هذه المخاصمة، لأنّه يعدّها منقصة بمقامه العالي، ولا سيما أنّ طرفها الآخر غلام من البدو، ويطلب من حرّاسه أن يجلبوا هذا الغلام إلى قصره بدمشق، وفي القصر لم يكترث الصبي بأبّهة القصر، و«كثرة

---

(١) م ن، ٢/ ٤٠٤.

(٢) مع العلم أن راوي الحكاية أخطأ في نقل الآية الكريمة إذ أثبتها على الشكل الآتي: «يوم تأتي كل نفس تجادل نفسها». والآية هي من سورة النحل ورقمها ١١١.

- يُنظر: ألف ليلة وليلة، ٢/ ٤٠٥.

الحجّاب والوزراء وأرباب الدولة»[1]، ولم يستطع هشام أن يكون حليماً ويكظم غيظه، فقال[2]: «يا سيّاف عليّ برأس هذا الغلام، فإنه أكثر الكلام ولم يخش الملام. فأخذ السيّاف الغلام ونزل به إلى نطع الدّم، وسلّ سيفه على رأسه».

وليست صورة هذا الخليفة القاسي، سريع البطش في الليالي، المُحاط بالفرسان الكثر، الجبّار المحتقر لمن هم دونه سنّاً ومنزلة طبقية، الكلف بالصيد[3]، مغايرة كثيراً لملامحها الحقيقية كما صورّتها الأدبيات التاريخية. يقول المسعودي عنه[4]: «وكان هشام أحول خَشناً فظّاً غليظاً، يَجمع الأموال (...) ويستجيد الخيل، وأقام الحلْبَة فاجتمع له فيها من خيلة وخيل غيره، أربعة آلاف فرس، ولم يُعْرفْ ذلك في جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس (...) وفي أيامه عُمِل الخزّ والقُطُفُ الخزّ[5]، فسلك الناس جميعاً في أيامه مذهبَه، ومنعوا ما في أيديهم، فقلّ الإفضال، وانقطع الرِّفدُ، ولم يُرَ زمان أصعب من زمانه».

ويبقى موقف الرّواة في ألف ليلة وليلة من خلفاء الدولة الأمويّة في دمشق ليس واحداً، فإذا كان أحد الرّواة قد صورّ الخليفة هشام بن عبد الملك في صورة الأهوج السريع الغضب، فإن راوياً آخر صورّ الخليفة عمر بن عبد العزيز مثالاً للعدل في قومه وأهله، ومناوئاً حقيقياً للظلاّم من بني أميّة[6].

ومن مظاهر فساد أحد ملوك السلطة الأموية، عبثه بأموال الشعب، وإهدار هذه الأموال في شراء الجواري، فبدلاً من أن يكون خراج دمشق سبباً في تعمير

(١) م ن، ٣/ ٤٠٤.

(٢) م ن، ٢/ ٤٠٥.

(٣) لمزيد من الإطلاع تراجع الحكاية بأكملها في المجلد الثاني، ص ٤٠٤-٤٠٥.

(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٣/ ٢٢٨.

(٥) الخزّ: ما نُسِج من صوف وحرير أو من حرير فقط.

- المنجد في اللغة، مادة: خزّ، ص ١٧٧.

- والقُطُف: دثار مُخْمَل. مادة: قَطَفَ، ص ٦٤٢.

(٦) لمزيد من الإطلاع على ملامح هذا الخليفة، ينظر: ألف ليلة وليلة، ١/ ٣١٠، ٣١١، ٣١٢.

الدولة، وتحسين أوضاع المسلمين اقتصادياً وإنسانياً، فإنه يصبح إرضاء لنزوة الملوك، ورغبتهم المسعورة في شراء الجواري بهذا الخراج. فها هو الملك عمر النعمان يرحل عن دمشق ليصبح ملكاً على بغداد، وعندما يستقر ببغداد تُحضر له إحدى عجائز الروم خمس جوارٍ من أجمل نساء الروم، وتطلب ثمنهنّ كل خراج دمشق، فيرضى بذلك، ويرى أنّ هذا الخراج قليل في ثمنهنّ، ولأن خزينته في بغداد لم تكن كافية لتقديم ثمن الجواري، فقد أسرع وكتب إلى ولده الملك شركان حاكم دمشق أن يسرع بإرسال الخراج، ومما جاء في الرسالة:

«وقد أرسلت هذا الكتاب. فحال وصوله إليك ترسل إلينا الخراج (...) لأنه جاءنا من بلاد الروم عجوز من الصالحات وصحبتها خمس جوارٍ نهد أبكار، وقد حازوا من العلم والأدب وفنون الحكمة ما يجب على الإنسان معرفته. ويعجز عن وصف هذه العجوز ومن معها اللسان، فإنهنّ حُزن أنواع العلم والفضيلة والحكمة. فلما رأيتهنّ أحببتهنّ وقد اشتهيت أن يكنّ في قصري وملك يدي، لأنه لا يوجد لهنّ نظير عند سائر الملوك. فسألت المرأة العجوز عن ثمنهنّ، فقالت لا أبيعهنّ إلا بخراج دمشق وأنا والله أرى خراج دمشق قليلاً في ثمنهنّ. فإنّ الواحدة منهن تساوي أكثر من هذا المبلغ: فأجبتها إلى ذلك ودخلت بهنّ قصري وبقين في حوزتي، فعجل لنا بالخراج لأجل أن تسافر المرأة إلى بلادها»[1].

---

(١) ألف ليلة وليلة، ١/ ٣١٧

وتاريخياً وبعد أن فقدت دمشق مركزيتها السياسيّة، وتراجعت مركزيتها العلمية والدينية والاقتصادية، وأصبحت بغداد هي صاحبة هذه المركزية، فإنه فُرِضَ على دمشق أن تقدّم خراجاً سنوياً لكل خليفة من خلفاء بني العبّاس، فعلى سبيل المثال كان خراج دمشق أيام الخليفة المأمون بن هرون الرشيد «أربعمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار»(1).

إذا كان الملك عمر النعمان ليس سندّ تاريخي صحيح في تاريخ خلفاء بني أميّة في دمشق، فإنّه قد يكون الصورة الندية لبعض هؤلاء الخلفاء، ويبدو أنّه أضيفَ إلى هذه الصورة بعض من مكوّنات التخيّل الشعبيّ، الذي عاش أصحابه الحرمان الاقتصاديّ، وعجزوا عن امتلاك ولو منزلٍ بسيط، وعاشوا الحرمان الجنسيّ في زمن صارت النساء فيه تشترى من أسواق الرقيق كأيّة سلعة استهلاكية، وهم لا يملكون ثمن شرائها، وأُضيف- أيضاً- بعض من أخبار خلفاء بني أميّة التي بدت في حقيقتها، وكأنّها نسيج من الخيال أو الأسطورة.

وتثبت المصادر التاريخية أنّ خلفاء بني أميّة في دمشق كانوا ولعين بالجواري، وكانوا يطلبونهنّ من الولايات البعيدة، ويتخذونهنّ حظايا وسراري. ويروي محمد بن أحمد التجاني (ت ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩م)، نقلاً عن أبي الفرج الأصفهاني، أنّ الخليفة الأمويّ هشام بن عبد الملك كتب إلى عامله على إفريقية قائلاً(2): «أما بعد فإنّ أمير المؤمنين لما رأى ما كان يبعث به كتب إلى عامله على إفريقية قائلاً «أما بعد فإن أمير المؤمنين لما رأى ما كان يبعث به موسى بن نُصير إلى عبد الملك أراد مثله منك، وعندك من الجواري البربريات المالئات للأعين الآخذات للقلوب ما هو معوز لنا بالشام وما والاه، فتلطف في الانتقاء، وتوخّ أنيق الجمال، وعظم الأكفال، وسعة الصدور ولين الأجساد، ورقّة الأنامل (...) ونجالة الأعين،

---

(1) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ٢/ ٥٦٤.

(2) التيجاني، محمد بن أحمد: تحفة العروس ومتعة النفوس، تحقيق د. جليل العطيّة، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن/ ليماسول، الطبعة الأولى، حزيران/ يونيو، ١٩٩٢م، ص ١٧٦.

وسهولة الخدود، وصغر الأفواه، وحسن الثغور، وشطاط الأجسام، واعتدال القوام، ورخامة الكلام».

إذا كان بعض الرّواة يصوّرون بعض مظاهر فساد خلفاء بني أميّة في دمشق، فإنّ راوياً يرى أنّ في دمشق رجال خير يكرمون الفقراء الغرباء، ويدعونهم إلي منازلهم، فعلى المصري يسافر من مصر إلى بغداد، وينزل في دمشق، ويجد رجلاً كريماً يأويه، ويدرأ عنه وحشة الطريق والغربة. يقول الرّاوي [1]: «وسافر حتى دخل دمشق، فبينما هو ماش في شوارعها إذ رآه رجل من أهل الخير فأخذه إلى منزله فأقام عنده مدة».

وفي حكاية «تودّد الجارية»، تتكهن تودّد- التي تمثّل العلمي والمعرفيّ في بغداد- بأنّ مستقبل أهل الشام السياسيّ سيكون أسود، عندما يسألها المنجّم، فتقول له [2]: «الويل لأهل(...) الشام من جور السلطان»، وأنّهم معرّضون للفقر، إذ «تقلّ البركة من الزرع وتفسد الحبوب» [3]. ولا يستطيع المعرفيّ والفقهيّ في بغداد إلا أن يعمل على إرضاء الخليفة هرون الرشيد، فيذكر أمامه أنّ المصائب ستحلّ بأهل الشام، هذا إذا عرفنا أنّ الخليفة الرشيد كان مشحوناً- مثله مثل الخلفاء العبّاسيّين- بالبغضاء ضد عدوٍ سابق أرّقه، فرأى ضرورة التخلص منه، وهذا العدو هو النظام السياسيّ الأمويّ، فلقد أحسّ معاصرو الدولة الأمويّة من العبّاسيّين ومن الأقوام الأخرى التي تعيش في دمشق، ومن فقراء الأمويّين وبسطائهم، أنّه في بلاط هذه الدولة التي تحكمهم باسم الإسلام، صار الفساد والتمادي في طلب اللذائذ «جزءاً من حياة البلاط، برغم أنّ الإسلام يوصي بالاعتدال في كل شيء. والحقّ أنّ رؤية الخليفة [الأموي] يتباهى بأعماله الطائشة على مشهد من الناس

---

(١) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٢١٢.

(٢) م ن، ٢٦١/٣.

(٣) م ن، ٣/ ٢٦١.

ومسمع، آثار غيظ العنصر المتديّن في مجتمع كان أساس وجوده الرئيس هو الدين. بل إنّ المزاج الدنيوي الخالص الذي غلب على الأمويّين المتأخرين جعل سيل النقمة الأخير يبلغ الزّبى فانضاف إلى نهر الكراهية المندفع نحو دمشق» [1]. ولعلّ أوج اندفاع هذا النهر صبّ في نفوس العبّاسيّين، فأعدّوا العدّة للإطاحة بالدولة الأموية. وقد وعى فقهاء الدولة الأمويّة فساد دعوى النظام الأمويّ بدمشق، ويروى عن شقيق ابن سلَمة [2] أنّه قال: للأعمش المحدّث المشهور [3]: «يا سليمان والله ما عند هؤلاء [يقصد الخلفاء الأمويّين]- تقوى أهل الإسلام ولا أحلام أهل الجاهلية».

إنّ الرّاوي العبّاسيّ في حكاية **«تودّد الجارية»** يريد أن يقول -بشكل إيحائي، يمكن فهمه من قبل الخليفة الرشيد، ومن كل علماء بغداد، الذين اجتمعوا بحضرته أمام تودّد، باعتبارهم على درجة عالية من المعرفة- إنّ ما كرّسته السلطة الأمويّة من جور وتباين طبقيّ، واستئثار بأموال الشعب، ستظل آثاره باقية إلى مدّة بعيدة، وإنّ مظاهر الجور والفساد والقحط التي ستصيب أهل الشام، ولو بعد زمن طويل، سببها طبيعة الرؤية السياسيّة الاستبداديّة التي سنّها خلفاء بني أميّة في دمشق، إلاّ أنّ دعوى النظام السياسيّ العبّاسيّ في حقيقة الأمر، لم تكن أفضل من دعوى النظام الأمويّ، بل كرّس الخلفاء العبّاسيّون مفاهيم الاستعباد والظلم التي كرّسها خلفاء

---

(١) لاندو، روم: الإسلام والعرب، ص ٧١-٧٢.

(٢) عن / العلوي، هادي: في السياسية الإسلامية، دار صحارى، بودابست، الطبعة الثانية ١٩٩١، ص٦٦.

- وأخذ العلوي عن / الماوردي: نصيحة الملوك، مخطوطة باريس، ص ١٤.

(٣) الأعمش: (سليمان بن مهران الأسدي، ٦١-١٤٨هـ/ ٦٨١-٧٦٥م): أصله من بلاد الري، ومنشأه ووفاته في الكوفة. كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض، يروي نحو ١٣٠٠ حديث، قال الذهبي: كان رأساً في العلم النافع والعمل الصالح. وقال السخاوي: قيل: لم يُر السلاطين والملوك والأغنياء في مجلس أحقر منهم في مجلس الأعمش مع شدة حاجته وفقره.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، ٣/ ١٣٥.

بني أميّة، وابتعدوا في آن عن الجوهر العميق لقيم الإسلام وتعاليمه، فـ «مسلكهم لم يكن يدلّ على أنّهم كانوا أقلّ انغماساً في أحوال الدنيا من أهل لدولة التي قَضوا عليها. وكان العبّاسيّون أبعد ما يكون البعد عن جعل دولتهم إسلاميّة، ولكنهم استخدموا الدين حتى يَخْلعو على دولتهم تلك شيئاً من الشرعية ويَكْسِبوا لها شيئاً من الاحترام»[1].

وتشير حكاية «**بدور بنت محمد بن علي الجوهري مع جبير بن عمير الشيباني**»[2]، إلى أنّ الذي يروي الحكاية أمام الخليفة هرون الرشيد هو نديمه علي ابن منصور الخليج الدمشقيّ، ودلالة الخليع في أسماء العلم يمكن أن تشير إلى هؤلاء الذين ظلمتهم مدنهم، واستكُبوا فيها، وعاشوا غربة، فانخلعوا عنها، إمّا بالرضى وإمّا بالإكراه، ورحلوا إلى غيرها. وواضح أنّ عليّ بن منصور ينتسب إلى دمشق (الدمشقي)، ولا نستبعد أن تكون دمشق قد طلبت دمه في ظلّ النظام الأمويّ، فرحل إلى بغداد ولُقِّب بالخليع الدمشقيّ تمييزاً عن غيره من الرجال الخلعاء الذين خلعتهم مدنهم ونفتهم، وعندما يقول علي بن منصور الخليع الدمشقي[3] للخلفية هرون الرشيد: «يا أمير المؤمنين أعلم أنّ لي كل سنة رسماً على محمد بن سليمان الهاشمي سلطان البصرة»، فإنّ هذا الرسم يمكن أن يؤولّ في إحدى حالاته بالمساعدة المالية التي يقدّمها سلطان البصرة رأفة بعلي بن منصور، لأنه مخلوع عن دمشق، أو ما يمكن أن نطلق عليه في حالاتنا المعاصرة بالمرتّب الذي تعطيه الدولة المُضيفة للاجئين السياسيين، المقيمين على أراضيها.

وفي صورة أخرى تبدو دمشق فضاءً للأمان، إذ يتعاطف الراوي معها ضد بغداد التي تعمل سلطاتها على تهجير أبنائها المشكوك فيهم، فعندما يغضب هرون الرشيد على التاجر غانم بن أيوب- لأنّ هذا الأخير عشق إحدى حظاياه (قوت

---

(١) حتي، د. فيليب: الإسلام منهج حياة، ص ١٧٩.
(٢) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٥٨.
(٣) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٥٩.

القلوب)- فإنّه يهدر دمه، عندها يضطرّ غانم أن يحمل بعض تجارته وأمواله، ويفر إلى دمشق، إذ «حزم تجارة وذهب بها إلى دمشق»(١).

ومن ملامح دمشق في ألف ليلة وليلة، أنها مدينة تحتفي بشرب الخمرة، وهي في هذا تشبه معظم مدن ألف ليلة وليلة التي شهدت إباحيّة واحتفاءً بولائم الطعام والشراب الفاخرة، والجواري الجميلات. وقد أسهم ثراء دمشق عبر التاريخ في أن تكون مدينة متحرّرة من كثير من الضوابط الدينية والأخلاقية، فهي على سبيل المثال- في العهد الأموي- خزانة تصبّ فيها الأموال الكثيرة من الولايات الإسلامية التابعة لها. يقول سعيد بن العاص (٢) عامل بني أميّة على العراق: «ما السّواد إلا بستان قريش، ما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه».

وقد أسهمت هذه الأموال في زيادة مظاهر الترف واللهو، والملذّات في قصور دمشق. ويذكر عن معاوية بن أبي سفيان (٣) أنّه قال: «أمّا نحن فتمرّغنا فيها؛ [في الدنيا ونعيمها]. ثم كأنه ندم فقال: والله إنه لَمُلْك آتانا الله إيّاه». وطبيعي أن تنتشر الخمرة في دمشق عبر التاريخ طالما انتشرت فيها كل مظاهر الثراء والترف.

وتشير ألف ليلة وليلة إلى أنّ الخمرة كانت تُباع علناً في مطاعم دمشق (٤).

---

(١) م ن، ١/ ٢٣٥.

(٢) عن / زيدان، جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص ٢٧٢.

- ويروي ياقوت الحموي عن هشام بن أبي رقية اللخمي أن صاحب (إخنا) قدم على عمرو بن العاص. وقال له: «أخبرنا بما على أحدنا من الجزية فنصبر لها، فقال عمرو، وهو مشير إلى ركن كنيسة: لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك بما عليك، إنما أنتم خزانة لنا، إن كثّر علينا كثّرنا عليكم، وإن خفّف عنا خففنا عنكم».

- معجم البلدان، ١/ ١٢٤. وإخنا: مدينة مصرية قرب مدينة الإسكندرية.

(٣) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، (تاريخ الطبري)، ٥/ ٣٣٤.

(٤) لا تزال دمشق حتى الآن من أكثر العواصم العربية الإسلامية الغاصة بالخمور المحلية والأجنبية المستوردة، ولا تزال مطاعمها وحاناتها تقدم الخمور علناً، ولكل من يطلبها.

ففي حكاية «**الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين**»، يذكر الرّاوي أنّ عجيباً بن حسن بدر الدين بن نور الدين دخل أحد مطاعم دمشق، ثم شرب وسكر مع خادمه: «دخلنا وأكلنا (...) حتى شبعنا وسقانا الطبّاخ شراباً وقد سكرنا»[1]. وفي حكاية «**اليهودي لملك الصين**»، الداخلة ضمن حكاية «**الأحدب وملك الصين**»، يدعو أحد الأبطال البغداديين إحدى النساء الدمشقيات الجميلات إلى قاعته بدمشق، ويقدم لها الشراب: «وجئت بسفرة من أطيب المأكولات والفاكهة وأكلنا ولعبنا، وبعد اللعب شربنا حتى سكرنا»[2]، و«صرت (...) أملأ لها القدح وأشرب معها»[3].

وتنغمس معظم شخوص ألف ليلة وليلة، وباختلاف تموضعها، الطبقيّ، في تناول الخمرة، إذ لا يخلو منها قصر من قصور ألف ليلة وليلة، ولا منزل تاجر من تجّارها الأثرياء. ويرى الباحث ما يرجروس[4] «أنّ تناول الشراب يمكن أن يعكس حالة مزاجيّة تؤدّي إلى الرغبة الجامحة في نشدان حالة من النشوة». ولقد كان شخوص ألف ليلة وليلة ينشدون هذه الحال دائماً، من خلال مجالس طربهم وشرابهم، ولم تكن هذه الحال هي الغاية المطلقة من مجالس الشراب، بل كانت تخفي وراءها رغبة مسعورة لتحقيق نشوة أهمّ منها، وتُعدّ الغاية الأخيرة التي تُتَوَّج بها حفلات الشراب، وهي الوصول إلى اللذّة الجنسيّة، التي كانت تتحقق كثيراً بطريقة محرّمة وعربديّة.

وفي الحكاية السابقة: «**اليهودي لملك الصين**»، نلاحظ أنّ حفلة الشراب ستكشف عن ملمح من ملامح نساء دمشق في الليالي، وهو ملمح المرأة العاهرة

---

(١) ألف ليلة وليلة، ١/ ١١٩.

(٢) م ن، ١/ ١٤٦.

(٣) م ن، ١/ ١٤٧.

(٤) عن/ اسماعيل، د. عزت سيد: «الإدمان الكحولي -المشكلة المراوغة»، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الكويت، المجلد الثاني عشر، العدد الثالث، خريف ١٩٨٤م، ص ٥٣.

التي تخـرج وتقبل دعوة الرجال، وتسكر معهم، ثم تضاجعهم، غير هيّابة من المواضعات الأخلاقية، ولا من مركز والدها السياسيّ. فالمرأة التي تقبل دعوة الشاب الثري البغدادي هي ابنة صاحب دمشق كما يذكر راوي الحكاية، والتي لا ترى مانعاً من أن تسكر معه حتى الصباح، وتنام عنده: «وإذا بصبيّة أقبلت عليّ وهي لابسة أفخر الملابس (...) ثم نمت معها في أطيب ليلة إلى الصباح»[1].

ويبدو أنّ رواة الليالي الذين يقرنون صورة المرأة التي تدمن الخمرة بصورة المرأة المتهالكة على طلب الملذّات الجنسيّة[2]، قد تأثروا بالمرويات الأسطورية التي سادت في عصورهم، والتي تشيع عن المرأة المتهتكة جنسياً، بأنها تكون من النساء المدمنات خموراً، وبشكل عام، «في حين أنّ الأمر على عكس من ذلك إذ نجد أنّ المرأة المدمنة كحولياً تشكو عادة من نقص الدافع الجنسيّ ونقص في الاهتمامات الجنسيّة على عكس ما كان شائعاً من قبل»[3]. ولا تكتفي هذه المرأة «ابنة صاحب دمشق» بأن تقدّم نفسها لهذا الشاب البغدادي الثري، بل تغريه بصبيّة أخرى أجمل منها: «ثم قالت لي: يا سيدي هل أنا مليحة؟ فقلت أي والله فقالت هل تأذن لي أن أجيء معي بصبية أحسن مني وأصغر حتى تلعب معنا ونضحك وإياها، فإنّها سألتني أن تخرج معي وتبيت معنا»[4] وفي الليلة التالية تُحضر معها الصبية الأجمل منها- ونكتشف مع سياق السرد أنّ هذه الصبية هي أختها- ثم يقيمون مجلس الشراب، فيبدي الشاب إعجابه بالصبيّة الجديدة، فتغار الكبيرة، لكنّها تخفي

---

(١) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٤٦.

(٢) تتجلى هذه الصورة بشكل واضح في حكاية «وردان الجزار»، وحكاية «داء غلبة الشهوة في النساء»، إذ تتهالك المرأتان في الحكايتين على إشباع نزواتهما الجنسية بشكل بهيمي، بعد أن تتناولا كميات كبيرة من الخمرة.

- ألف ليلة وليلة، ٣/ ٨٤، ٨٦.

(٣) اسماعيل، د. عزت سيد: «الإدمان الكحولي -المشكلة المراوغة»، ص ٤٨-٤٩

(٤) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٤٦-١٤٧.

غيرتها، وتطلب منه أن ينام مع أختها. ويتوالى السرد، ويستيقظ الشاب، ويجد الأخت الصغرى مضمّخة بدمائها، بعد أن ذبحتها أختها الكبرى[1].

ولا يخفى على القارئ مدى النسيج التخيّلي للقاص الشعبيّ، االذي أوصل بطله التاجر إلى أهم نساء دمشق وأجملها «ابنتيّ صاحب دمشق»، ومن ثمّ دفعه لأن ينام مع الفتاتين، ودفع الأخت الكبرى لأن تقتل أختها الصغرى. ونستغرب لماذا ضحّى الرّاوي بالبنت الجميلة الصغرى؟ ولماذا جعل الكبرى تغار من أختها الصغرى، طالما أنّها رضيت أن تكون غريمة لها، وشريكة في آن. أيريد الراوي أن يقول إنّ مظاهر الترف والثراء في حياة سلطات ألف ليلة وليلة هي السبب في تعهير نساء هذه السلطات؟ أم أنّه ينقم على سلطات هذه المدن، من خلال تقديمه لنسائهنّ في صور إجرامية داعرة؟ أم أنّ تصويره لمظاهر الفساد عند نساء السلطة هو جزء من تركيبة عقلية موروثة، ولا ترى في المرأة إلاّ الشرّ والمكر؟ أم يريد أن يقول إنّ المدن العربيّة الإسلاميّة، في أوج ثرائها المالي والحضاريّ، هي مدن آيلة إلى السقوط بفعل هذا الثراء؟. أم يريد القول إنّ هذه المدن امتلأت بالإباحية الجنسيّة، وارتكبت كل أشكال المحرّمات، بفعل ظروف سياسيّة واقتصادية أسهمت في التحريض على انتشار هذه المحرمات؟ أم أنّ هذا الراوي الشعبيّ يعاني من اضطهاد طبقيّ حاد يحرّم عليه النظر أو الاقتراب من نساء السلطة، فما كان منه إلاّ أن اخترق هذا الحاجز بينه وبين هاته النساء، فجعل بطله يصل إليهنّ جنسيّاً؟.

ليست هناك إجابات نهائيّة لمثل هذه الأسئلة. إلا أنّه يمكن القول إنّ ألف ليلة وليلة نسيج اجتماعي وثقافي ومعرفيّ، وسياسيّ واقتصاديّ، داخل شبكة من العلاقات المدينيّة، التي نمت وسادت داخل المدينة العربيّة الإسلاميّة وغير الإسلاميّة، من خلال رحلتها الحضاريّة في التاريخ الإنسانيّ، على أنّ هذا النسيج، ليس واقعياً صرفاً، ولا أسطورة، لا يمكن أن تتحقق، بل هو جامع لكل أطراف

(١) م ن، ١/ ١٤٧.

هذه المتناقضات. إلا أنّ الراوي يُرجع عهر ابنتي صاحب دمشق في نهاية الحكاية، إلى فضاء مدينة أخرى، وهي القاهرة، التي كانت السبب في تعهير هاتين الفتاتين. يقول والد الفتاتين[1] صاحب دمشق، لعشيقهما، بعد أن يكتشف حقيقة ابنتيه مع هذا العشيق: «اعلم يا ولدي أنّ الصبيّة [الكبرى] بنتي وكنت أحجر عليها، فلما بلغت ابنتيه مع هذا العشيق: «اعلم يا ولدي أن الصبيّة [الكبرى] بنتي وكنت أحجر عليها، فما بلغت أرسلتها إلى ابن عمّها بمصر فجاءتني وقد تعلّمت العهر من أولاد مصر»[2].

ولم تكن دمشق هي المدينة الوحيدة -في الليالي- التي انتشرت فيها النساء الزواني اللواتي يطاردن الرجال، بل لقد امتلأت مدن الليالي جميعها بمثل هاته النسوة. ويبدو أنّ الأقوام والشعوب الكثيرة التي مرّت على دمشق، أسهمت في تحرّر هذه المدينة، وانتشار مظاهر الفساد فيها. فهذه المدينة ورثت قصور الحضارتين اليونانية والرومانيّة وعاداتهما[3]. وقد استمرّت الجنسيّات العربيّة والأجنبيّة الأخرى بالتدفق إليها، عبر تاريخها الطويل، وشهدت هذه المدينة تنوّعاً سكانياً متعدد العناصر، يضم «عناصر عربيّة، وأخرى تركيّة وكرديّة وأرمنيّة، وبيزنطيّة وسوريانيّة»[4]. وهذا التنوّع السكاني كان «بمثابة تعبير عن تاريخ هذه المنطقة

---

(١) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٤٩.

(٢) وتستمر الحكاية ليتعاطف الراوي مع صاحب دمشق، ويصوره بصورة العاقل الحكيم، الذي يعفو عن الشاب العاشق، والذي يعتبر أن ابنته الكبرى هي السبب في اقتياد أختها الصغرى، وهذا الشاب العاشق الغريب إلى فعل الخطيئة والقتل ويقترح عليه أن يقيم في دمشق، ليزوجه بابنته الأخرى الصغرى التي لم تتعلم العهر بعد.

- لمزيد من الإطلاع ينظر: م ن، ١/ ١٤٩.

(٣) ضيف، د. شوقي: العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٧٦م، ص٩٤

(٤) قاسم، د. قاسم عبده: «بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية»، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد الثاني والعشرون، العدد الثاني، اكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، ١٩٩٣م، ص ٣٦٤.

المتعدة في أغوار الزمن، كما كان في الوقت نفسه سبباً في سيولة التركيبة الاجتماعيّة»[1]. ويبدو أنّ الغزوات الكثيرة التي تعرّضت لها دمشق في تاريخها، كان لها الدور الأكبر[2] في تفشّي الكثير من الأمراض الاجتماعيّة بين طبقات مجتمع مدينة دمشق.

وإذا كان راوي الحكاية السابقة قد رأى أنّ ابنة صاحب دمشق (الكبرى) تعلّمت العهر من أولاد مصر، فإنّ هذه الرؤية ليست دقيقة، لأن العهر في مدن الليالي لم يكن مقصوراً على مصر وحدها، بل كان ظاهرة عامة في مدن الليالي جميعها، ومتأصلة بقوة في البنيان الاجتماعي لهذه المدن، وبخاصّة في بنية السلطة، فنساء السلطة وبناتها وجواريها، ونساء التجّار الكبار في الليالي، عرفن مختلف أنواع الشذوذ والإباحيّة، والخيانة الجنسيّة لأزواجهنّ، وقد انتشر الفساد والتهتّك ومعاقرة الخمرة بين نساء دمشق وبغداد والقاهرة والإسكندرية، والمدن الأسطورية والتخيّليّة التي تخيّلها الرّواة، ووصفوا علاقاتها الإنسانية والاجتماعية.

وتثبت المصادر التاريخية أنّ دمشق لم تستطع أن تتخلّص من هذه الآفة الاجتماعية (الفساد والعهر بين الرجال والنساء) مع انتهاء الحروب الصليبية، بل ظلّت آثار هذه الحروب متفشيّة في دمشق، وزادت مظاهر العهر في أسواق دمشق

---

(١) م ن، ص٣٩٥.

(٢) وعلى سبيل المثال فرزت الحروب الصليبية في بلاد الشام أمراضاً اجتماعية، وبطبيعة الحال أصاب هذا الفرز التركيبة الاجتماعية لمدينة دمشق، ففي بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، «كانت الدعارة من أكثر المهن رواجاً وتنظيماً، وكانت الدولة تتقاضى عن هذا النشاط ضرائب محددة في عصر سلاطين المماليك؛ فقد كانت هناك «ضامنة المغابن» التي تعتبر بمثابة نقيب مسؤول عن نشاط المطربات (...) وبنات الليل، وعليها أن تؤدي للدولة مبلغاً معيناً تتولى جبايته من الخاضعات لإشرافها، كذلك انتشر الشذوذ الجنسي في ذلك العصر بدرجة كبيرة وخطيرة».

- ينظر: قاسم، د. قاسم عبده: أثر الحروب الصليبية في العالم العربي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة/ تونس، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، ص ٤٦.

مع دخول الغزاة الآتراك لهذه المدينة، واغتصابهم لها. وينقل الشيخ أحمد البديري الحلاق بعض مظاهر فساد النساء التي شاهدها في دمشق في سنة ١١٦١ هـ/ ١٧٤٨م- إبان الاحتلال التركي لدمشق- قائلاً[1]:

«وفي تلك الأيام ازداد الفساد وظُلِمت العباد وكثرت بنات الهوى في الأسواق في الليل والنهار. ومما اتفق في حكم أسعد باشا في هذه الأيام أنّ واحدة من بنات الهوى عشقت غلاماً من الأتراك، فمرض، فنذرت على نفسها إن عوفي من مرضه لتقرآن له مولداً عند الشيخ أرسلان. وبعد أيام عوفي من مرضه فجمعت شلكّات البلد وهنّ المومسات، ومشين في أسواق الشام، وهنّ حاملات الشموع والقناديل والمباخر، وهنّ يغنين ويصفّقن بالكفوف ويدققن بالدفوف، والناس وقوف صفوف تتفرّج عليهن، وهنّ مكشوفات الوجوه سادلات الشعور، وما ثمّ ناكر لهذا المنكر، والصالحون يرفعون أصواتهم ويقولون: الله أكبر».

وما كانت سلطات مدينة دمشق وغيرها من سلطات مدن الليالي، قادرة على أن تمنع النساء من ممارسة العهر، سواء في السرّ أمّ في العلن، لأن سلطات هذه المدن نفسها كانت غارقة في اللهو والفساد، وارتكاب المعاصي.

ومن ملامح دمشق في الليالي أنها مدينة تفرح بأفراح ملوكها، وتستسلم لهم استسلاماً مطلقاً: «وسمع أهل دمشق بما رزق الله الملك من الأولاد فزيّنوا المدينة

---

(١) الحلاق، أحمد البديري: حوادث دمشق اليومية (١١٥٤-١١٧٥هـ/ ١٧٤١-١٧٦٢م)، تحقيق د. أحمد عزت عبد الكريم، دار سعد الدين، دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ١٧١.

وأظهروا الفرح والسرور»(١). ودمشق في هذا لا تختلف عن مدن ألف ليلة وليلة جميعها، المُجْبَرة على أن تفرح لفرح ملوكها، وتبكي لبكائهم، وتعربد لعربداتهم. وإذا كان ابن حوقل(٢) قد رأى أن سكان دمشق دمشق غليظو الطباع، وميّالون إلى التمرد على وجه الخصوص، فإنهم في ألف ليلة وليلة دمى بيد حكامهم، وأذلاء مهانون أمام هؤلاء الحكّام(٣)، ولم يكونوا وحدهم الأذلاء أمام هؤلاء الحكّام، بل إنّ العمال المرموقين لهؤلاء الحكّام هم أذلاء أيضاً(٤).

ودمشق في ألف ليلة وليلة هي المدينة المعرفيّة التي تحتفي بالتاريخ والقصص والمأثورات الشعبيّة(٥)، فالملك محمد بن سبائك ملك خراسان مولع بالقصص والحكايات، وسير المتقدمين، ومؤرّخ لها (٦)- باعتبارها تراثاً جمعيّاً لخلاصة التجربة الإنسانية- وقد أراد هذا الملك ذات ليلة أن يستمع إلى «حكاية مليحة وحديث غريب، لم يكن سمع مثله قط»(٧)، فاستدعى أشهر تجّار مملكته، وطلب منه أن يقصّ عليه حكاية غريبة فما كان من هذا التاجر إلا أن أرسل مماليكه إلى

---

(١) ألف ليلة وليلة ١/ ٢٤٥.

(٢) عن/ ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص٤٥٧-٤٨٥.

(٣) لمزيد من الإطلاع تراجع حكاية «عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»، ١/ ٢٤٢-٢٤٣.

(٤) كما تشير إليه حكاية «الحجاج بن يوسف الثقفي مع هند بنت النعمان»، إذ يهين الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان واليه الحجاج بن يوسف الثقفي، ويجبره على أن يمشي حافياً من معرة النعمان إلى مدينة دمشق، كرامة لطليقته الجميلة هند بنت النعمان.

- ألف ليلة وليلة، ٤/ ٩٣. وسأشير إلى هذه الحكاية في الفصل الرابع من هذه الدراسة.

(٥) وتعتبر دمشق من المدن التي شكلت حقلاً مرجعياً ثقافياً لبعض حكايات ألف ليلة وليلة، فقد ساهم في خلق مجموعة حكايات ألف ليلة وليلة كل من الهند وبلاد الفرس وأرض الجزيرة وسوريا ومصر وبلاد الأتراك».

- ينظر: ديرلاين، فردريش فون: الحكاية الخرافية، ص٢١٥.

(٦) ألف ليلة وليلة، ٤/ ١٧٨.

(٧) ألف ليلة وليلة، ٤/ ١٦٩.

أصقاع الأرض ليجلبوا هذه الحكاية، لكنّهم لم يجدوها، إلا أن مملوكاً كان قد اتجه إلى مدينة دمشق، التي سمع عن حكاياتها الغريبة. وفي دمشق يقول له أحد شبانها إنه مسرع لكي لا يفوته سماع الحكايات العجيبة التي يرويها شيخ دمشقيّ: «فقال له هنا شيخ فاضل يجلس كل يوم على كرسي في مثل هذا الوقت ويحكي حكايات وأخباراً وأسماراً ملاحاً لم يسمع أحد بمثلها، وأنا أجري حتى أجد لي موضعاً قريباً منه وأخاف أني لا أحصل لي موضعاً من كثرة الخلق، فقال له المملوك خذني معك»(١). وعند هذا الشيخ يجد هذا المملوك ضالّته المنشودة، وهي حكاية **«سيف الملوك وبديعة الجمال»**، فيدونّها ويعود بها إلى خراسان (٢).

إنّ لدمشق في التاريخ جاذبية خاصة بالنسبة لرجال العلم والمعرفة الذين كانوا يهاجرون إليها، ومع أنّ بغداد ظلّت مركزاً للعلم، إلا أن دمشق كانت قد سبقتها(٣). وطبيعي أن يسود في الجو المعرفيّ والثقافي الذي شهدته دمشق قصص وحكايات غريبة، نشأت في هذا الجو، أو حملها رجال العلم الذين أحبّوا دمشق وهاجروا إليها، كتلك التي يطلبها الملك الخراساني محمد بن سبائك، أو غيرها من القصص الأخرى.

وتبدو دمشق في موضع آخر ولاية مهمّة من ولايات الدولة الإسلاميّة، فعندما يطلب الملك ضوء المكان في حكاية **«الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»**، من الوقّاد- الذي أكرمه حين مرضه، وحمله من القدس إلى دمشق- أن يتمنّى أمنية عظيمة ليحققها له، اعترافاً بجميله نحوه، فإنّ الوقّاد يجيب: «أتمنّى سلطنة دمشق» (٤).

---

(١) م ن، ٤/ ١٨١.

(٢) م ن، ٤/ ١٨٣.

(٣) زيادة، د. نقولا: «الحياة العلمية في بلاد الشام في أيام المماليك»، ص ٥٤.

(٤) ألف ليلة وليلة، ٢/ ٧٩.

ودمشق في موضع آخر محطّة يرتاح فيها التجّار المسافرون. يقول الرّاوي في حكاية «**علاء الدين أبي الشامات**»: «ولم يزالوا مسافرين في البراري والقفار حتى أشرفوا على الشام»(١).

وثمّة إشارات في حكاية «**الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين**»، إلى أحياء حقيقية من أحياء دمشق، إذ يذكر راوي الحكاية أنّ الوزير شمس الدين عندما وصل إلى دمشق، قادماً إليها من مصر، نزل «في ميدان الحصباء ونصب خيامه»(٢). مع ملاحظة أنّ ميدان الحصباء الذي ذكره الرّاوي يمكن أن يكون هو الميدان الذي يطلق عليه سكان دمشق اليوم اسم «ميدان البحصة». ويذكر الراوي نفسه أنّ هذا الوزير قَدِم مرة أخرى دمشق، «فنزل في القابون وضرب الخيام»(٣). هذا ولا يزال «حي القابون» الذي ضرب الوزير خيامه به، معروفاً حتى الآن في دمشق، وبالاسم نفسه.

إذا كان كثير من المؤرخين القدماء يرون أن دمشق هي إرَم ذات العماد(٤) التي ورد ذكرها في القرآن الكريم: ﴿**ألم ترَ كيف فعلَ ربُّك بعادٍ﴾ إرمَ ذاتِ العمادِ﴾ التي لمْ يخلق مثلها في البلاد**﴾(٥)، فإنّ رواة ألف ليلة وليلة ينفون هذا الرأي، إذ تبدو إرم ذات العماد- كما يصفونها- مدينة تخيّليّة من نسيج الخيال، ومشكّلة تشكيلاً سحرياً غرائبياً، إنها «مدينة مبنيّة بالذهب والفضّة عمدانها من الزبرجد والياقوت، وحصباؤها من اللؤلؤ وبنادق المسك والعنبر والزعفران»(٦). وقد بناها شدّاد بن عاد

---

(١) م ن، ٢/ ٣٧٥.
(٢) ألف ليلة وليلة، ١/ ١١٤.
(٣) م ن، ١/ ١١٧.
(٤) الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ١/ ١٥٥.
(٥) سورة الفجر، آية: ٦، ٧، ٨.
(٦) ألف ليلة وليلة، ٢/ ٤١٢.

الأكبر، بعد أن أرسل إليه ملوك الأقطار الذين كانوا خاضعين له، كل ما احتاجه المعماريون من أحجار نفسية لبنائها[١].

إنّ هذه المدينة التخيّليّة- إرم ذات العماد- تبدو حلماً للرّواة الفقراء الذين يعيشون في أحياء شعبيّة وضيعة، والطامحين إلى العيش في مدن نظيفة وجميلة، ومن دائرة أحلامهم وتخيّلاتهم لتجاوز ظروف الحياة القاسية في مدنهم شكّلوا هذه المدينة. وقد يكون لهذه المدينة القديمة فضاء جغرافي حقيقيّ، وربما تكون قد تشكّلت في أزمنة تاريخية حقيقية، لكنّها في الليالي ليست إلا وهماً وحلماً، وفضاء تخيّلياً، تطمح الذات الفردية المستلبة إلى اللوذ به، بعيداً عن فضاءات مدنها الشعبية الفقيرة المحرومة من جميع ملذّات الحياة، سواء أكانت هذه الفضاءات في القاهرة وبغداد ودمشق، أم في جميع مدن الليالي الأخرى.

---

(٧) م ن، ٢/٤١٣.

٣- مدن أخرى في ألف ليلة وليلة

لقد ركّز رواة ألف ليلة وليلة على القاهرة ودمشق باعتبارها أهمّ مدينتين في مصر وبلاد الشّام، إلا أنّهم ذكروا مدناً ثانويّة أخرى كثيرة [١]، لا تشكّل تحفيزاً مهماً في حركة السرد، ولا تسهم في تنامي الحكاية وتعقّد أحداثها، وصولاً إلى فكّ حبكتها، لأنّ هذه المدن ليست إلا محطّات سريعة يرتحل إليها السرد، ثم سرعان ما يغادرها إلى المدن الرئيسة التي تبدو فضاءات مهمّة تتشكّل فيها الحكاية، ثم تتشعّب.

لقد كانت مدينة الإسكندرية في ألف ليلة وليلة ثاني مدن مصر المحروسة بعد القاهرة، وكانت حلب ثاني مدن بلاد الشّام بعد دمشق، إلا أنّ حلب لا تبدو مهمّة كمدينة الإسكندرية، لأنّها لا تتعدّى أن تكون محطّة استراحة للأبطال القادمين إلى دمشق من بغداد أو القاهرة، فها هو الوزير نور الدين يغادر القاهرة، وعندما يصل إلى حلب مروراً بالقدس، يجعل من حلب محطّة استراحة له. يقول الرّاوي[٢]: «وصل إلى مدينة حلب، فنزل في بعض الخانات وأقام ثلاثة أيّام حتّى استراح». وفي حكاية «**علاء الدّين أبي الشّامات**»، تبدو حلب -أيضاً- محطّة للرّحلات التجارية القادمة من القاهرة: «ثم سافروا [أي التجّار] إلى أن دخلوا حلب»[٣].

---

(١) ومن المدن الثانوية التي ذكرها الرّواة في ألف ليلة وليلة: صنعاء في بلاد اليمن، وجدّة ومكّة في شبه الجزيرة العربية، وفاس ومكناس في المغرب، والقدس وعكا وغزّة وعسقلان في فلسطين، وحماة وحمص في سورية، وغيرها من المدن الأخرى.

(٢) ألف ليلة وليلة، ١/ ٩٦.

(٣) م ن، ٢/ ٣٥٧.

وتشـيـر المراجع التـاريخيـة إلى أنّ حلب عبـر تاريخـها امـتلأت بالخانات التجاريّــة التي كـان ينزل بها التجّار، وهذه الخانـات قـد تمتّعـت بـأبعـاد مذهلة، وكانت تقع في الوسط التجاري في أطراف المنطقة المركزيّة بحلب[1]. وها هي قافلة تجاريّة- من قوافل ألف ليلة- فيها شاب بـغدادي مع أعمامـه، تسـافر من الموصل إلى دمشق، وفي الطريق تتّخذ حلب محطّـة للاستراحة: «وما زلنـا مسافرين حتى وصلنـا إلى حلب، فأقمنا بها أيّاماً ثمّ سـافـرنـا إلى أن وصلنـا إلى دمشق»[2].

لقـد كـانت حلب محطّة في طريق السفر ضـرورية للوصول إلى دمشق أو بغداد. فالمسافر البغدادي إلى دمشق يجب أن يمرّ بحلب، والمسافر الدمشقيّ إلى بغداد يجب أن يمرّ بحلب أيضـاً، والمصـريّون المسافرون إلى دمشق أو بـغداد يجب عليهم أن يمرّوا بحلب. وها هو أحـد السّقائين المصـريين يريد السفـر إلى بغـداد، باعتبارها مركزاً قادراً على منح الغرباء الدّاخلين إليه فرص عمل كثيرة، وفي طريقه إلى بغــداد يمرّ بحلب: «حـتى وصلت إلى حلب، وتوجّـهت من حلب إلى بغداد»[3]. وعلى الزّيبق المصري -أيضاً- يسافر من مصر قاصداً بغداد مع مجموعة من التجّار المصريّين والشاميّين، فتمرّ القافلة بحلب[4].

وتاريخياً كانت حلب «محطة هـامّة للتجارة بين الهند والبندقية (فينيسيا) بإيطاليا وحافظت على ذلك فترات طويلة بسبب مهارة أهل حلب التجاريّة (...)

---

(1) ريمون، أندريه: العواصم العربية- عمارتها وعمراتها في الفترة العثمانية، تعريب قاسم طوير، دار المجد، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، ص٤٧.

(2) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٤٥.

(3) م ن، ٤/ ١٤١.

(4) م ن، ١/ ١٤٤.

وبسبب التقاء عدّة طرق تجاريّة عند حلب من أهمّها الطريق التي كانت تعرف بطريق الهند التي تنطلق من حلب إلى بغداد فالبصرة فعبدان فهرمز ثم الهند»[١].

أمّا مدينة الإسكندرية، فهي المدينة الجميلة من مدن مصر التي تحتفي بها الليالي، وهي لا تقلّ جمالاً عن القاهرة، من حيث الرفاهية ولذّة العيش فيها، يقول أحمد الدنف[٢] لعلاء الدين أبي الشّامات: «أنا أوصلك إلى الإسكندرية فإنها مباركة وعتبتها خضراء وعيشتها هنيّة». وهي مدينة مزدهرة تجارياً ومالياً، وفيها سوق للصيّارفة[٣]، إلا أنها مدينة مليئة بالشطّار واللصوص الذين يستحيل القبض عليهم إذا ما هربوا في أزقّتها، التي تتصل بعضها ببعض، هؤلاء اللصوص الذين يتمتّعون بقدرات عالية في النصب والاحتيال، تجعلهم قادرين على سرقة رأس النظام في المدينة، وهو الوالي نفسه، فها هو أحد اللصوص يسرق كيساً من الذهب من والي الإسكندرية: «ومدّ يده وأخذ الكيس من بين أيادي الوالي والجندي وتأخّر إلى خلف الوالي والجندي (...) وإذا به قد جرى ورمى نفسه في بركة، فصاح الوالي على حاشيته وقال: الحقوه وانزلوا خلفه، فما نزعوا ثيابهم ونزلوا في الدرج حتى كان الشاطر مضى إلى حال سبيله، وفتّشوا عليه فلم يجدوه، وذلك أنّ أزقة الإسكندريّة تنفذ إلى بعضها. ورجع الناس ولم يحصّلوا الشّاطر»[٤].

---

(١) القيّم، علي: «تغطية محاضرة: د. شوقي شعث: حلب وتجارة الحرير، ضمن محاضرات الندوة الدولي\: حلب وطريق الحرير» في: مجلة التراث العربي، العدد الثامن والخمسون، شعبان ١٤١٥هـ/ كانون الثاني (يناير ١٩٩٥، ص١٥٩.

(٢) ألف ليلة وليلة، ٢/ ٣٨٤.

(٣) م ن، ٣/ ١١٣

(٤) ألف ليلة وليلة، ٣/ ١١٤.

– ويشير قبطان إلى إحدى السفن القادمة من مدينة جنوى إلى لصوص الإسكندرية في حكاية «علاء االدين أبي الشامات»، قائلاً لعلاء الدين: «والإسكندرية فيها لصوص فأنت تروح معي إلي مركبي وأعطي لك الثمن».

– م ن، ٢/ ٣٩١.

وتشير حكاية «**علاء الدين أبي الشامات**»، إلى أعمال القرصنة التي كانت تتعرّض لها السفن المصريّة- الخارجة من مرفأ الإسكندريّة والداخلة إليه- من قبل السفن الأجنبيّة. فها هي إحدى السفن الإيطاليّة، بعد أن تبحر من ميناء الإسكندرية إلى ميناء جنوى، تصادف سفينة مصريّة، فتهجم عليها، وتنهب وتأسر رجالها المسلمين. يقول الراوي[1]: «فبينما هما في الكلام، وإذا بمركب فيها أربعون من تجّار المسلمين، فطلع القبطان [الإيطالي] بمركبه عليهم ووضع الكلاليب في مراكبهم، ونزل هو ورجاله فنهبوها وأخذوها وساروا بها إلى مدينة جنوى».

ويبدو أنّ البحار عبر تاريخ الملاحة البحريّة، كانت مليئة بالقراصنة الأوربيين والعرب، فقد «كانت القرصنة نوعاً من «الخوّة» يفرضها القوي على الضعيف كالخوّة التي كانت تفرضها القبائل العربيّة على القوافل التجاريّة التي كانت تنتقل بين الخليج ومدن سوريا الشماليّة أو بين البحر الأحمر وبلاد مصر. أو نوعاً من «الجزية» يدفعها الضعيف للقوي»[2]. وظلّت هذه القرصنة سائدة في البحار حتى أواخر القرن السابع عشر، فقد اتّخذ القراصنة الأوربيون قاعدة من مدغشقر، واعتدوا على سفن تجاريّة عربية في البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي[3].

وأكتفي في هذا الفصل بالحديث عن هذه المدن التي مرّ ذكرها، دون بقيّة المدن الأخرى. وإذا كنت قد خصّصت للقاهرة ودمشق صفحات عديدة، فلأن لهاتين المدينتين الصدارة بين مصر وبلاد الشام التي عرّج عليها رواة ألف ليلة وليلة، وصوّروا بعض مظاهر الحياة فيها. فهاتان المدينتان لا يضاهيهما من بين مدن ألف

---

(١) م ن، ٢/ ٣٩٢.
(٢) الخوري، د. فؤاد: القبيلة والدولة في البحرين، ص ٣٥.
(٣) م ن، ص ٣٦.

ليلة وليلة العربيّة والإسلاميّة إلا بغداد والبصرة، باعتبار الأولى مدينة مركزيّة سياسيّة ومنارة للثقافة والعلوم والحضارة أيام الدولة العبّاسية، وباعتبار الثانية درّة موانئ ألف ليلة وليلة، ومفتاح الدولة العبّاسية صوب حضارات العالم ومدنه المزدهرة وتجارته.

وفي نهاية هذا الفصل أثبت جميع مدن ألف ليلة وليلة الواقعيّة وبلدانها التي ورد ذكرها[١]، تسهيلاً لمن يريد البحث في مواضيع تخصّ المدينة العربية وغير العربيّة، كما صوّرتها حكايات ألف ليلة وليلة بعلاقاتها الاجتماعيّة والسياسيّة والتجاريّة، وفضاءاتها المكانية، من مرافق عامّة وأسواق تجاريّة، وقصور وحمّامات وخانات، وغير ذلك.

---

(١) في طبعة مكتبة دار الحياة تحديداً. وأثبت هذه المدن والبلدان متسلسلة كما وردت في الطبعة، ومن هنا فليس من الضروري أن تأتي مدن بلاد الشام أو مدن مصر متسلسلة، بل قد تأتي مدينة أجنبية وبعدها عربية، أو مدينة من بلاد الشام، وبعدها مدينة مصر. أي كما وردت تماماً في مواضعها.

اسم المدينة	رقم الصفحة في المجلد الأول	في المجلد الثاني	في المجلد الثالث	في المجلد الرابع
سمرقند	13	—	—	—
بلاد الفرس	27/دون تحديد اسم المدينة	444	—	—
بغداد	46 — 150 — 168 — 217 — 222 — 293 — 317 — 352 — 407.	81 — 83 — 89 — 90 — 94 — 95 — 98 — 99 — 100 — 101 — 105 — 106 — 109 — 119 — 129 — 213 — 215 — 354 — 356 — 360 — 399 — 416 — 425 — 442 — 443.	71 — 125 — 128 — 160 — 180 — 196 — 213 — 229 — 363 — 396 — 415.	—
طبرية	50	—	—	—
جزيرة الأبنوس في الهند	62	—	—	—
البصرة	77 — 96 — 102 — 114 — 115 — 183.	160 — 197 — 205 — 443.	5 — 8 — 14 — 29 — 400 — 415.	6 — 12 — 97 — 107 — 245 — 425 — 436 — 437 — 440.
مصر	64 — 128 — 145.	128 — 355 — 357.	82 — 86 — 114 — 208 — 261 — 263 — 267.	78 — 188 — 184.
القليوبية	95	—	—	—
بلبيس	95	—	—	—
القدس	95 — 248.	79	141	—
حلب	96 — 145.	357	—	141 — 144.
دمشق/الشام	108 — 114 — 117 — 144 — 145 — 242 — 245.	118 — 128 — 129 — 328 — 354 — 357.	213 — 261.	24 — 143 — 433.
حمص	115	—	—	—
ماردين	115	—	—	—

بلاد الصين	124 — 242.	225 — 444.	—	14 — 178 — 201.
الموصل	145	—	—	—
الهند	242	97 — 119.	356 — 364.	24 — 39 — 48 — 178 — 209 — 379.
السند	242	159 (سندة)	—	39 — 178 — 379.
اليمن	242	411	71 — 215.	379
الحجاز	242	—	—	141 — 454.
الحبشة	242	—	—	—
السودان	242	97 — 444.	—	—
ديار بكر	292	—	—	—
قيسارية بلاد الروم	244	—	102	—
القسطنطينية	245 — 373 — 400 — 401 — 405 — 407 — 413.	95	—	—
فرنسا	356	—	—	—
جورنة	356	—	—	—
بندق (البندقية)	356	—	—	—
جنوى	356	392	—	—
أصفهان	413	—	141	39
الكوفة	—	323 — 444.	—	—
إياس	—	385	—	—
الإسكندرية	—	384 — 391 — 898.	113	27
سبأ	—	411 — 415.	—	—
صنعاء	—	412	97	—
إرم ذات العماد	—	413	—	—
حميَر	—	415	—	—
الأنبار	—	444	—	—
غزّة	—	444	—	—
عسقلان	—	444	—	—
دمياط	—	444	—	—
أسوان	—	444	—	—
وادي نعمان	—	444	—	—
خراسان	—	444	23 — 322 — 365.	—

هنّاد/بلاد الصين	—	—	20	—
القاهرة	—	—	114 — 431.	—
بولاق	—	—	114 — 212.	—
قوص	—	—	118	—
بخارى	—	—	128	—
حماة	—	—	196	—
الحيرة	—	—	203	—
طوبة	—	—	260	—
برمهات	—	—	260	—
برمودة	—	—	260	—
مسري	—	—	261	—
هاتور	—	—	261	—
أمشير	—	—	261	—
مكّة	—	—	281	—
بيت المقدس	—	—	296	—
كابل	—	—	321 — 405.	—
خوارزم	—	—	364	—
مدينة العجم	—	—	386	—
العراق	—	—	—	39 — 48.
فاس	—	—	—	63
مكناس	—	—	—	63
السويس	—	—	—	77
جدّة	—	—	—	79
عُمّان	—	—	—	109
بابل	—	—	—	168
سرنديب	—	—	—	213
عمارية	—	—	—	219
كمين البحرين	—	—	—	219
عكّام	—	—	—	432
واسط	—	—	—	437.

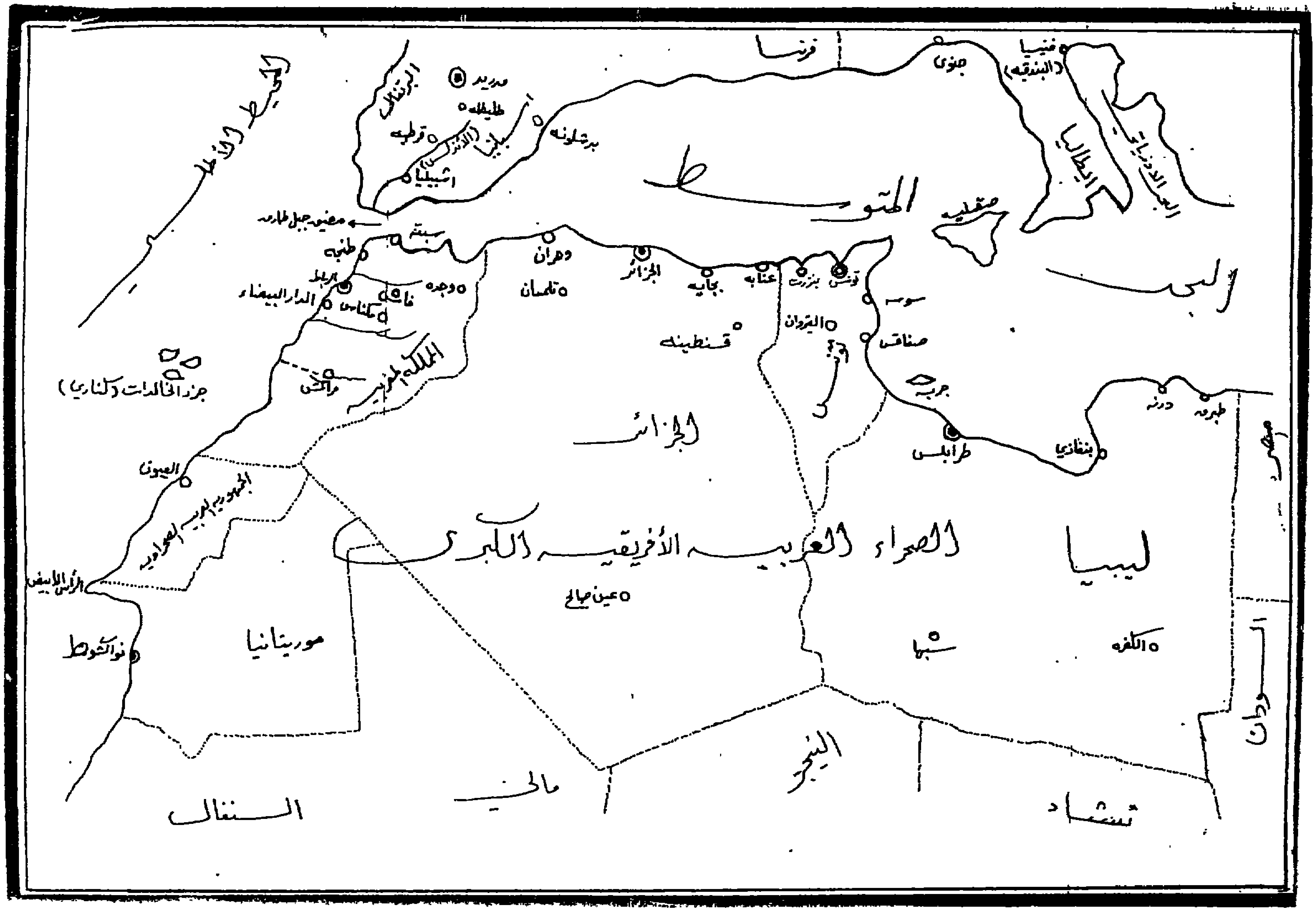
المحيط الأطلسي
البرتغال
مدريد
طليطله
قرطبه
اسبانيا (الاندلس)
اشبيليا
برشلونه
فرنسا
جنوى
فنيسيا (البندقيه)
ايطاليا
البحر الأدرياتي
البحر المتوسط
صقليه
مضيق جبل طارق
سبته
طنجه
الرباط
الدار البيضاء
مكناس
فاس
وجده
مراكش
المملكة المغربية
جزر الخالدات (كناري)
وهران
تلمسان
الجزائر
بجايه
عنابه
قسنطينه
بنزرت
تونس
سوسه
صفاقس
القيروان
جربه
طرابلس
بنغازي
درنه
طبروق
مصر
العيون
الجمهورية العربية الصحراوية
الرأس الأبيض
نواكشوط
موريتانيا
الصحراء العربية الأفريقية الكبرى
عين صالح
ليبيا
سبها
الكفره
السودان
السنغال
مالي
النيجر
تشاد

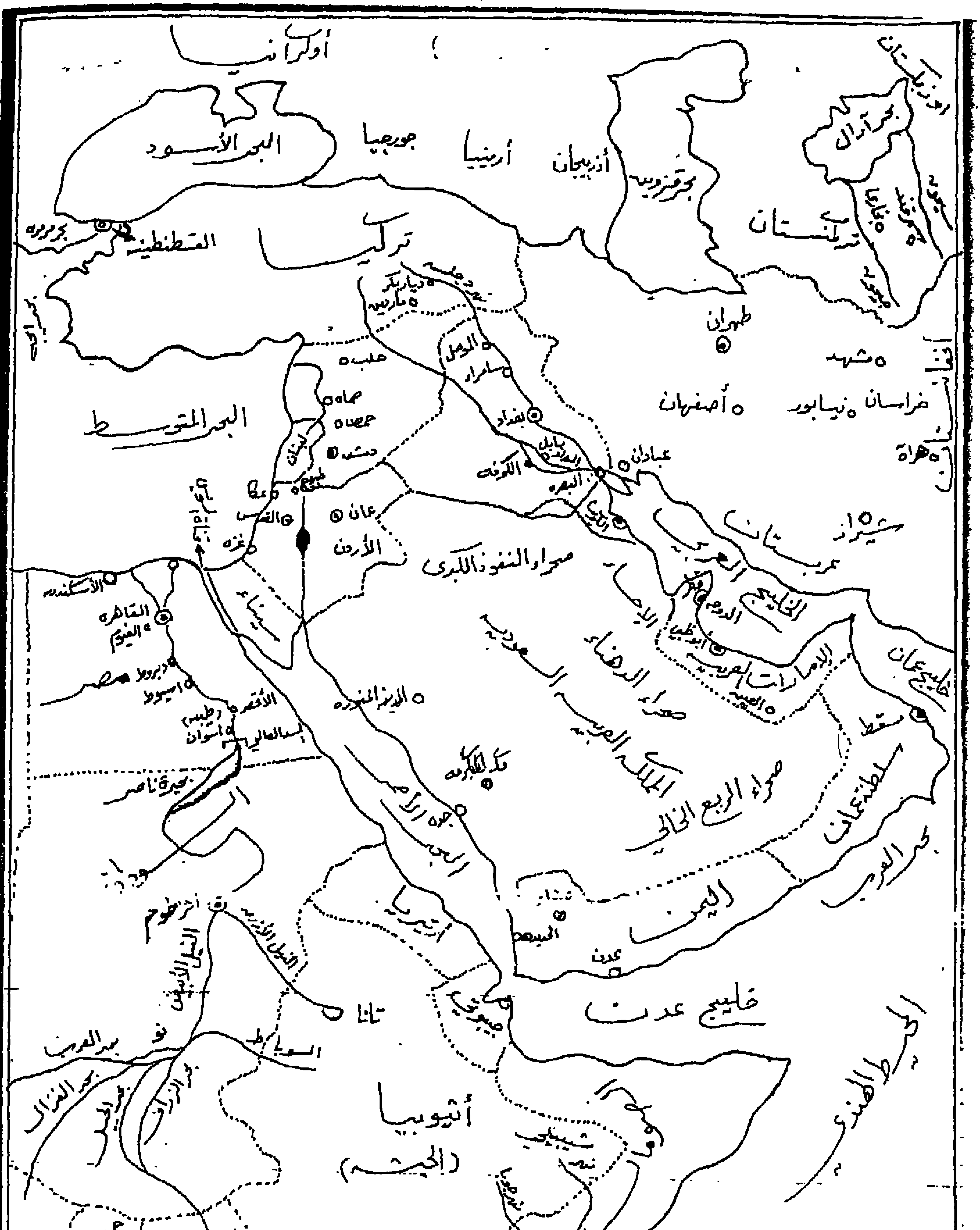

أوكرانيا
البحر الأسود
جورجيا
أرمينيا
أذربيجان
بحر قزوين
بحر آرال
تركمنستان
تركيا
القسطنطينية
ديار بكر
ماردين
طهران
مشهد
خراسان
نيسابور
أصفهان
هراة
البحر المتوسط
حلب
حماه
حمص
دمشق
لبنان
عكا
القدس
غزة
عمان
الأردن
الموصل
سامراء
بغداد
بابل
الكوفة
البصرة
عبادان
شيراز
صحراء النفوذ الكبرى
الخليج العربي
الدوحة
أبوظبي
الإمارات العربية
العين
مسقط
خليج عمان
سلطنة عمان
بحر العرب
صحراء الدهناء
المملكة العربية السعودية
صحراء الربع الخالي
المدينة المنورة
مكة المكرمة
جدة
البحر الأحمر
سيناء
الإسكندرية
القاهرة
الفيوم
مصر
أسيوط
الأقصر (طيبة)
أسوان
السد العالي
بحيرة ناصر
اليمن
الحديدة
عدن
خليج عدن
جيبوتي
إريتريا
الخرطوم
النيل الأزرق
النيل الأبيض
تانا
السوباط
بحر الغزال
بحر الزراف
أثيوبيا
(الحبشة)
كينيا
أوغندا
جمهورية
الكونغو
خط الاستواء
مقديشو
المحيط الهندي

الخاتمة

ويُمكن القول في النهاية : إنّ أهمّ الملامح المشتركة لمجمّعات مدن ألف ليلة وليلة ، تتلخّص في ما يأتي :

١- يُلاحظ أنّ معظم النساء في المدن التي تناولها هذا البحث ، سواء كنّ من نساء السلطة أم من بقية الطبقات الأخرى ، فاسدات ، ويخنّ أزواجهنّ كلما سنحت الفرصة بذلك ، ويتقنّ فنون المكيدة والحيلة بمهارة تفوق مهارة الرجال- نستثني من ذلك نساء مدينة البصرة العراقية اللواتي يتميزّن بكثير من المزايا الجماليّة من أدب وعفّة وغيرها- ، ويُلاحظ أنّ معظم رجال مدن ألف ليلة وليلة يندفعون مسعورين وراء هاته النسوة ، ويتهالكون لاقتنائهن سلُعاً جميلة في منازلهنّ .

٢- إنّ المرأة في مدن ألف ليلة وليلة ، وبشكل عام ، إذا أرادت أن تفعل شيئاً ، فأنها ستفعله شاء الرجل أم أبى . وعلى الرغم من سلطة الرجل وجبروته فإنّ المرأة كانت قادرة على تجاوز هذه السلطة والانتصار عليها ، إمّا بالمكر والخديعة ، وإمّا بالدسيسة والمؤامرة ، وإمّا بتوظيف جسدها وافتعال الإثارة والدلال ، ثمّ إظهار مفاتنها الأنثوية ، ثمّ إيقاع الرجل داخل شبكة هذه المفاتن . وتمثّل امرأة الصندوق التي خطفها الجنيّ في بداية حكايات ألف ليلة وليلة خير مثال على ذلك .

٣- يتغاضى رجال مدن ألف ليلة وليلة عن أخطاء نسائهم وجواريهم مهما كانت كبيرة ، ويغفرون لهنّ : النميمة والحسد والغيرة ، والمكيدة والكذب ، والاحتيال

والتآمر، وشرب الخمرة. ويُستثنى من ذلك حالة واحدة وهي الخيانة الجنسية، فالرجل الذي تخونه زوجته أو جاريته سرعان ما يفقد قدراته على ضبط نفسه، فيستلّ سيفاً ويرمي به عنقها.

٤- إن الغاية القصوى التي يسعى رجال ألف ليلة وليلة ونساؤها إلى الوصول إليها هي إشباع الرغبات الجنسيّة، والتمادي في إشباعها. ومن هنا فإنّ العلاقة بين الرجل والمرأة في مدن الليالي ليست علاقة إنسانية قوامها الحبّ الخالص الوفيّ، لأنّه يُلاحظ أنّ المرأة سرعان ما تخون زوجها إن هو عجز عن إشباع رغباتها الجنسية المثارة دائماً، أو إذا أغضبها، أو خانها جنسياً.

٥- مدن ألف ليلة وليلة مدن تجاريّة تقدس التجارة والمال، ويعتقد سكّانها أنّ الرجل لا يدخل عالم الرجولة الحقيقيّ إلا بعد دخوله عالم التجارة الواسع، أيّ عالم الربح والثراء. وهي في الوقت نفسه مدن مليئة بالعلماء و الفقهاء.

٦- تبدو مدن ألف ليلة وليل\ كأنها جنان أرضيّة، ففيها البساتين الجميلة، والأنهار الغزيرة، والقصور الفارهة، ولذا فإنّ الحياة فيها، وبخاصة حياة الطبقات الثريّة، تبدو ممتعة ومثيرة، فالنسيم العذب وجمال الطبيعة والثراء الفاحش، مظاهر أسهمت في جعل حياة الأثرياء رغيدة، وأسهمت في جعل هذه المدن قبلة للمعجبين والتجار من المدن الأخرى.

٧- نظراً لازدهار حركة التجارة ونشاطها في مدن ألف ليلة وليلة، فإنّ هذه المدن تبدو مجتمعات تجاريّة كبيرة مفتوحة على بعضها، حيث لا تعقيد في معاملاتها التجاريّة، ولا رقابة على السلع والبضائع المنقولة من مدينة إلى أخرى، ولا حدود صارمة تمنع المسافرين والتجار من الدخول إليها، إلا أنه ومن الملاحظ، وعلى الرغم من حريّة التنقل بين هذه المدن وكثرة الطرق التجاريّة والمعابر بينها،

أنّ هذه الطرق والمعابر ليست آمنة، لأنّ اللصوص وقطّاع الطرق والبدو الأجلاف الذين يسلبون أموال التجار والمسافرين وبضائعهم ينتشرون فيها.

٨- تغصّ مدن ألف ليلة وليلة بالنساء والجواري الجميلات من الجنسيّات المتعددة، ويُلاحظ أن معظم هاته النساء والجواري على قدر كبير من الجمال والإثارة الجنسية، ويتشابهن في أجسامهنّ الرشيقة، وإشراقة وجوههنّ واستدارتها، وضخامة أكفالهنّ وسعة صدورهنّ، وتكوّر أثدائهنّ العاجيّة(١)، ونجالة عيونهنّ، ورقة أناملهن، وحمرة خدودهنّ وشفاههنّ التي تفوق المرجان والعتيق وشائق النعمان، وطول أفخاذهنّ التي تشبه أعمدة من الدرّ. أمّا النساء القبيحات فإنّهنّ شبه غائبات عن نصوص الليالي، إلا إذا استثنينا العجائز الماكرات اللواتي يصفهنّ الرواة بأبشع الأوصاف، فهنّ شمطاوات وسحاقيّات، وعيونهن زرقاوات، وأسنانهنّ منخورة، وأنوفهنّ كبيرة مفلطحة، وشعرهنّ شائب، إلى غير ذلك من الأوصاف القبيحة.

٩- يبدو جميع رجال مدن ألف ليلة وليلة السلطويّين ضعافاً وصغاراً أمام شهواتهم (شهوات بطونهم وفروجهم)، فهم يتعاركون، ويدخلون الحروب طمعاً بالمرأة الجميلة، ويسافرون إلى أقصى المعمورة إذا ما سمعوا أنّ هنالك امرأة مثيرة ومغايرة لنساء مدنهم، ويبدّدون أموال شعوبهم في شراء الجواري، وفي تقديم الهدايا والهبات لهنّ.

---

(١) تجدر الإشارة إلى أنّ هناك موضوعاً مهمّاً في ألف ليلة وليلة لم تتناوله الدراسات النقدية والأكاديمية بعد، وهو المرأة المكوّرة، أي المرأة الممتلئة بالكتل اللحمية المستديرة والبارزة، وتشبه الكرة في ثدييها، وأعضائها التناسليّة، ومؤخرتها المكتنزة باللحم: فالتركيز على هذا الموضوع سيكشف الجماليّة الجسديّة التي يفضّلها رجال الليالي.

١٠- إذا كانت المدينة العربيّة والإسلامية في ألف ليلة وليلة قد شهدت اهتماماً علمياً ومعرفياً في مختلف المعارف، فإنّ المرأة في هذه المدن أسهمت في تحصيل كثير من المعارف والعلوم، مثلها مثل الرجل، بل ربّما فاقته في بعض الأحيان. وتُمثّل شهرزاد وتودّد الجارية خير نموذج للمرأة الذكيّة العارفة بالأدب والتاريخ والطبّ والعلوم، وثقافات الحضارات المتعاقبة والمتزامنة مع حضارتهما.

١١- على الرغم من انتشار ظاهرة الإباحيّة الجنسيّة في مدن ألف ليلة وليلة، وشدّة تهالك الرجال والنساء على ممارسة الجنس بطرق مشروعة (الزواج بالحرائر والجواري، والتسرّي بالجواري)، وغير مشروعة (الزنى واللواط والمساحقة)، فإنّ نوعاً من السريّة والكتمان كانا يحيطان بهذه الظاهرة. ومن هنا فإنّ مجتمعات ألف ليلة وليلة، بهذا الخصوص، هي مجتمعات سرّانيّة مغلقة ترتكب الفجور والدعارة سرّاً، وفي العلن تتظاهر بالتقوى والطهارة والأخلاق الفاضلة.

١٢- ثمّة إيديولوجية رجولية معادية للنساء يبثّها بعض الرواة في حكاياتهم، ومن خلالها تُقدّم النساء الزواني والماكرات. وعلى الرغم من هذه الإيديولوجيا فإنّ بعض الرواة يُوصلون بعض النساء المتميّزات إلى كراسي الملك، ويجعلوهنّ يحكمن البلاد والعباد بذكاء ومهارة وقوّة تفوق قدرات الرجال الذكور.

١٣- ليست النساء في مجتمعات مدن ألف ليلة وليلة، على الرغم من علوّ مكانتهنّ الطبقيّة والسياسيّة، إلا جواري تتركّز مهمّتها في الترفيه عن الرجل السلطوي وأولاده، فمهما كانت المرأة متفوّقة معرفياً وسيّدة كبيرة في قومها، فإنّ مجتمع الرجال لا يراها إلا جارية. وهكذا يُلاحظ أنّ الرواة، في غير حكاية، يُطلقون على المرأة الملكة أو الأميرة أو ابنة الوزير أو الوالي اسم جارية.

فمنار السنا زوجة حسن الصائغ البصري وابنة ملك جزر واق الواق، ليست إلا جارية تحت جناح رجل صائغ، وزمرّد التي تصبح ملكة، ليست إلا جارية مملوكة لرجل أدنى منها وهو علي شار. والسيّدة دنيا البرمكي أخت الوزير جعفر البرمكي، على الرغم من ثرائها وسطوتها وجمالها الذي يدهش العقول، يُسميّها الراوي بالجارية. وخديجة بنت الوزير العبّاسيّ الحسن بن سهل، وزير الخليفة المأمون وأحد كبار القادة في عصره، لا يراها والدها إلا جارية. وابنة صاحب دمشق وحاكمها في حكاية «اليهودي لملك الصين». ليست إلا جارية عاهرة جميلة تصطاد الرجال الغرباء الوسيمين في أسواق دمشق. وهكذا تتناسل الجواري في مجتمعات ألف ليلة وليلة السلطويّة الرجوليّة، المجتمعات التي سلّعت المرأة، وربّتها على أن تكون جارية تتحدّد مهمتّها الأساسيّة في تحفيز طقوس اللهو، وتحفيز الرجال إلى أعلى درجات الإثارة، ثمّ تفكيك هذا التحفيز عن طريق التواصل الجنسيّ، وبالتالي إشباع الرغبة، وإحلال الطمأنينة والتصافي بين الرجل والمرأة، بمفردات بعض رواة ألف ليلة وليلة.

١٤ - مجتمعات مدن ألف ليلة هي مجتمعات تدمن الخمرة، لأن الخمرة ضرورية جداً في جميع طقوس الفرح والمسرّات، والتواصلات الجنسيّة. وقد تورّط في الإدمان عليها الرجال والنساء من مختلف الطبقات الاجتماعيّة. وعموماً تتزامن طقوس الاحتفاء بالخمرة مع حفلات الغناء والموسيقى. وبشكل عام تكون الخمرة والموسيقى في جميع قصور مدن ألف ليلة وليلة مفتاحاً للوصول إلى أبواب أجساد الجواري وعقولهنّ، فالمرأة عندما تسكر تصبح طيّعة، وتزداد ألقاً، وتسارع في منح مُنادمها كلّ ما يشتهي منها.

مصادر البحث ومراجعه

١- الكتب القديمة.

٢- المعاجم والموسوعات.

٣- الكتب العربية الحديثة.

٤- الكتب الأجنبية المترجمة.

٥- الدراسات المنشورة في الدوريات ومقدّمات الكتب.

٦- الكتب الأجنبيّة.

١ - الكتب القديمة

١ - مؤلف مجهول: ألف ليلة وليلة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت. أربعة أجزاء.

٢ - مؤلف مجهول: ألف ليلة وليلة، المكتبة الشعبيّة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت. المجلد الثالث.

٣ - الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م): كتاب الأغاني، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، الهيئة المصرية العامّة للتأليف والنشر، القاهرة، طبعة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م. الجزء الثاني.

- كتاب الأغاني، تحقيق: علي محمد البجّاوي، طبعة ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م. الجزء السابع عشر.

- كتاب الأغاني، تحقيق: عبد الكريم ابراهيم الغرباوي، طبعة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٠م. الجزء الثامن عشر.

- كتاب الأغاني، تحقيق: عبد الكريم ابراهيم الغرباوي، ومحمود محمد غنيم، طبعة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م. الجزء الحادي والعشرون.

٤ - البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر بن داود (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م): من كتاب فتوح البلدان، اختار النصوص وقدّم لها: د. شوقي أبو خليل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة ١٩٩٧م.

٥- التجاني، محمد بن أحمد (ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م): تحفة العروس ومتعة النفوس، تحقيق: د. جليل العطيّة، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن / ليماسول، الطبعة الأولى، حزيران (يونيو)، ١٩٩٢م.

٦- التنوخي، أبو علي المُحَسِّن بن علي (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤م): من كتاب الفرج بعد الشدّة، اختار النصوص وقدّم لها: د. عبد الإله نبهان، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة ١٩٩٥م. السفر الثاني.

٧- الحلّاق، أحمد البُدَيري (ت بعد ١١٧٥هـ / ١٧٦٢م): حوادث دمشق اليوميّة (١١٥٤ -١١٧٥هـ / ١٧٤١ -١٧٦٢م)، تحقيق: د. أحمد عزّت عبد الكريم، دار سعد الدين، دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

٨- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر «مقدمّة ابن خلدون»، تحقيق وشرح: د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، محرّم ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م. ثلاثة أجزاء.

٩- الذهبي، شمس الدين أبو عبد اللـّه (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م): كتاب الكبائر، دون محقّق، دار الهجرة، دمشق/ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- دول الإسلام، دون محقّق، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، طبعة ١٩٩٥م.

١٠- ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العبّاس بن جريج (ت٢٨٢هـ / ٨٩٥م): ديوان ابن الرومي، شرح: محمد شريف سليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت، الجزء الثاني.

١١- ابن طباطبا، محمد بن علي (ت ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩م): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلاميّة، دون محقق، دار صادر، بيروت، د. ت.

١٢- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م): تاريخ الأمم والملوك «تاريخ الطبري»، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، طبعة بيروت، الطبعة الثانيّة، جمادى الثانيّة ١٣٨٧ هـ/ سبتمبر ١٩٦٧م.

١٣- ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ/ ٩٤٠م): العقد الفريد، شرح كرم البستاني، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية (١٩٨١م).

١٤- أبو العتاهية، اسماعيل بن القاسم بن سويد كيسان (ت ٢١٠هـ/ ٨٢٦م): ديوان أبي العتاهية، دار صادر للطباعة والنشر/ دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، طبعة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

١٥- الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن طَرخَان (ت٣٣٩ هـ/ ٩٥٠م): في شرح كتاب: الجمع بين رأيي الحكيمين، قدّم له وعلّق عليه: د. ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، الطبعة الرابعة، د. ت.

١٦- القرآن الكريم.

١٧- الكاشاني، المولى محسن الفيض (ت ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م): تفسير القرآن الكريم «تفسير الصافي»، مؤسسة الأعلمي بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م. المجلد الثاني.

١٨- المسعودي، أبو علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: عبد الأمير مهنّا، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ/ ١٩٩١م.

١٩- أبو نواس، الحسن بن هانئ (ت ١٩٦ أو ١٩٧هـ/ ٨١٢ أو ٨١٣م) : ديوان أبي نواس، حققه وضبطه وشرحه : أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٢- المعاجم والموسوعات

١- الزركلي، خير الدين: الأعلام (قاموس تراجم)، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، شباط (فبراير)، ١٩٩٧م. الأجزاء: من الجزء الأول إلى الجزء الثامن.

٢- شترك، م؛ وآخرون: «بغداد»، كتب دائرة المعارف الإسلامية، الكتاب الخامس عشر، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني/ مكتبة المدرسة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

٣- العلايلي، عبد الله؛ وآخرون: المنجد في الأعلام، دار المشرق، بيروت، الطبعة العاشرة ١٩٨٠م.

٤- لجنة من العلماء، الأكاديميين السوفياتيين: الموسوعة الفلسفية، بإشراف: م. روزنتال؛ ب. يودين، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، الطبعة السادسة، تشرين الأول ١٩٨٧م.

٥- ماكدونالد، د. ب؛ وآخرون: «ألف ليلة وليلة»، كتب دائرة المعارف الإسلامية، الكتاب العاشر، ترجمة إبراهيم خروشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني / مكتبة المدرسة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢م.

٦- معلوف، لويس: المنجد في اللغة، منشورات اسماعيليان، طهران / دار المشرق، بيروت، الطبعة الحادية والعشرون، ١ كانون الثاني ١٩٧٣م.

٧- نخبة من أساتذة الجامعات: موسوعة بهجة المعرفة -مسيرة الحضارة، بإشراف: الصادق النيهوم، ترجمة د. ماجد فخري، الشركة العامّة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس (ليبيا)، طبعة إيطاليا ٢٣/ ١١/ ١٩٨٢م. المجلد الأوّل، المجموعة الثانية.

٨- وهبة، د. مجدي؛ المهندس، د. كامل: معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة ١٩٧٩م.

٩- وهبة، د. مجدي: معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٤م.

١٠- ياقوت، شهاب الدين أبو عبد اللّه الحموي الرومي (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م): معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. خمسة مجلدات.

١١- يونس، د. عبد الحميد: معجم الفلكلور، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

٣- الكتب العربيّة الحديثة

١ - أمين، د. أحمد: هرون الرشيد، سلسلة كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، العدد الثالث، ذي القعدة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.

٢ - البقليّ، محمد قنديل: الطرب في العصر المملوكي، سلسلة المكتبة الثقافيّة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، العدد ٣٨٩، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

٣ - بيضون، د. إبراهيم: الحجاز والدولة الإسلاميّة، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٤ - تيمور، أحمد؛ وآخرون: درر وتحف من تراث السلف الصالح، اختار النصوص وعلّق عليها: محمد علي السرّاج، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٠م. الجزء الثاني.

٥ - جعيط، د. هشام: الكوفة -نشأة المدينة العربية الإسلاميّة، مؤسسة الكويت للتقدّم العلمي، الكويت، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

٦ - حسن، د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت / مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٧- حلاق، د. حسان: مدن وشعوب إسلاميّة، دار الراتب الجامعيّة، بيروت، الطبعة الأولى آذار (مارس)، ١٩٩٢م. الجزء الأوّل والرابع.

٨- حمّاد، د. محمد تخطيط المدن الإنساني عبر العصور، الهيئة العامّة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٩- حمّاد، د. هيام علي: المرأة في ألف ليلة وليلة، مكتبة نهضة الشرق / جامعة القاهرة، القاهرة، طبعة سبتمير ١٩٧٩م.

١٠- الخازن، د. وليم: الحضارة العبّاسيّة، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٢م.

١١- الخوري، د. فؤاد إسحق: القبيلة والدولة في البحرين -تطوّر نظام السلطة وممارستها، معهد الإنماء العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

١٢- زيادة، د. نقولا: مشرقيّات في صلات التجارة والفكر، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت / لندن، الطبعة الأولى، أيلول ١٩٩٨م.

١٣- زيدان، جرجي: تاريخ التمدّن الإسلامي، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت. الجزء الثاني.

١٤- صالح، أحمد رشدي: الأدب الشعبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٧١م.

١٥- ضيف، د. شوقي: العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة ١٩٧٦م.

١٦- ضيف د. شوقي: العصر العباسيّ الأوّل، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

١٧- طرشونة، د. محمود: مدخل إلى الأدب المقارن وتطبيقه على ألف ليلة وليلة، المطابع الموحدة، تونس، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

١٨- الطويل، د. توفيق: في تراثنا العربي الإسلامي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد السابع والثمانون، الطبعة الأولى، جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ/ آذار (مارس). ١٩٨٥م.

١٩- عبد المولى، د. محمد أحمد: العيّارون والشطّار البغاددة في التاريخ العبّاسيّ، طبع مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندريّة، الطبعة الثانية، د. ت.

٢٠- عثمان، د. عبد العزيز: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار الفكر الحديث، بيروت طبعة ١٩٦٦م.

٢١- عثمان، د. محمد عبد الستار: المدينة الإسلاميّة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني والفنون والآداب، الكويت العدد ١٢٨، الطبعة الأولى، ذو الحجّة ١٤٠٨م/ آب (أغسطس)، ١٩٨٨م.

٢٢-العشّ، د. يوسف: تاريخ عصر الخلافة العبّاسيّة، راجعه ونقّحه: د. محمد أبو الفرج العشّ، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٢٣- العلوي، هادي: في السياسة الإسلاميّة، دار صحارى، بودابست، الطبعة الثانية ١٩٩١م.

٢٤- العلوي، هادي: فصول عن المرأة، دار الكنوز الأدبيّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٢٥- عوّاد، ميخائيل: ألف ليلة وليلة مرآة الحضارة والمجتمع في العصر العباسيّ، مديرية الفنون والثقافة الشعبيّة بوزارة الإرشاد، بغداد، الطبعة الأولى ١٩٦٢م.

٢٦- قاسم، د. قاسم عبده: أثر الحروب الصليبيّة في العالم العربي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة (تونس)، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

٢٧- القلماوي، د. سهير: ألف ليلة وليلة، دار المعارف، القاهرة، طبعة ١٩٦٦م.

٢٨- الملّاح، عبد الغني: رحلة في ألف ليلة وليلة، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨١م.

٢٩- الملوحي، عبد المعين: مواقف إنسانيّة في الشعر العربي، دار الحضارة الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

٣٠- الموسوي، د. محسن جاسم: الوقوع في دائرة السحر -ألف ليلة وليلة في النقد الأدبي الإنكليزي، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، طبعة ١٩٨٧م.

٣١- الموسوي، مصطفى عبّاس: العوامل التاريخيّة لنشأة وتطوّر المدن العربيّة الإسلاميّة، وزارة الثقافة والإعلام / دار الرشيد، بغداد، الطبعة الأولى ١٩٨٢م.

٣٢- النعيمي، عبد الرحمن محمد: الصراع على الخليج العربي، دار الكنوز الأدبيّة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٤م.

٤- الكتب الأجنبيّة المترجمة

١- بروب، فلاديمير: مورفولوجيا الحكاية الخرافية، ترجمة وتقديم أبو بكر أحمد باقادر، وأحمد عبد الرحيم نصر، منشورات النادي الأدبي الثقافي، جدّة الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٢- بريجز، كريستي أرنولد: تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصويرية والعمارة، ترجمة د. زكي محمد حسن، دار الكتاب العربي، دمشق / مكتبة السائح، طرابلس (لبنان)، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

٣- بو حديبة، د. عبد الوهاب: الإسلام والجنس، ترجمة هالة العوري، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

٤- تودوروف، تزيفيتان: مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصدّيق بوعلام، مراجعة د. محمد برادة، دار شرقيّات، القاهرة، الطبعة العربية الأولى ١٩٩٤م.

٥- جرابار، أوليج؛ وآخرون: تراث الإسلام، تصنيف جوزيف شاخت، وكليفورد بوزورث، ترجمة د. حسين مؤنس، ود. صدقي العمد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد الثاني عشر الطبعة الثانية، رمضان ١٤٠٨هـ/ مايو ١٩٨٨م. القسم الثاني من الجزء الأول.

٦- جيب، هاملتون: التاريخ الإسلاميّ في العصور الوسطى، دون ذكر المترجم، المركز العربي للكتاب، دمشق، د. ت.

٧- حتّي، د. فيليب: الإسلام منهج حياة، تعريب د. عمر فرّوخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، آذار ١٩٨٣م.

٨- ديرلاين، فردريش فون: الحكاية الخرافيّة، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، مراجعة د. عز الدين إسماعيل، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، نيسان ١٩٧٣م.

٩- ريمون، أندريه: العواصم العربيّة -عمارتها وعمرانها في الفترة العثمانيّة، تعريب قاسم طوير، دار المجد، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

١٠- ستيورات، ديزموند: القاهرة، ترجمة يحي حقّي، دار المعارف، القاهرة، طبعة ١٩٨٧م.

١١- فولكف، أولج: القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، سلسلة الألف كتاب (الثاني)، الكتاب الثاني عشر، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

١٢- فيرنيه، جون؛ Vernet, Jaum وآخرون: تراث الإسلام، تصنيف شاخت وبوزورث، ترجمة د. حسين مؤنس، د. إحسان صدقي العمد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة.

عالم المعرفة، العدد الثاني عشر، الطبعة الثانية، رمضان ١٤٠٨هـ/ مايو ١٩٨٨م الجزء الثاني، ص٣٢٢.

١٣- لاندو، روم: الإسلام والعرب، تعريب منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، كانون الأول ١٩٧٧م.

١٤- ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام حتى منتصف القرن الحادي عشر- الأعمال والأيام، ترجمة إبراهيم خوري منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة ١٩٩٥م. جزآن: الجزء الرابع: القسم الأول والثاني. والجزء الرابع. تتمة القسم الثاني والقسم الثالث.

٥- الدراسات المنشورة في الدوريّات، ومقدّمات الكتب

١- أرناؤوط، عبد اللطيف: «مراجعة كتاب: محمد المصري: الديوان الدمشقي، دار الفكر، دمشق / دار الفكر المعاصر، بيروت، د. ت» في مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، العددان ٥٥/ ٥٦، ذي القعدة ١٤١٤هـ، صفر ١٤١٥هـ/ نيسان (أبريل)، ١٩٩٤م. تموز (يوليو)، ١٩٩٤م.

٢- إسماعيل، د. عزت سيّد: «الإدمان الكحولي -المشكلة المراوغة»، مجلة العلوم الاجتماعيّة، جامعة الكويت، الكويت، المجلدالثاني عشر، العدد الثالث، خريف ١٩٨٤م.

٣- باقادر، د. أبو بكر: «العالم نصّ، النص عالم: حكاية جراب الكردي نموذجاً»، مجلة علامات في النقد، نادي جدّة الأدبي، جدّة، المجلد السادس، الجزء الرابع والعشرون، صفر ١٤١٨هـ/ حزيران (يونيه)، ١٩٩٧م.

٤- البني، د. عدنان: «دمشق من ٥٣٨ قبل الميلاد إلى آخر القرن الثالث الميلادي»، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدنان ٥٥/ ٥٦.

٥- البهنسي، د. عفيف: «دمشق أقدم مدينة في العالم»، مجلة التراث العربي، العددان ٥٥/ ٥٦.

٦- ثورو، بيتر: «القاهرة قلب مصر المضيء»، دون ذكر المترجم، مجلة الجيل، مؤسسة الجيل للصحافة، باريس، المجلد السادس عشر، تشرين الثاني (نوفمبر)، ١٩٩٥م.

٧- الجوراني، وداد: «حكايات ما قبل ألف ليلة وليلة»، مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات، دار الشروق، عمّان، العدد الثاني عشر، شتاء ١٩٩٦م.

٨- خورشيد، فاروق: «الليالي والحضارة الإسلاميّة -مناقشة ورؤية»، مجلة فصول، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ربيع ١٩٩٤م.

٩- دوب، ب. هـ: القاهرة كما رآها الرحّالة الغربيّون في العصر الوسيط»، ترجمة عبد الرحمن حميدة، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، دمشق، السنة الخامسة عشرة، العددان ٤٩ / ٥٠، آذار، حزيران ١٩٩٤م.

١٠- الدوري، د. عبد العزيز: «المؤسسات العامة في المدينة الإسلامية -نظرة تاريخية إلى بغداد»، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، العام ١٩٧٨ -١٩٧٩م.

١١- الزوبي، ممدوح: «مدارس دمشق القديمة»، مجلة بناة الأجيال، نقابة المعلمين، دمشق السنة الرابعة، العدد الخامس عشر، تموز ١٩٩٥م.

١٢- الزيّات، أحمد حسن: «ألف ليلة وليلة -تاريخ حياتها»، ضمن: محاضرات المجمع العلمي العربي، دمشق، المجلد الثالث، طبعة ١٩٥٤م.

١٣- زيادة، د. خالد: «الخسيس والنفيس -الفئات في المدينة الإسلامية» مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت / الهيئة القوميّة للبحث العلمي، طرابلس (ليبيا)، السنة الرابعة، العدد التاسع والعشرون، تشرين الأول (أكتوبر) / تشرين الثاني (نوفمبر)، ١٩٨٢م.

١٤- زيادة، د. نقولا: «الحياة العلميّة في بلاد الشام في أيام المماليك»، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العددان ٥٥ / ٥٦.

١٥- سرور، د. محمد جمال الدين: «الحياة الاجتماعيّة في بغداد في العصر العباسي»، مجلة العربي، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، العدد السابع والخمسون، أغسطس (آب)، ١٩٦٣م.

١٦- شبوّح، د. ابراهيم: «الطرز المعمارية في البلاد العربيّة والتخطيط المستقبلي لها في إطار الثقافة العربية»، مجلة الفكر، تونس، السنة التاسعة والعشرون، العدد السابع، أفريل ١٩٨٤م.

١٧- القيّم، علي: «تغطية محاضرة: د. شوقي شعث: حلب وتجارة الحرير، ضمن محاضرات الندوة الدولية: حلب وطريق الحرير» في: مجلة التراث العربي، العدد الثامن والخمسون، شعبان ١٤١٥هـ/ كانون الثاني (يناير)، ١٩٩٥.

١٨- الصاوي، أحمد: «القاهرة مجمع أسواق الشرق»، مجلة الشاهد، شركة الشاهد للنشر المحدودة، ليماسول (قبرص)، السنة الخامسة، العدد السابع والخمسون، أيار (مايو)، ١٩٩٠م.

١٩- عاشور، د. سعيد: «الحياة الاجتماعيّة في المدينة الإسلاميّة، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، أبريل، مايو، يونيو ١٩٨٠م.

٢٠- عاقل، د. نبيه: «دمشق ... من الفتح وحتى العصر العباسي»، مجلة التراث العربي، العددان ٥٥ / ٥٦.

٢١- العلواني، نوري عبّاس: «مراجعة كتاب: عبد الجبّار ناجي: دراسة في تاريخ المدن العربيّة الإسلاميّة، بغداد، طبعة ١٩٨٦م»، في: مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد، بيروت، العدد السابع، ربيع ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٢٢-العلوي، هادي: «البصرة في ذاكرة الحضارة» مجلة البديل، اتحاد الكتاب والصحفيين العراقيين، دمشق، العدد العاشر، تشرين الأول ١٩٨٧م.

٢٣- قاسم، د. قاسم عبده: «بعض مظاهر الحياة الاجتماعيّة في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية»، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد الثاني والعشرون، العدد الثاني، اكتوبر، نوفمبر، ديسمبر ١٩٩٣م.

٢٤- منيمنة، د. سارة حسن: «مورفولوجية مدينة دمشق»، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت / الهيئة القوميّة للبحث العلمي، طرابلس (ليبيا)، العدد التاسع والعشرون، تشرين الأول (أكتوبر) / تشرين الثاني (نوفمبر)، ١٩٨٢م.

٢٥- الموسوي، د. محسن جاسم: « صيغ الكلام وأوجه الكتابة في ألف ليلة وليلة»، مجلة فصول، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ربيع ١٩٩٤م.

٢٦- نبيل، مصطفى: «بغداد العباسيّة -رحلة في المكان والزمان»، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت، العدد ٢٤١، كانون الأول (ديسمبر)، ١٩٧٨م.

٢٧- نبيل، مصطفى: «يوم كانت القاهرة عاصمة الدنيا»، مجلة الهلال، دار الهلال، القاهرة، العدد الرابع، أبريل ١٩٩٣م.

مقدّمات الكتب

١- حمدان، د. جمال: «القاهرة الكبرى -دراسة في جغرافية المدن»، مقدمة كتاب: القاهرة، لديز موند ستيوات، ترجمة يحيى حقي، دار المعارف، القاهرة، طبعة ١٩٨٧م.

٦- الكتب الأجنبية

1- Miquel Andre: Sept Contes des mille et une nuits, ou il n'y a pas Conte innocent, Editions Sindbad, Paris,1981.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

المقدمة ٥

الفصل الأول

خراسان ومدن العراق المركزية في ألف ليلة ولبلة

مدخل.................................... ١٣

١ - خراسان ٢٢

آ - لمحة تاريخية عن خراسان.................... ٢٢

ب - خراسان وبعض مدنها في ألف ليلة وليلة............ ٢٧

٢ - بغداد ٣٧

آ - لمحة تاريخية عن بغداد.................... ٣٧

ب - بغداد في ألف ليلة وليلة.................... ٤٣

٣ - البصرة ٨٨

آ - لمحة تاريخية عن البصرة.................... ٨٨

ب - البصرة في ألف ليلة وليلة.................... ٩٤

الفصل الثاني

القاهرة ودمشق ومدن أخرى في ألف ليلة وليلة

مدخل ١٢٣

الصفحة

١ - القاهرة	١٢٩
آ - لمحة تاريخية عن القاهرة	١٢٩
ب - القاهرة في ألف ليلة وليلة	١٣٧
٢ - دمشق	١٦٩
آ - لمحة تاريخية عن دمشق	١٦٩
ب - دمشق في ألف ليلة وليلة	١٨٦
٣ - مدن أخرى في ألف ليلة وليلة	٢١١
الخاتمة	٢٢١
مصادر البحث ومراجعه	٢٢٧

الطبعة الأولى / ٢٠٠٨

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

يتحدث هذا الكتاب، وبشيء من التفصيل، عن ملامح المدينة العربية والإسلامية في حكايات ألف ليلة وليلة، ثقافة وسياسة وعادات وتقاليد، منطلقاً من بنية نصوص حكايات ألف ليلة وليلة نفسها، ومعتمداً في الآن نفسه على الخلفيات المعرفية والثقافية والسياسية والتاريخية التي أرّخت لهذه المدن، وعلى الكلاسيكيات الأدبية التي ذكرت أخبار هذه المدن، وبخاصة في عهد الدولتين: الأمويّة والعبّاسية. وهو يركّز على أهمّ مدن ألف ليلة وليلة، على المستوى الاجتماع والطبقي والسياسي والثقافي المعرفي، وبخاصة المدن الآتية: دمشق وحلب، وبغداد والبصرة، والقاهرة، والإسكندرية، وخراسان، وغيرها من المدن.

ويعرّج، بالتفصيل، على دور المرأة، سواء أكانت حرّة أم جارية، وعلاقاتها بقصور مدن ألف ليلة وليلة ومقاصيرها، ودورها الفاعل في تشكيل العلاقات السياسية والاجتماعية، ويدرس طبيعة العلاقات بين الحاكم والمحكوم، وبنيتها في مدن الليالي. وقد بذل صاحب الكتاب جهداً كبيراً في تحليل حكايات ألف ليلة وليلة، استغرق منه ثلاث سنوات من العمل معتمداً على عدة نسخ من هذه الحكايات.

Bibliotheca Alexandrina
0682924

مطبعة الهيئة العامة السورية للكتاب
٢٠٠٨

سعر النسخة داخل القطر ١٧٠ ل.س
في الأقطار العربية مايعادل ٣٤٠ ل.س